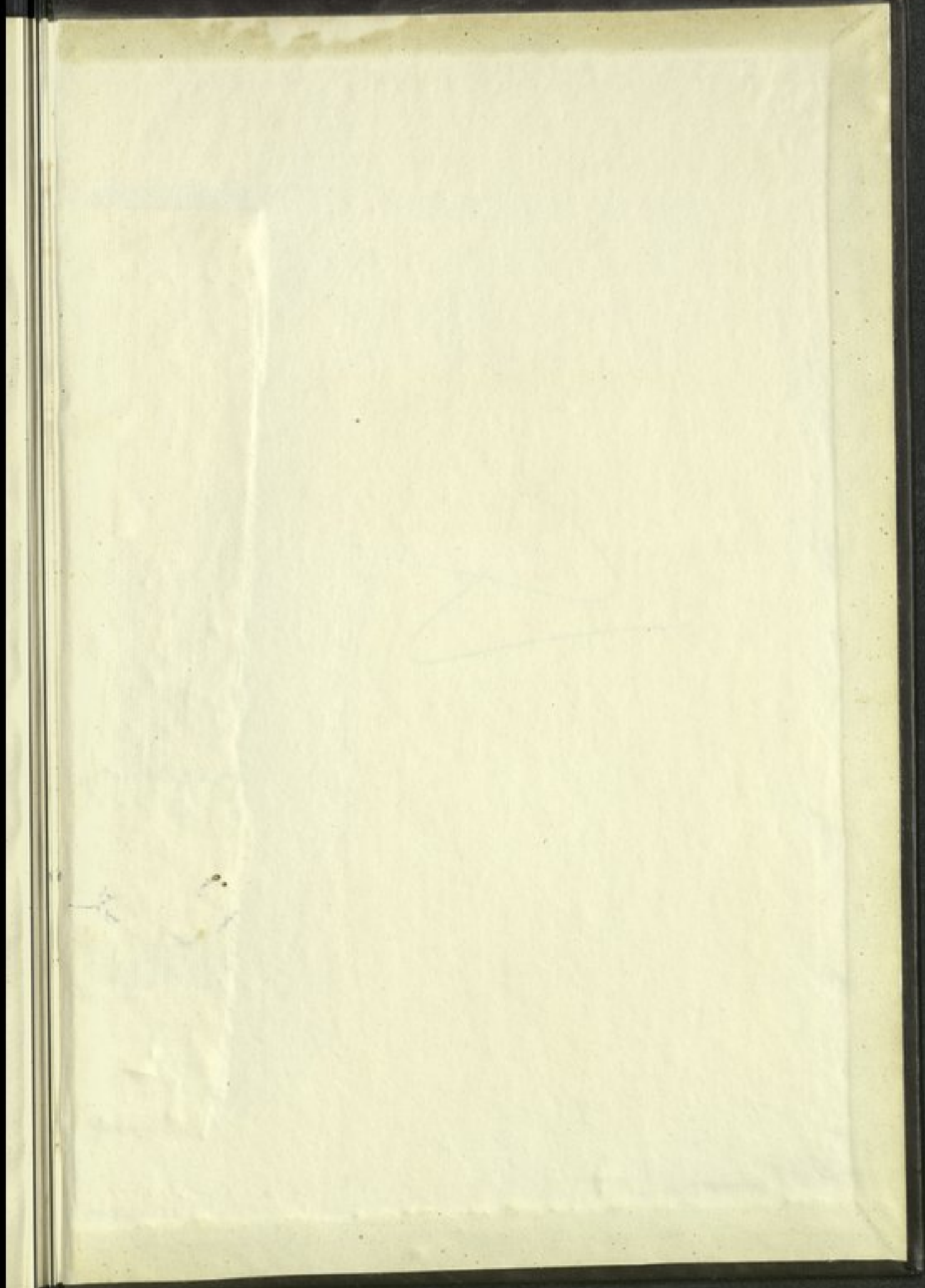




297.207 W1415A

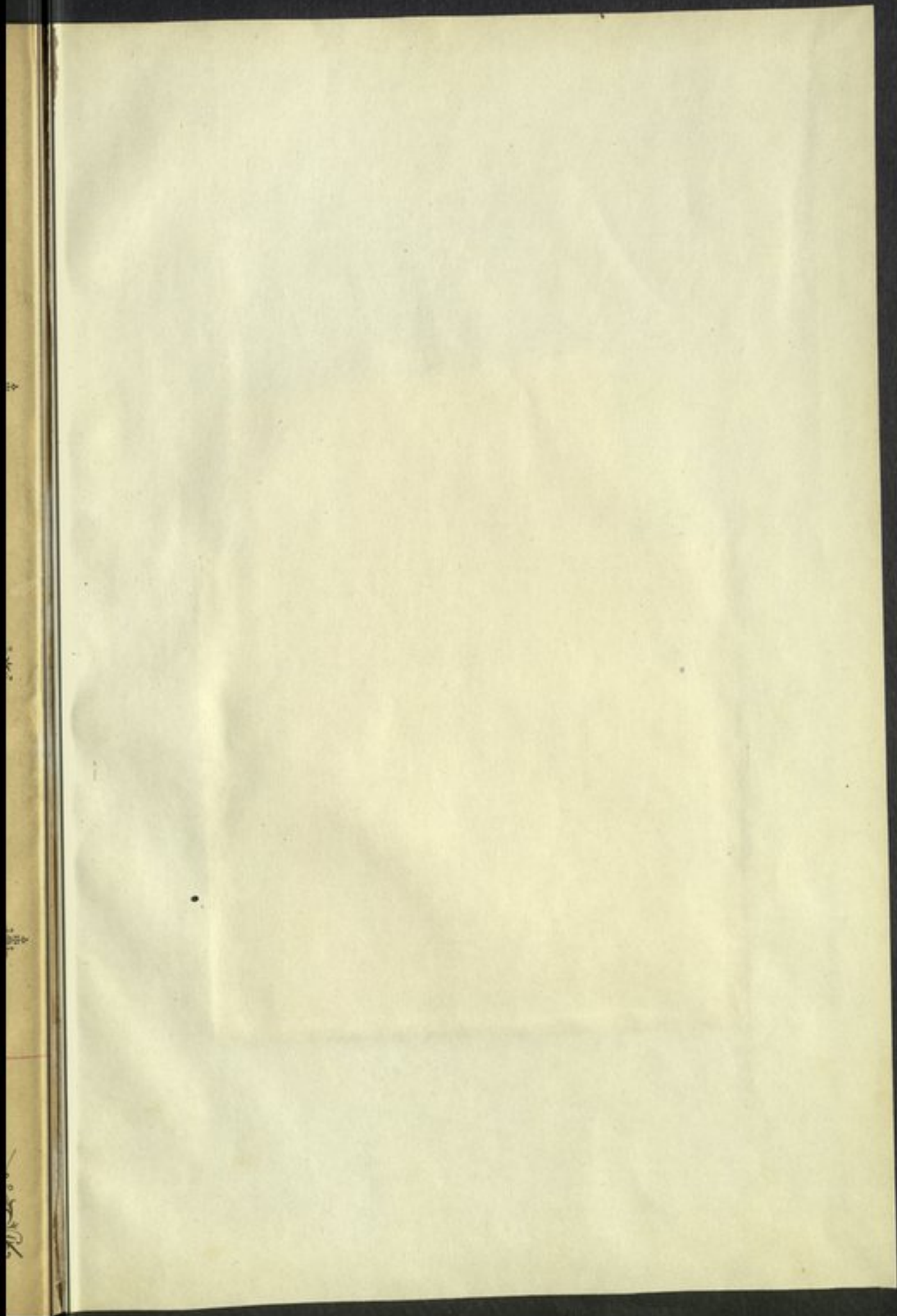
وحدى ٦ محمد فريد .

صفحة العفان في نفس القاتل.

297.207

W 1415A

~~W 1415A~~





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن من فيض رحمته ، وجعله هدىً للسالكين الى حضرة ، ونوراً للأرواح تسبح في سبحات بهجته . وريعاً للقلوب تسرح في روضته ، وشفاء للصدور تستشفى بحكمته ، وزماماً للفكر في شطجه وجولته ، وقياداً للعقل في جمججه وصولته ، وظهوراً للعلم من عتوه وشرته ، وملاكاً للعالم في خطته ، ومحاراً للمفكر في حيرته ، ومناصاً للفيلسوف من ورطته ، ودستوراً للحاكم في حكومته ، ونظاماً للمحكوم في مهنته ، وحياة للعالم برمته . (أحمد) حمد مقر بالعجز عن شكر نعمته ، متترف بالتقصير عن القيام بواجب عبوديته ، (وأصلي وأسلم) على صفوة خليقته ، وتمة ابداءه في صناعته ، وجمال الكون وزهرته ، وكمال الخلق وخلاصته ، وترجمان الحق وخليفته ، ورسوله الى العالمين بكلمته ، (محمد) نور الوجود وخيرته ، وعلى آله وصحابه ، وحزبه وعترته ، الى يوم الدين آمين

(اما بعد) فلا يخفى على مسلم من أى طبقة كان أن القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم نوراً وهدى لخير أمة أخرجت للناس وهي الامة الاسلامية ، وان هذه الامة قبل ان يجيئها هذا الكتاب الكريم كانت قبائل متشتتة ، لا تجمعهم صلة دينية ، ولا مصلحة اقتصادية ، ولا تضمهم رابطة سياسية ، شغلهم الحروب والغارات ، وديدنهم توارث العداوات ، ان نظرتهم من وجهة اجتماعية وجدتهم على أبسط درجات الاجتماع الانساني : قبائل متبدية ترحل من محلة الى أخرى طلباً للمراعى الخصبية وارتداداً للمياه العذبة ، وهم من التفاصيل والاستقلال بحيث تنقد بينهم نيران الحروب عشرات من السنين من جراء سبق حصان . او خيانة في رهان . وان واجهتهم من جهة

اقتصادية رأيهم على أدنى الحالات منها : جلُّ ما لهم الابل والغنم يتقلون بها من مرعى الى آخر يتغذون من لحومها وألبانها ويتدثرون وبارها وأصوافها لا يرفون التجارة الا اسما ولا يفهمون التعاوض الا فيما بين أيديهم من حاجات الحياة الضرورية ، اللهم الا قليلا من رجالهم الذين كانوا يحملون بعض السلع العريضة من مكة والطائف ويثرب الى بعض قرى الشام واليمن فيجتلبون بدلها من اشياء تلك البلدان حليا وأقمشة وانواعا مما يقتضيه ترف الحياة المدنية . أما من عداهم فكانوا على مانصف من خشونة الملابس والمسكن . وجشوبة الحال والمال

ولو شارفهم من حيثية علمية لرأيهم على أبسط ما يتصور من حالات الجهالة : لم يهتموا بتعلم القراءة والكتابة ولم يلتفتوا الى ما يعدهم عن العلم بالمحسوسات التي بين أيديهم لم يؤثر عنهم أنهم عرفوا فنا من الفنون ، او برزوا في فرع من افرع المعارف الانسانية ، اللهم الا الشعر فلقد كانت لهم فيه ملكة عالية ، صقلتها لهم طبيعة بلادهم الطيبة الهواء الصاحية السماء . ولكنك لو استعرضته لعقلك لما رأيت فيه من جهة الخيال الذي هو روح الشعر وحياته كبير شيء ، فما هو الا تشبيهات بالمحسوسات ، وإفادات الى المجسمات وحكم أفادتها التجارب . وأكسبتها للشيوخ المصائب ، أما ما يطير بالنفس من الشعر في آفاق الاحلام ، ويجول بها من عالم المعاني في حدائق ذات افنان ، ويعاطيها من رحيق الخواطر والاماني جرعا ذات معان فليس في الشعر العربي منه شيء الا في كلام المولدين بعد ظهور الاسلام وتلاؤوا مدنيته الزاهرة في آفاق المعمور . أما ما يأخذ بنفوسنا اعجابا وكبارا للشعر العربي القديم اليوم فهو عراقته في العربية ، ونغمته البدوية ، وجزالته اللغوية ليس غير . ثم لو استعرضت حالتهم من وجهة صناعية لرأيهم منها بالمكانة الدنيا . وماذا ترجى من الصناعة في قوم يئوتهم الشعر لا يكادون يسكنون الى جناب حتى يزعمهم الجذب الى جناب آخر . اللهم الا اهل مكة والطائف ويثرب فقد كان لهم منها ما يقيم بعضا من حاجياتهم الضرورية ولكنهم من جهة عمومية يحتاجون لجلب ما يلزمهم من الشام واليمن في كل حين

ولو لحظتهم من جهة سياسية لما وجدت لهم أدنى علاقة بالبلاد الخارجية من حيث اتحاد واتفاق ، او عهد وميثاق ، لا لأمر غير كونها قليلة الاهمية في نظر الامم جمعاء وليس لها من الشؤون ما يجعل لها وزنا في ميزان السياسة العام قال المسيو (جول لا بوم) في مقدمة

القهرست التحليلي الذي وضعه للقرآن الكريم باللغة الفرنسية ما يأتى ^(١) (ومع هذا كله كان هنالك ركن من اركان الارض لم تصبه لهجة من هذه الحركة - يريد الاضطرابات السياسية التي امت بالعالم في القرن السادس - ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم بل بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الامم التي كان يقال انها متمدنة ، ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في اوروبا الا عن بعد ، وما كان يصلها ذلك اللفظ الا في غاية الضعف والضالة ، وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تكن تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة اخبار الانتصارات او الهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سوريا الى تبعية امبراطورة القسطنطينية تبعية اسمية او رفع نهر تلك التبعية الاسمية عنها ، على ان ذلك الوادى الاخير كان يهيم ببلاد العرب جداً لأن ابناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لهافيه ابناء استعمروا الشاطي الغربي من نهر القرات وصعدوا رويداً رويداً الى بحر قزوين وما يشبه المسابير الديفية فلما بقيت منفصلة عن القطر المصري الذي اغار على جنوبه العرب الرعاة ولم يخجلوا عنه تماماً الا بعد ان انجلي عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حيث استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم ، اما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهي بلاد الحبشة ، اما الجهة الشمالية من افريقيا التي اغاروا عليها بعد مرتين والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لا يحلمون بوجودها » انتهى

(١) هنا يحسن بنا ان ننبه قارئنا الى هذه المسئلة وهي : اننا كثيراً ما نستشهد في هذه المقدمة بأقوال بعض العلماء الاجانب ، لا اعتزازاً بهم ، او اطراء لآرائهم ، او اتخاذاً لهم أعلاماً للدين ، بل غرضنا ان يكون كلامنا أبلغ في الحجج والصدق بمقاتل الخصم المعاند . فان حجة الذي يستشهد بعده فيشهد له صاغراً ، أدمغ من حجة الذي يستشهد بأخيه أو ابن عمه . وعلى هذا الاسلوب جرى أسلافنا فكل التفاسير وكل كتب السيرة المحمدية مستشهد بأقوال المشركين وغيرهم ممن شهدوا للقرآن بالاعجاز والبلاغة والحكمة . هذا ما نود أن يعرفه كل من يلاحظ علينا كثرة استشهادنا بأقوال الاجانب .

هكذا كان حال سكان الجهات الوسطى والحجاز من الاستقلال وعدم العلاقة بالامم الخارجية : أما من تطرف منهم في الحدود الشمالية والشرقية فقد وقعوا تحت سلطة الامم المجاورة لهم قال (جول لا بوم) المتقدم ذكره نقلاً عن المسيو (كوسان دو برسو قال) في كتابه تاريخ العرب ما يأتي : « ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة أحراراً لا سلطة عليهم فكان عرب سوريا دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بني حمير سيادة وقية فكانت تعتبر انها تحت سيادة ملوك الفرس ، ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه » انتهى

هذا كان شأن هذه الامة من الجهات السياسية والصناعية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية ، وهو شأن كانت عليه من عهد تكونها الى حين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم اليها ، فلم تنير عنه في قرن من القرون ، ولم يتحول عنه في جيل من الاجيال ، وها هو تاريخها أصدق شاهد

نزل القرآن الى هذه الامة بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تلبث الاسنين قلائل حتى رأيناها نهضت نهضة الاسد تتلأأ حياة ونوراً ، وتبجلي أخلاقاً وشعوراً ، ثم جالت في العالم جولة القوي العادل ، وصالت صولة القادر العاقل ، واذا بها أمة الامم ، وصاحبة العلم ، وربة السيف والقلم ، وكاشفة الغيوم والنعم . وجالية الظلم والظلم . بل بحبيبة الرمم . بأى واسطة حصل كل هذا التنير الفجائي الذي أدهش العالمين ، وبهر الناس أجمعين ؟ بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي أوحى اليه هذا القرآن فجعله دستوراً لنفسه وأمته ، واماماً لأمره وأمور رعيته ، فكان من هذا الامر ما كان مما لوأحفينا الافلام ، وأجهدنا الافهام . لعجزنا عن وصف بعضه ، فما بالك بكاه ؟

هذه الامة التي عرفت مبدأها ووقفت على كنهه خلافتها في الارض ، والتي لم يزل تاريخها لليوم زهرة التواريخ وزينة المسكاتب ، وآثارها في القلوب والعيون أكبر الآثار وأعظم المشاهد ، حيث بالقرآن وتحركت ، وبه أبصرت وأدركت ، وبه تهذبت وتخلقت ، وبه التأمت واجتمعت ، وبه تضافرت وتساعدت ، وبه صأت وأخبت ، وبه صامت

وركمت ، وبه حجت واعتبرت ، وبه قامت ونهضت ، وبه حاربت وسالمت ، وبه عاهدت
وناقضت ، وبه خالقت ونابدت ، وبه بحثت وتعلمت ، وبه دوت وألفت ، وبه هدمت
وبنت ، وإن اردت التعبير بلسان هذا الجيل فقل : وبه ترقى وتمدنت ، وبلغت ما بلغت
إذا كان الامر كذلك فالقرآن روح الامة وحياتها ، وبه وجودها وقوامها. فإين نحن
اليوم من هذا القرآن ، وما الذى حال بيننا وبينه من زمان ؟

يصيح صائح : تأخر المسلمون ، تقهر الموحدون ، غلب المتدينون ، أسير المصلون
الصائمون ، وينوح نائح : ذهبت الاخلاق ، فترت الهمم ، ماتت العزائم ، طاشت الاحلام ،
كسدت العقول ، تراخت الروابط ، ثلثت المواطف ، ويندب نادب : ضاعت الامة .
كل المرشدون ، يش الاطباء النطاسيون ، قيط الراجون المشفقون ، ذهب الدين . ذهب
الدين ! والامة بين هذا وذاك تألم ولا تعرف الدواء وتئن ولا تهتدي لمواقع الداء ، تحرك
ولكن بغير نظام ، وتحس ولكن بغير روية ، وتنطق ولكن بغير صواب ، وتنظر ولكن
بغير نور ، وتطلب ولكن بغير عقل ، وتشكو ولكن بغير طبيب ، وتسير ولكن على غير
هدي ! ما هذا الخطب الجلل ، ما هذا الحادث الكبار ، ما هذا الشأن العجيب ؟ ما الذى
أحال هذه الامة الى هذا الحضيض ، ما الذى أنزلها الى هذا الدرك ، ما الذى شككها فى
حياتها ، ما الذى أياسها من ذاتها ، بعد ان كانت كيت وكيت مما لو اردت وصفه لنضب
الخيال على سعته ، وغاض بحر الشعر على غزارة مادته

لم تنظر ولا تبصر ، لم تشعر ولا تعقل ، لم تحس ولا تحفظ ، لم تقول ولا تفعل ،
لم تقوم ولا تثبت ؟ ماذا سلب من مواهبها ، ماذا ضاع من سلكاتها ، ماذا اختل من تركيبها
ماذا اضطرب من أجزائها ، ماذا فقد من عناصرها ، ماذا غاب من مقوماتها ، ماذا فسد
من كيائها ؟

ان كنت تعجب من ارتكاس امنك الى هذه الحال بعد أن كانت سيدة الامم ، بل
محبة الرمم ، فانا أعجب من عجبك ليس الا ، اما الامة فلا عجب من تأخرها وتقهرها ،
فانها لم تتبع فى ذلك الا السنة الطبيعية « ولن تجد لسنة الله تبديلا » وكيف تقوم بغير قرآنها
وتحميا بدون روحها ؟

أنت تعرف أن منزلة القرآن من هذه الامة ومكانته من حيلتها هي ما وضعت لك قبل قليل من الاسطر ، فكيف تفلح بدونه ، أو تتعش من وهدتها بشئ خلافه ؟
 لعلك تقول وكيف حبيت وتحيا الامم الاخرى وقامت على قطبها بدونه ؟ نقول .
 ان لكل حياة اجتماعية سبباً أصلياً ، ولكل امة روحاً خاصة بها تغار عليها ، وتموت دفاعاً عنها ، وامتك هذه سبب حياتها القرآن وروحها الاسلام ، فكيف يمكن ان تحيا بدونهما ، او تساوي الامم وهي من الانقطاع عنهما على ما ترى من خاصتها وعامتها

القرآن كما كان عند آبائنا الاولين دستور الشخص الواحد في جميع اموره . يأخذ نفسه بآدابه ، ويحيي فؤاده بآياته ، ويوقظ عواطفه بترغيبه ، ويسكن جراحاته بترهيئه ، ويرتفع به نحو خالقه ، ويعامل الناس على موجب ، كان كذلك الامة في مجموعها ، فمنه أخذت قوانينها ، وعليه قاست عاداتها ، وبه قامت على قطبها ، وبفتحه جرت في مدينتها ، وخلاصة القول انه كان بالنسبة للفرد حياة فؤاده ومادة شعوره ، وكان بالنسبة للامة روحها الاجتماعية ، وحافظتها الرئيسية . فأين نحن من ذلك اليوم

انا جعلنا قراءة القرآن لمحض التبرك في المنازل ، او لاستجلاب الرحمت في مقاصير المقابر ، او للتحزن به في سهرات المآتم ، لاحظ لنا منه الاتريد الكلمات ، وسرد الصفحات ، أو سماع الاصوات ، والاهتزاز للنغمات . أما السبع في معانيه العالية ، واستشراف مغازيه الغالية ، والوقوف على أسراره وحقائقه التي احيت آباءنا من القدم ، وجعلت منهم خير الامم ، فلا حظ لنا منه اليوم ، وقد استوى في ذلك الخاصة والعامة . كأننا نود ان نحيا بغير روح ، او نحيا كي الامم بغير رابطة

القرآن الكريم كتاب الهى ، ووحى سماوى ، نزل به الروح الامين ، على قلب خاتم النبيين ، وامام المرسلين ، ليحيى به قلوباً أماتها الشهوات ، وينقذ من الحيرة عقولا سممتها الشكوك والشبهات ، ويحل من الاغلال افكاراً قيدتها الخرافات وسجنتها التخرصات ، ويسترد للنفس حقوقاً اغتصبها القادات ، وسلبها السادات ، ويقيم به دولة الكمالات . وصروح المكرمات ، ويهدم به عروشاً اقامها الاقوياء على أشلاء الضعفاء ، ويجدع به انوفاً شمخت بها الجاهلية الجهلاء ، وابعارها النعماء ، ويعدل به عوج الحكماء وأود العلماء ، ويفتح به للمدارك

ابو بأسدها السكبان . من سدنة البطلان ، ويكشف للاذهان . به حقائق العلم وطرائق
العرفان ، ويسلك بالارواح به مسالك الايمان ، المستند على بدائه الحس والعيان . هذه بعض
وظيفة القرآن الشريف التي أداها لبني الانسان ، كما شهد به أعداء القرآن ، بل وأعداء
الاديان . فإين نحن من فهم هذه الاسرار ، والاشراف على ما أودعت آياته من الانوار ،
وما ضمنت من الحقائق الكبار ، والمعارف الغزار ؟

هذا دواء جاء للافراد والامم ، وإكسير نزل من السماء ليعت الهمم ، بل ويحيي الرمم ،
وقد طبق على المرضى فأجاب . وجاء بالعجب العجاب ، فما بالنا لا نطبقه على أنفسنا ونحن
ندعى النسبة اليه ، والتمويل عليه ؟

أليس من اكبر الاسباب في ذلك اننا لا نفهم مراميها العالية ، ومغازيها السامية من
جرأ المعجزة التي طرأت على لغتنا لاختلاطنا بالامم جيلا بعد جيل . وقبلا بعد قبيل ؟

نعم هو ذلك وأضف اليه تساهل بعض العلماء في مسألة قراءته بغير تدبر فجرى الناس
على ذلك قرونا كثيرة ، لا يحفلون بما غاب عنهم من معانيه ، حتى وصل الامر الى ما ترى
اليوم : يقرؤه الحافظ من اوله الى اخره وهو لا يفهم منه سطرأ واحداً بل قد لا يكلف نفسه
فهم شيء منه طول حياته . هذا بالنسبة للحافظ . اما العامة فأمرهم أشد وأمر ، فهم لا يقرءونه
ولا يتدبرونه ، ولا يحفظون منه الا سوراً صغيرة يتلون في الصلاة معرفة ولا يدركون لها
معنى ، كأنهم يصالون بمحض الحروف والحركات أما الخاصة فكثير منهم يتلونه في المصاحف
وفهمون منه شيئاً بالقرائن فقط ، فهما مضطربا لحجيء ألفاظ في الآيات الكريمة تلجئهم
للبحث في القاموس عنها وفي ذلك من المشقة ما يحمل القارئ على الكسل راضياً بما يمكنه
تحصيله بقرينته ، لانه لو استشار القاموس لكل لفظة يجهل حقيقتها لما استطاع ان يطالع في
الساعة عشرأ واحداً وهو يريد أن يكمل ورده وهو في العادة جزء او نصف جزء . ولو
فرضنا القارئ فقيهاً في اللغة وأدرك معاني الكلمات كلها فلا يستطيع ان يفهم القرآن على
حقيقته اصلاً الا بالمامه باسباب نزول الآيات الكريمة ، فان كثيراً منها نزل منجماً على حسب
الاحوال والوقائع فن لم يعرف الحادثة التي نزلت من أجلها الآية او الآيات لا يذوق المعنى
ذوقاً يطمئن له قلبه ويثلج به صدره

روى الجلال السيوطي رحمه الله تعالى عن الامام ابن دقيق العيد رحمه الله انه قال : « بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن. » ونقل عن ابن تيمية رحمه الله انه قال « معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب » قال الجلال السيوطي عقب هذا : « وقد اشكل على جماعة من السلف معاني آيات حتى وقفوا على اسباب نزولها فزال عنهم الاشكال » اهـ

واذا كان هذا حاصلًا بالنسبة للسلف القريبين من عهد النبوة والوحي فما بالنا نحن ونحن في القرن الرابع عشر ؟

هذه الحاجة الشديدة من الامة بعثت فينا روح الاقدام لوضع تفسير للقرآن الكريم مستمد من كتب التفسير المعتبرة ، لا باللفظ ولكن بالمعنى الحقيقي لتتمكن من وضع المعنى في ابسط وأرق القوالب العربية المعاصرة التي اعتادها الناس وصارت ملكة فيهم ، بشرط اننا لم نضع من فكرنا الخاص في المعنى الجوهري للآيات شيئاً ، لانا رأينا بالاختبار ان سلفنا الصالح قد بلغ من ذوق المعاني القرآنية والسبح في مغازيها الصبيمة الغاية القصوى . اما الذي لنا في هذا الكتاب ان شاء الله مما نعدّه ثمرة لاجتهادنا فهو :

اولاً - مقدمة كبيرة فيها تاريخ القرآن الكريم وكيفية نزوله وتعدد قراءاته وكيفية حفظه وترتيبه واستنساخه واستلقات القاري لمعجزته العلمية الكبرى التي تشهد له بالصرحة التامة بانه كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، واقامة الادلة الفلسفية على حفظه من التبديل والتحريف ونقل شهادات كبار رجال العلم الاجانب على ذلك وشهادة بعض اكابر الفلاسفة الاوربيين الذي يعتقدون انه كتاب سماوي وسبب عقيدتهم هذه مع انهم لا يعرفون العربية ولا يدركون اعجازه من جهة البلاغة ، ويسبق ذلك فذلك في فلسفة الاديان وما آل الناس اليه في هذا العصر من جهة التدين والى أي غاية هم مسوقون

(ثانياً) حل الالفاظ اللغوية حلاً لا يدع حاجة في نفس القارئ الى المزيد ، وقصدنا بذلك أن يكون لقراء القرآن الكريم من كتابهم السماوي مادة لغوية كريمة يستمدون منها عقائل الالفاظ وكرائم الكلم في أجل الكلام وأعلاه مقاماً وهو الكلام الالهي

(ثالثاً) الاشارة عقب الآيات الى أسباب نزولها والحادثة التي تقدمتها ، وبما أن نزول

القرآن عقب الحوادث كان القصد منه تثبيت النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين، وهذا لا يتم الا بالدعوة الى سبيل النظام الاجتماعى والكمال العمرانى، او الى أصول مكارم الاخلاق وتهذيب النفس، فسنشير ان شاء الله عقب بعض الحوادث الاجتماعية الكبرى وقوانين التهذيب البكلىة الى ما يقابلها من العلوم العمرانية الحديثة وعلم النفس الجديد ليتجلى لقارئ القرآن اعجازه العلمى واشتماله على أصول العلوم العالية وسبقه العالم أجمع الى تقرير الحقائق العمرانية والفلسفية الكبرى

(رابعاً) الاشارة الى الآيات الناسخة والآيات المنسوخة وبيان أسباب ذلك وحكاية

الواقعة التى استلزمت النسخ، وذلك عقب تفسيرها في محلها

(خامساً) سيكون ان شاء الله فيه جدول يبين الآيات الكريمة التى فرضت فيها

القرائض علينا ليعرف كل مسلم امهات الاصول الفقهية من كتاب الله تعالى

(سادساً) سيكون فيه ان شاء الله فهرست كبير ذو فائدة لا تُقدَّر وذلك انه يريك

مواضع الآيات الواردة في كل موضوع تريد استيفاء البحث فيما قاله الله فيه بمعنى انه يدلك

على موضع كل الآيات التى وردت مثلاً في (الالهيات) او في (النبي عليه الصلاة والسلام)

او في (الصلاة) او في (الاخلاق) او في اى موضوع تريد من مواضع الكتاب الشريف،

(سابعاً) نقل الروايات الواردة في اختلاف القراءات لكل آية من الآيات الكريمة .

هذه مزاياسبع في كتابنا لم يحوها كلها كتاب قط ولا تيسر بسهولة للمؤمنين الذين يريدون

ان يبلوا شوق قلوبهم بمعرفتها ويحبون أن يروها مجتمعة سهلة المرام غير مشتمة في أجزاء

الكتب الكبيرة .

ترتيب فصول هذه المقدمة

نحن بايرادنا هذه المقدمة لا نقصد الا غرضاً واحداً، وهو بذل الوسع في تصوير

بعض الآثار الاجتماعية والخلقية والعقلية التى حدثت في العالم بواسطة القرآن في الماضى،

وما تتمتع به منها الآن، وما هى أهل له في المستقبل من الحوادث الكبرى، والامور الجسام.

هذا لا شك مطلب صعب المرام لمن يريد أن يؤسس على القواعد العلمية والعملية

العصرية ، ويدعمه بدعائم المباحث الجديدة الفلسفية ، فقد أصبح العلم الاجتماعي بفضل الجهود التي بذلت في تأسيسه في القرن الماضي من العلوم البعيدة الاكتناف ، المترامية المناحي ، الكثيرة التشعبات والتفرعات ، الجمة العلاقات والمناسبات بغيرها من المعلومات ، لا غرو فهو ثمرة جميع العلوم الكونية ، والقمة الباذخة التي انتهت اليها العقول القوية . فتحديد مركز أكبر مؤثر من مؤثرات العمران وهو القرآن ، لا يقتضي فقط ان ندرسه في ذاته من وجوه اعجازه وحكمته وبيانه وتأثيره على العقول والعواطف ، ولا ان نشرح حال الامة التي نشأ فيها ونزل اليها من قبله ومن بعده ، ولا ان نشير الى حال الرسول صلى الله عليه وسلم من جميع ما يستدعيه مقامه العالي من الكمالات الصورية والمعنوية . تلك المباحث سنلم بها ان شاء الله كلها ، ولكنها ليست النقطة التي نرى اليها ، ونمضي النفس ببلوغها . وانما النقطة التي نرجو التوفيق للوصول اليها بهذه المقدمة هي درس تلك الآثار الكبرى ، وفهم تلك الحوادث العظمى على الطريقة الناقعة لغلة النفس ، الشافية لرئيس الصدر ، الكاشطة لغلف الشكوك ، الماحية لأدران الشبه ، الآخذة بالفؤاد عن متاهات الخيرة ومحارات الوحشة ، الفاتحة للروح منفذاً الى عالمها العالي لتبل منه أوام الشوق وتستجلي به مناظر الكمال ، ومظاهر القدس والجلال ، في عالم العلي والجمال .

هذا مطلب عزيز المنال ، بعيد المجال ، نرجو الله أن يعيننا عليه بواسع رحمته ، وجيليل فضله ومنتته ، انه واسع العطاء ، سميع الدعاء .

هذا الغرض الذي وضعناه نصب أعيننا لا ينال بوسائل البحث المعروفة واسبابه المألوفة ، بل لا بد له من طرق جديدة ، ومناهج مبتكرة ، توصلنا بمعونة الله الى ما تصدينا له من أمثل السبل وأقومها ، ونحن آمنون العثار ، واثقون بنيل الاوطار . لذلك نرانا مسوقين لان نحاول درس موضوعنا على الطريقة العملية التي يدرس بها العالم النباتي مثلاً كيفية تأثير الاشعة الشمسية على المادة الخضراء لاوراق الاشجار ، وضرورة تلك المادة في النماء والازهار ، وكما يدرس الخلايا التنفسية في تلك الاوراق ويرى كيف تتسرب ذرات الاوكسجين وجزئيات حمض الكربونيك منها الى أجزاء النبات فتكبر له السوق والاغصان والأزهار والثمار ، علي اختلافها في الالوان والحجوم ، والاشكال والطعوم .

نريد ان ندرس ما تصدينا له كما يدرس العالم الحيوى (البيولوجى) تأثير الحرارة الجوية والارضية ، على الخلايا الحيوانية ، من حيث التحلل والتركيب ، والتبخر والامتصاص والافراز ، وكما يدرس كيفية تأثير الاوساط المختلفة ، ذات الفواعل المختلفة على الكائنات الحية من حيث ما تكابده طبيعتها من مقاومات ومدافعات وما تنتهى اليه من غلبة أو استسلام نريد ان ندرس تلك الحوادث الجلية التى قلبت شكل العقول والافكار . وبدأت الارض غير الارض ، والامم غير الامم ، والقلوب غير القلوب ، فجعلت من تلك الشرذمة العربية في سنين قليلة ، أمة أقامت أمر الله في الارض ، وأرغمت معاطن الجبابة من الملوك والقيصرة ، وخلصت الشعوب من آصار كانت عليهم كالجبال حملا ، كما يدرس العالم التشريحي (الفزيولوجى) كيفية انتقال الخلية الحية فى المادة الملقحة الى جنين ثم الى طفل ثم يافع ثم شاب ثم كهل ثم شيخ ، مع مراعاة الاشراف فى كل دور من هذه الادوار على كنه تلك الفواعل الطبيعية التى أثرت عليه وتأثر هو بها ، وما قابلتها به طبيعته من حيث الانفعال ، والمقاومة والنماء والحركة . نعى بكل ما مررنا نريد ان ندرس تلك الآثار على طريقها المثلى وأسلوبها الطبيعى الصادق ، لا بالجل المنمقة ، والتعابير المنمقة ، التى تسهل على الكتاب ولا يهابها الناقد المحاسب .

لذلك سنبدأ ان شاء الله بايراد موجز من فلسفة الاديان ، والادوار التى يمر بها الانسان من حيث الاستسلام للعقيدة او التردد فيها وعلاقة ذلك بالجهل والعلم والحضارة والبداءة وغير ذلك من الاسباب الادبية والمادية ، لنستطيع ان نبجى مركز القرآن للاذهان ، ونظهر مقامه العالى بين مؤثرات العمران ، وليرى القارئ معنا ايضا لحة من كمال خاتم التبيين ، وإمام المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم نطوف بالقارئ على ما يقتضيه المقام من فصول وأبحاث فى الوحي والنبوات ، وخوارق العادات ، والشؤون الروحانية الاخرى التى يعيل لمعرفتها الانسان لعلاقتها بمستقبل حياته ، وارتباطها بشؤون معناه فى سويدهاء فؤاده ، ثم نمر به بعد ذلك على موجز شاف من تاريخ القرآن الكريم من حيث وحيه وجمعه وترتيبه وناسخه ومنسوخه وتمدد قراءته الخ مما لا يستغنى عنه مطالع القرآن الحكيم . وعلى الله وحده التكلان ، وهو المستعان .

﴿ موجز من فلسفة الاديان ﴾

(١) ما هو الدين ؟

ليجرد الانسان نفسه ولو لحظة من آثار الوراثة المختلفة التي لها السلطان الأقوى على فكره وخطرات هواجسه وعلى كل حركة وسكون فيه ، وليرح من لوح ذاكرته كل ما نقشته فيها المؤثرات المختلفة في المكان الذي يعيش به وفي الاسرة التي هو فرد منها وفي الجمعية التي هو من آحادها ، وليتناس كل ما علمه عن الوجود وكائناته وما أدركه من مخلوقاته ، وليحسب نفسه خلق من ساعته ، ثم لينظر الى الوجود نظار الذي لا يملك من العلم الا ما تهديه اليه مشاعره الظاهرة ، واحساساته الباطنة ، وليبدأ بتسريح نظره في تلك القبة الزرقاء التي تحيط بالكون من كل جانب ، ثم لير به على ما يحيط به من الخلاء المترامي الاطراف الى كل جهة يوجه اليها بصره ، ثم ليلق نظره على نفسه بعد ذلك . فإذا يحيش في صدره من هذه الجولة السريعة ؛ لا مشاحة في انه يؤوب وفي نفسه رعدة من الخوف والدهشة ، وألم من الفرق والوحشة ، لما تبين له من عظم الكون وشسوع أكنافه ، وحقارة شخصه وضوالة جثمانه ؛ رأى تلك اللانهاية فوق رأسه فوق عطفه منها حيث انتهى بصره ، وارتد فكره منهزماً يرجف من شدة ما أصابه من فخامة هذا المجهول الهائل المسدول عليه من كل جانب ؛ أراد تصوّره بما فطر عليه من حب اكتناه المسابير ، ان ينفذ الى صميم ذلك الامر الجلل فأنحلت عزماته انحلالاً ، وارتخت معافد همته ارتخاءً ، وأخذ القزع بمتنفسه أخذ اكاد يفقده حسه من شدة ما شعر بحقارة ذاته وتفاهة أمره في وسط هذه اللانهاية الفخيمة ؛ رنا يبصره الى ماحوله ، وما بين يديه وخلفه ، فرآه محاطاً بفضاء تضيق عنه سعة خياله ، ويخرج دونه متسع وهمه ، فأنزل نفسه منه على قدر ما أخذه جسمه من حيزه غير المتناهي ، فكاد يصعق من الوجع أمام هذا السكون المطلق ؛ فإذا جن عليه الليل وهو في تلك الحالة الساذجة ، ورأى أديم السماء قد تلون بذلك اللون القاتم ، وتلاألت في ارجائه النجوم والكواكب ، وبرزت تلك القبة السماوية في ذلك المعرض المرصع ، وزادت مهابة الليل فخامة

وعجيباً ، ازداد أمرها غموضاً في فكره ، وتبين له انه وسط بحر من مجاهيل وأسرار أيسر ما يستطيعه أمامها الاقرار بعجزه وضعفه ، والاذعان بحقارته وضوؤله شخصه ، واحتياجه المطلق للمجا يلجأ اليه ، وموئل يعول في النجاة عليه ، وفقره لقوى يهبه من قوته ، ورحيم ينشر عليه من افاضات رحمته .

هذا هو مبدأ الدين ، والباعث الطبيعي على العقيدة ، والسائق القاهر للبحث عن خالق الكون جل وعز ، وهو بعينه الدافع الذي دفع الامم للتمسك بالاديان ، والرضوخ للكهان ، وتسليمهم الامر لهم في كل شأن . وهو بذاته أيضاً الداعي لارسال الله تعالى رسوله تترى الى الامم بالهدى ودين القطرة .

ربما يقول قائل : « ان هذا التصوير البديع ان صدق على الانسان مجرداً عن آثار العلم فلا يصدق عليه وهو كما نراه اليوم ، ثملاً من رحيق المعارف ، نشوان من سلافة المعلومات ، مدعيّاً انه ادرك المعلولات والعلل ، ووقف من امور الكون على ما لم يحلم به الاول ، ولا اضطرب لهم به أمل »

قول لهذا المعارض هوّن عليك ! جرد نفسك من كل ماذكرته لك من آثار الوراثة والعقائد ، وما قرأته في كتب الملاحدة من الظلمات الكثيفة ، ثم قف ذلك الموقف بما لديك من العلم ، وابدأ بنظر القضاء المحيط بك من كل جانب ، واستورد الى فكرك النظريات الرياضية التي تثبت لك ان القضاء ممتد الى ما لا نهاية . . . أي انه ليس له حد ! وانه مشحون بعوالم لا تحصى من نجوم وكواكب وتوابع وذوات أذنان ، وان الارض التي أنت عليها ليست الا كالدرة بالنسبة لتلك الاجرام الضخمة ، وتذكر ما قرأته في ابحاث (كبلر) و (كوبرنيك) و (هرشل) و (زولتر) و (فلامريون) من أن الارض كوكب من الكواكب السيارة السابحة في الفضاء حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً ونصف كيلومتر (في الثانية الواحدة) وانها ذات شكل كروي محيطها (٤٠٠٠٠) كيلو متر وانها واحدة من سيارات أخرى أكبر منها حجماً ، دائرة كلها حول تلك الشمس المضيئة التي هي أكبر من الارض مليوناً واربعمائة الف مرة ، وان المسافة التي تفصلها عن الارض هي ثمانية وثلاثون

مليوناً من القراسخ وان هذه الشمس بهذا الحجم الهائل لا تقارن بالشموس الاخرى التي تسبح مثلها في هذا الفضاء المدهش .

وان اردت ان يكون لك فكرة عمومية على حجومها فاعلم ان اقرب نجم منا يصل الينا ضوءه في ثلاث أو أربع سنين ، فاذا كان ضوء الشمس يصل الينا في أقل من أربع دقائق ومع ذلك فهي أكبر من الارض بمليون وأربعمائة الف ضعف فكم يكون حجم نجم لا يصل ضوءه الينا الا في أربع سنين ، اي في (٢٠٧٣٦٠) دقيقة ثم ماذا يكون حجم الشعري التي يصل الينا ضوءها في ٢٢ سنة ! ! ! ! !

خل هذا جانباً وقل لي كيف تتصور حجوم تلك النجوم التي تكتشف جديداً ويزعم علم الفلك ان ضوءها لم يزل ساجحاً في الفضاء من يوم تكونها الى يوم وصول ضوءها الينا اي في ملايين من السنين أليس في هذا التخيل ما يرعد الفرائض يأخذ بمخنق التصور ؟ هذا بالنسبة لما فوق رأسك ، اما ما هو بين يديك وخلقك من ممالك الطبيعة من جماد ونبات وحيوان وانسان فليس أمرها بهين عليك ، لانك لو استعرضت شيئاً قليلاً من عجائب النباتات ورأيت انك تلقى الى الارض بزررة لا تكاد تحس بها بين أصابعك فتراها بعد سنين شجرة ذات جذع غليظ ، وفروع ممتدة الى أمتار عديدة وأوراق وأثمار ذات ألوان وطعوم ، واريح ينفخ الانف من مسافات بعيدة ، ثم لو طفت على مملكة الحيوانات واستحضرت الى فكري تلك الكائنات المختلفة في الصور والاحجام والاشكال والطباع والفرائز والحيل مما لا تكفي المجلدات لشرح عجائبه ، ثم لو تفكرت في ان المادة التي هي أصل كل هذه الصور البديعة مبهولة لديك بالمرّة ، لرجعت وكلك شعور بضعفك وعجزك ، واحساس بوهن طبيعتك وحقارة شخصك ، ولوجدت فؤادك ساجداً بفطرته امام هذه القوة العظمى التي ابدعت هذا الوجود المدهش ، ولتحققت انك كلما ازددت بالكون علماً ازددت احساساً بجهلك ، وشعوراً بضعفك واحتياجاً لمن يأخذ بيدك ، ويسكن جيشان صدرك . « انما يخشى الله من عباده العلماء »

ثم انك كلما رنوت الى اجزاء هذا الكون ورأيتها تتلاشى وتتجدد ، وتنفرد وتجمع ، ووقفت على حركة سريان الحياة من النبات الى الحيوان الى الانسان وجدت نفسك

مسوقاً لأن تتساءل عن حفظك من هذه الحياة وعن مصيرك بعد تلاشي هذا الجسم السريع العطب، ولو خزنك حب الحياة المرتكز على أجل عواطف نفسك ودفعك لأن تجول بفكرك في مضمرات الأشياء ومستورات المعارف، لتشق الحجب التي تحول بينك وبين مطلوب روحك حتى تجد ضالتك فتعيش سعيداً، أو لا تجد لها فتبقى في هذه الأرض العمر الذي قدر لك بين فزع وجزع، ووحشة ووهل، تعالج من اضطراب نفسك مالا تعبر عنه، حتى تجيئ تلك الساعة المنتظرة على صفة لا تستطيع أن تخيلها

الأتري بعد هذا أن الإنسان على أي حالة من أحواله سواء كان جاهلاً لا يعرف شيئاً أو عالماً يعلم شيئاً... لو جرد نفسه من آثار الوراثة المختلفة ومحا من ذهنه كلما يربطه بالمكان الذي عاش فيه وبالمذهب الذي ينتمي إليه، ثم تفكر بعد ذلك في الكون وفي نفسه لا ندفع بفطرته وطبيعته اندفاعاً اضطرارياً إلى اللقاء نفسه ساجداً أمام خالقه ولو لم يستطع أن يتصوره بصورة، أو يقع فكره منه على كيفية.

هذا هو الدين القطري الذي خلق الإنسان مطبوعاً عليه بطابع الخالق الحكيم الذي أقام الإنسان على هذا المركز الوسط وقدر عليه ما قدر من الكمال الصوري والمعنوي. فالدين على هذه الصورة الطبيعية لا يتصور زواله بوجه لأنه مرمى كل عواصف النفس وغايتها وقد أدرك ذلك أهل البصر من الغربيين فقال غطريف الفلاسفة الأوربية (إرنست ريتان) في كتابه تاريخ الأديان: «من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعدّه من ملاذ الحياة ونعيمها، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي الدين أو يتلاشى بل سيبقى أبداً بدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الإنساني في المضائق الدنيئة للحياة الطينية»

وقال الفيلسوف الشهير (اجوست سباتيه) في كتابه (فلسفة الأديان): «لماذا أنا متدين؟ أني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة إلا وأراني مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب وهو: أنا متدين لأنني لا أستطيع خلاف ذلك، لأن الدين لازم معنوي من لوازم ذاتي. يقولون لي ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج فأقول لهم قد اعترضت على نفسي

كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ولكن وجدته يقهر المسئلة ولا يحلها وان ضرورة الدين التي اشاهدها في حياتي الشخصية اشاهدها بأكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية فهي ليست أقل تشبهاً منى باهداب الدين الى ان قال : « اذن فالدين باق وغير قابل للزوال وهو فضلاً عن عدم نضوب ينبوعه بتمادي الزمن ، نرى ذلك ينبوع يتزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة » انتهى

وهذا كله فتحة من فتحات هذا التاموس الكبير الذي اوحاه الله لخاتم انبيائه صلى الله عليه وسلم : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون »

﴿ الإنسان والايمن ﴾

اذا كان هذا الجسم المادى محتاجاً لماوى يأوى اليه ليتقى فيه افاعيل الطبيعة المحيطة به وغوائل الاعراض التي تكتنفه من سائر جهاته فليست الاحساسات المعنوية والعواطف القلبية بأقل احتياجاً من ذلك الجسم لموئل تعتصم فيه مما يتجاذبها من عوامل الشعور الذي غرس فيها بحكم الفطرة الاصلية . ليس الانسان كالحيوان يقتنع بما يسد حاجيات جثائه من مأكل ومشرب ولا يبالى بعد ذلك بما يسوقه اليه القدر في غده او بعد غده . كلا بل للانسان مطالب روحانية لا يقل حنين احساساته عليها وشغف امياله بها عما يصيبه من فقد مطالبه المادية بل ربما دق الشعور في بعض الكاملين من هذا النوع الانساني فأثر الوصول الى مشتهيات روحه على كل مطلب جنائي أياً كان نوعه . بل لا يخلو واحد منا من شعوره حيناً من الاحيان بحالة يود فيها لو نال راحته الضميرية التامة ولو جرده ذلك من كل ماله من بهرج الدنيا وزينتها الموهمة . انشدك الله اما ألم بك شعور ما في حين من احيان حياتك بعثك للنظر في نفسك ومصيرها في دنياك وأحوالها وفيما يحيط بك من الكائنات على اختلاف أنواعها وأجناسها فوجد فيك احساس سام لم يكن فيك من قبل ، احساس اراك رأى العين أن ليس لك في هذا الكون المحسوس مقنع تقف عنده ولا موئل تعتصم فيه من مهددات هذه الحياة القصيرة الأمد ، احساس اهاب بك عن الركون لموهات هذه

الاشياء الارضية وصاح بك لتفتق الحجب التي رانت على فؤادك فتمتعه من الاشراف على حقيقة سر يخفق له فؤادك الذي بين جنبيك . احساس سماوى ليس من طبيعة هذه الجبلية الحيوانية صغرك الوجود على ضخامة أجزائه وحقر لك هذا الملكوت الأرضى على كبر ابعاده وشخص لك مخاوفه ومعاطبه تشخيصاً دفعك الى تلمس المخلص منه والمحيص عنه . اما والعلم لو لم يكن الله جلت حكمته رحم هذا النوع فجعل شواغله المادية مانعة له من الاسترسال فى هذا الشعور لترك الناس عمار الدنيا وخرجوا على وجوههم فى القفار يجأرون الى الله ويلتدمون صدورهم رهباً من هذا الخطر المحدودق ورغباً فى تلمس المخرج من هذه الغوائل الصمية

دع سيطرة المادة جانباً واطرح أقوال مروجة الزخارف والاباطيل وارجع لنفسك لحظة من لحظات حياتك العزيزة واستمعت هذا الفؤاد المرتجف بين جنبيك واستبني ما يتنازعه من احساسات ومشاعر ثم تعال فقل لى الى أى مدى وقفت بك مراميك الداخلية وفى أى نقطة من هذا المحتد الطينى سكن اضطراب فؤادك الولهان ؟ ثم أنبئني بماذا حكمت على الارض وخيراتنا والسما وثريلها والمناصب وحفاواتها والالقاب وكراماتها والثروة ومموهاتها ؟ ألم تجل لك كلها هباء منثوراً آيلة الى التلاشى والفناء وان مثلها اليوم بالنسبة اليك كمثلها فى الغد : أسباب شقاء وبلاء ومثارات شدة وعناء ودواعى آلام واسقام ومسارح اوهام واحلام ؟ هل بعد المشاهدة برهان أو غير التجارب عرفان ؟ لقد رأيت من قبلك ممن نال من بسطة الجاه والسلطان ولذة الثروة والشأن رجالاً سجد الناس امام آرائهم وعبدوهم دون بارئهم . فماذا كان مصيرهم والى أى بيثة وصل أمثلهم ؟ ألم يدسوا فى الارض كما يدس القذر وتخلى عنهم كل بطانة ووزر، وغرتهم العلياء الارضية حيناً ثم اهوتهم على عروشهم كما تهوى الشجر فى يوم شديد العواصف .

نعم للانسان فى لحظات راحته وسكونه مسارح فكرية فى أمثال هذه المرامي السامية التى هى من مميزات الروح الانسانية وليس فؤاد الجاهل بأقل شعوراً بها من فؤاد العالم وليست هى فى مكان وزمان أشد منها فى زمان ومكان آخرين . تدل على ذلك اشعار الامم واغانيم منذ القدم فانها تترجم عن مثل هذا الشعور السامى وترينا انه فطرى فينا وان دون انتزاعه منا نزع الفؤاد من بين الجوانح .

كل حادثة من حوادث الحياة توقفنا هذا الشعور وتجعله في أشد درجاته فما مرض
 الأقرباء والأصدقاء وما حزن الأولياء والاخلاء وما مصائبنا في النفس والأهل والمال الا
 منبهات لهذا الشعور ومذكرات له ، وما أكثر استهداف الانسان لمثل هذه الحوادث في مدى
 حياته القصيرة الامد . الانسان في اثناء تلبسه بهذا الشعور يحتاج الى مؤاس يواسيه ، وموال
 يواليه الهدو ويوليه ومعتمداً يعتمد عليه فيما وقع فيه . ليس وقت الشعور بالمصيبة دور تمن
 وتأمل حتى يكتفي الانسان من التأسية بما يؤثر على خياله ولو توهماً ، كما هو شأنه في بعض
 الاحيان بل هذا دور جدّ وعمل ينبعث الانسان فيه لتلمس تأسأ حقه يصرف بها حرارة
 هذا الشعور فيه ساعة احتدامه والا أحرق اليأس فؤاده وناهيك به من سعي . نعم يحتاج
 الى مؤاس يفتحه بما يشكو منه معتقداً أنه اشفق عليه من أبيه وامه ومن الناس اجمعين .
 مؤاس يحس انه مهم بشأنه وقادر على تقيته مما وقع فيه . مؤاس يرضى الانسان ان يلقي
 نفسه بين يديه القويتين فتحفظانه من السقوط وتقيانه على نهج الطريق .

اذا اصاب الانسان بمصيبة تغطي فؤاده ناراً ، وكادت نفسه تطير شعاعاً ، وشعر بحقيقة
 ضعفه ووهنه وأحس بضوولة قواه وحوله ، وادرك كنه مركزه في هذا الوجود الهائل وعرف
 انه فيه غريب وحيد بل طريد شريد . اينما يوجه وجهه فلا يجد معيناً له على بلائه ولا مقبلاً
 له من تعثره في ذبول لأوائه . يرفع رأسه الى السماء فلا يرى الا الكواكب الزهر تسبح في
 آل الفضاء والصمت شعارها والسكوت ديدنها . ويرمي بعينه الى الارض فلا يرى الا
 غيراً وجبالاً وهضاباً وتلالاً ، ان ناجاها ارتد عليه صوته او ذهب ادراج الرياح . ثم يرجع
 الى نفسه فيرى حوله قومه وبني ابيه وليس فيهم واحد منزّه عن مثل ما ألم به فليسوا بأقل
 احتياجاً لتلمس المخلص من مهددات الوجود ومبيدات الحياة . اذن ماذا يعمل الانسان وهو
 في تلك الحالة الحرجة والموقف الصعب ؟ باي ركن يعتصم والى اى ملاذ يلوذ ؟ على أى سند
 يعتمد وفي أى مساعد يؤمل النجاة ؟ ليس امامه الا الترامي بين يدي تلك القوة الازلية التي
 اخرجته من العدم ^(١) وقضت عليه بما هو فيه من ذلك الحال . تلك القوة التي أقامت هذا
 الوجود على دعائم الحكمة غير المتناهية . تلك القوة التي لم تضع شيئاً في غير محله ولم تهب

(١) نعتذر عن استعمالنا لفظ (قوة) في هذا الموضع فان المقام اقتضى ذلك

شيئاً بدون فائدة . تلك القوة التي وهبت الانسان هذا الفكر الطموح والعقل الجموح والاحساسات المتعاكسة، والاميل المتضاربة، لحكمة بالغة ومقصد عظيم، اذا التي الانسان بنفسه بين يدي هذه القوة تلج صدره واطمان على نفسه لتحقيقه ان هناك قوة معتنية به ومهيمنة عليه . ولو فقد الانسان الثقة بهذه القوة فكيف تدخل نفسه طمأنينة ام كيف يتذوق لذة الراحة والسكينة ؟

الانسان مفتقر في كل لحظة من لحظاته الى من يشاركه في احساساته ويشاطره في أحزانه وأشجانه، فكيف به لو فقد الثقة بأصل حياته، ورأى نفسه في هذه اللانهاية وحيداً ضعيفاً مهدداً في كل لحظة بما يبيده ويبدده ؟

الانسان يحتاج الى روح من الامل في كل حركة من حركاته في اعماله، فكيف يه لو تولاه اليأس في وجود من يعتمد عليه عند ما تلم به جسام المصائب وعظام النوائب ؟ الانسان انسان بروحه اكثر مما هو بجسمانه، فهو يحتاج في كل خطرة من خطرات احساساته ومراميه الى غاية كمالية يوجه اليها تلك الاحساسات والمرامي فكيف به لو عمى عن روح الوجود وقيومه ومنتهى كل جمال وكمال ولم يرفى كل هذا الكون الهائل الا ذلك الصمت المرعب والسكوت المهيّب ؟

أليس من المؤلم للانسان والجراح لقواده ان يتوهم ان هذه اللانهاية المحيطة به من كل جانب خالية من سميع محيّب وانه لا شيء فيها يسمع ضراعتيه القلبية ولا مناجاته السرية ؟ أليس من الثقيل عليه ان يرى بصره الى السماء فلا يبصر فيها الا فراغاً مدهشاً وسكوتاً مريباً ؟ لقد دلت الآثار التاريخية ان الانسان جمل الايمان دائماً اشفق المسلمين له في مصائبه وأرأف المعزين له في نوائبه . فكم فؤاد موجد بنازلة لولا الايمان لانفطر وكم كبّد حرّى لولاه لذابت كمداً وحسرة ! ماذا يهبط روح السكينة والتأساء على عزيز قوم ذل، أو غنى قوم افتقر، اذا جلس يفكر فيما آله حاله وسط الليل الخالك وهو يتنفس الصعدا، غير (ايمانه) بأن معه من يعلم السر وأخفى، ويقدر على منحه الصبر على مصيبته أو القوة على استرداد ثروته ؟ ثم ماذا ينزل روح الصبر والسلوان على روح ام فقدت ولدها في ريعان شبابه وميعة صباه غير (ايمانها) بانه أصبح وديعة لدى مبدعه الذي هو اشفق عليه منها في عالم غير هذا

العالم ؟ ثم قل ماذا يقود الرجل الى ايراد نفسه موارد العدم وارسالها الى عالم الفناء غير (عدم ايمانه) بهذه القوة المهيمنة على مقادير البشر ؟ أما يسوع لنا ان نقول ان (الايمان) لازم من لوازم الانسانية وحاجة من حاجات الحياة الارضية من فقدته فقد فقد طيب الحياة ولو ملك الدنيا بيمينه . ومن وجده فقد وجد راحة الابد ولو كان بين انياب الفاقة ومخالب الفقر المدقع .

ولقد نرى ويرى أهل البصر كل يوم ان الناس يتفاوتون في الصبر على المكاره والجلد عند لقاء الملمات ، على قدر ما أوتوا من قوة (الايمان) حتى قد تنتهى الحالة ببعض الافراد منهم الى المساواة بين آثار النعمة والمصيبة لاعتبارات سامية يؤديهم اليها شدة ايمانهم وثبات يقينهم ، ولعل هذا هو غاية ما ينشده الفلاسفة من سعادة الدنيا . أما يجب اذن على الذين يبيتون حيارى وجلين ينتظرون وقوع المحن عليهم ويصبحون خائفين واهمين ويكون على انفسهم قبل ان يحاط بهم ، أن يسعوا في تقوية ايمانهم وتثبيتها ، بدل حسو السلافة ليتناسوا ما هم فيه تناسياً وقتياً ثم يعود اليهم الوجمل بأشد مما ذهب ؟ على ان الفرق بين الطرفين عظيم . فان الرجل الذى يعمل لتناسى ما سيحقيق به من النوائب فى اهله ونفسه ، يجنى على ذاته جنائيات لا تغتفر : (أولاً) لانه بعدم تقوية ايمانه يحرم نفسه من لذة الايمان فان له لذة فى القلب لا يعلم قدرها الا المؤمنون حقاً الذين قال قائليهم : نحن فى لذة لو علمت بها الملوك لقاتلونا عليها بالسلاح . (ثانياً) لان بحثه على السعادة من غير طريقها يرمي به الى متائمه المحظورات الانسانية القاتلة التى تهلكه وتهلك الكثيرين معه كما هو مشاهد من عشاق السعادة وطلاب الراحة من غير طريقها . هذا بخلاف حالة المؤمن فانه لما ادرك أن لا شئ فى الوجود بغير حكمة ، وان لكل عمل نتيجة ، ورأى نفسه يشعر ويتألم ويشكر فى المعضلات ويصل الى حلها وهو كل يوم فى رقى مستمر لم ينهزم امام ما يؤلمه من حالات الحياة التى تتوالى عليه ولم يفر من وجه الملمات التى تخزعه من كل جانب بل وقف وقفة الثابت الجليلد ، وألقى على نفسه هذه المسئلة : ماذا أنا . ومن أين أتيت . والى أين أذهب ؟ ما هي الحياة . وما هو الموت . ولماذا سلطت على هذه الملمات ؟ ما هو هذا الوجود . وما هي علاقتى به ؟ هذه الاسئلة وضعها المؤمن نصب عينه واشتغل بحلها لعلمه ان حياته مرتبطة بها فتجلت له على حقيقتها وازدادت

تتأججها في فؤاده رسوخاً تارة بالعلم الذي تهديه اليه مشاعره الظاهرة، وطوراً بما ينبع في صميم معناه من الإلهام الصحيح. فاستوي بشراً سوياً يعرف قيمة الحياة ومزية الوجود وعاش حاصلها على أحسن ما قدر للإنسان من سعادة دنيوية.

﴿ الإنسان قمة الابداع الالهي ﴾

« لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم »

لا شيء أضر على الإنسان واضيع لجمال خصائصه العليا أكثر من جهله أو تجاهله بحقيقة ذاته، ولأنه بذلك سر روحه فانه مما لا يمكن تفوذ العقل اليه من طريق المشاعر بواسطة الأمور المحسوسة. ولكننا نقصد بتلك الحقيقة مواهبه السامية وملكاته العالية واستعداده لبلوغ كل ما يتصور من الكمال والرفعة في عالم الممكنات.

استعداد الإنسان لأدراك كل ما يتصور من المعالي الجسدية والروحية أصبح من البداهة العلمية لاسيما بعد ما وقف علماء الفلسفة التاريخية على ناموس الارتقاء الذي يستطيع أن يدركه كل إنسان بطريقة محسوسة من النظر إلى ما كانت عليه حالة الإنسانية في أول أدوارها ثم إلى ما انتهت اليه في هذه الأعصار المتأخرة من الكمالات الصورية والمعنوية التي لم تكن تحلم بها أرقى فكرة في الأزمنة البعيدة. وإلى هذا يشير (لاروس) في دائرة معارف القرن التاسع عشر بقوله: « أن من التهور الشائن وضع حد لرقى الإنسان. »

ولما كان لكل حقيقة لوازم تتبعها ونتائج لاتزالها فلوازم هذه الحقيقة ردع الإنسان عن الايغال في سفساف الأمور ودنيا الشؤون، وصدّه عن الاسترسال في معاطاة الحسائس ومدانة الشرور. نعم ينذر أن يتحلى إنسان بأدراك هذه الحقيقة فيستخذى لداعي هواه المضل أو يلين قياده ليدبهميته الملازمة لشكاه الحيوانى. هذه الحقيقة هي أقوى باعث للإنسان على تلمس الفضائل واهدى هادله على سلوك مهابيع الكمال في هذا المعترك الهائل. صور لنفسك رجلاً رسخ في فؤاده انه نسخة صغرى لصورة هذا الوجود العظيم، وإن امامه غاية لا يحددها التصور ولا يتناولها الخيال، وأنه خلق لبلوغها وطبع على البحث

عليها وقطع المغاوير إليها . ثم تخيل بازاء هذا رجلا آخر تكاثفت على لبه ظلمات الطبيعة الطينية وغشت فطرته الانسانية غياهب قوته البهيمية فلم ير امامه الا اكتشافات هذه الطبيعة وظواهرها القشرية وضرب بينه وبين الفكر في نفسه بحجب كثيفة من اشتغالاته الواهية الوهمية . قلنا تخيل مثل هذين الرجلين ثم قل لي ماذا ترى في أفعال الاول من كمال ونظام، وفي أقواله من حكمة واحكام، وفي حركاته من حزم ووقار، وفي سائر شؤنه من همه واقدار؟ وماذا ترى على أفعال الثاني من نقص وخلط، وفي أقواله من خشونة وخبط، وفي حركاته من طيش وخرق، وفي سائر شؤنه من جبن ونزق؟ بل ماذا ترى على الاول من رواء الانسانية وجمالها . وماذا تلمح في الثاني من نقص الحيوانية وخداجها؟ ثم مثل لنفسك بعد هذا كله قوماً من الاقوام رماهم الله بكساد العلم وكرهه الحكمة وقضى عليهم بمجافاة الاطلاع وموات الفكرة فماذا ترى من مصائب تحيق بهم، وحوائج تحتاج طبيبتهم، وخلل في امورهم وزلل في سائر محاولاتهم؟

سبحان الله « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » الذي « خلق كل شيء فقدره تقديراً » قضت حكمته جل شأنه ان تكون أنت أيها الانسان تمة ابداعه وغاية اختراعه واعطاك من المواهب والقوى ما تستحق به ان تكون ملك هذا الكون بأسره، فمالك لا ترى هذه المواهب حق رعايتها، ولا تمنح هذه السلطة بعض واجبها؟ مالك تمنع حق قدرك، وتنعمي عن جلاله سر، وتنسفل في مراميك، وتهزل خلف سفاسف أمانيك؟ هل تريد ان تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتشا كل الحر الوحشية في خستها والبهائم الهاججة في نقصها ودناعتها، بدون ان تجد في اثناء نزولك الى هذه الهاوية السحيقة من لوازم الهبوط ما يجعل حياتك مرة، ويستوجب أنينك في اليوم الف مرة « كلا » من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »

ان الذي أوجدك من العدم وحملك الامانة التي أبنتها السموات والارض واشفقن منها وارادك من الرقي والرفعة ما تغبطك عليه الملائكة في السموات العلى، قد ناط بك التكليف الحيوية التي يستلزمها الصعود الى تلك المنصة العالية فباطلا تحاول الرجوع عنها وعبثاً تشبث بالحيث منها . فاما ان تهتم بالصعود اليها واما ان ترضى بأن تكون سلماً لغيرك يتخذ عاتقك

موطناً لقدمه فيصعد وانت سافل، ويكمل وانت نافص، ثم تنزع عن هذا العالم الأدنى موقراً بطين هذه الطبيعة السفلى (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)

الايان في خلال القرون

مرّ الانسان من حيث الايمان على ثلاثة ادوار مهمة، لكل منها مميزات ولوازم خاصة به. أما الدور الاول فهو دور الفطرة الاولى حيث كان الانسان مؤمناً إيماناً فطرياً مسوقاً الى الاخبات والخضوع للخالق بغير سائق ولا دافع غير احساساته الداخلية وعوامله الباطنية، لشعوره شعوراً ضرورياً بالاحتياج لذلك، ولم يك ينسرق هذا الاحتياج فيه عن احتياجه الى المأكل والمشرب من حيث الاهتمام به والجرى وراءه مطلوبه منه.

يمتاز هذا الدور بتنزهه عن الشبهات والشكوك، فلم يك يعرف انسان ذلك الزمان ما هو التردد في اصل الايمان، وما هي الحيرة في صحة العقيدة او عدمها، وسيمر بك ان شاء الله ان سبب ذلك كان وقوفهم عند دين الفطرة البسيط المبرأ من شوائب انظنون والاقاويل. هذا الدور يبتدىء من مبدأ الخليفة الى قبل بعثة المسيح بقرون لا يمكن تحديدها بالضبط.

أما الدور الثاني فهو دور الفلسفة والحكمة، وفيه فتقت انوار العقل حجب الكثافات الطبيعية، واخذ الفكر يحول في مواجى التصورات السامية، والمدركات العالية، ويسبر مساتير المجاهيل الوجودية ليحيط بما خبأته له يد القدر. من عالم الشهادة وعوالم الغيوب. يعرف هذا الدور بتولد الشكوك فيه، وسريان شياطين الشبهات الى العقول، من بعض الافراد ضد بعض الاصول الاعتقادية. وكان ثوران تلك الشبه كنتيجة طبيعية لضرورة لان العقل الانساني لما اراد ان يتفصى من اصناف هذه الطبيعة الكثيفة، ومال لأن يفتق تلك الحجب التي تمنعه من متابعة شهواته في النفوذ الى سرائر الموجودات الكونية استلزمت تلك الدفعة ان يطوف من المدركات على ما يلائم درجته من الرقى، فكان الخيال قائده في تلك الرحل الفكرية، وناهيك بعقل يرشده الخيال، وتقوده احساساته البشرية الملازمة لتركيبه. لا جرم انه لا ينال من الحقيقة المطلقة الا ما يناسب درجته المقيدة،

فكان من الضروري ان يهب عليه ما يتلذذ به عن الوقوف في مركزه ، ويصيح به لأن يشرب الى ما فوق ذلك ، ايعلم ان الحقيقة ابعد مما كان يتوهمه . لذلك بعث الله تعالى عليه روحا دافعة ظهرت بمظاهر الشبهات والشكوك ، لتسوقه رغم انفه الى غاية ما يمكن ادراكه من معنى اللاهوت الاقدس وما يتعلق به من شؤون الحضرة الالهية .

من هنا نشبت الحرب العوان بين الفلاسفة ورؤساء الاديان ، وحى الوطيس فيها لحد انها كانت الشغل الشاغل لكبار العقول في الامم ، حتى صار علم اللاهوت عبارة عن جدل وحل شبه .

اما الدور الثالث فهو دور العلم الطبيعي والفلسفة الحسية ، ويبتدىء من حوالى القرن الخامس عشر لغاية النصف الاول من القرن التاسع عشر . في هذا الدور استطار لهب الحرب الدينية العلمية بين قادة العلوم الطبيعية ، وحملة النصوص الاعتقادية ، وتحقق الفوز للحزب الاول وكان ذلك رد فعل لما كان قد حصل من غلواء انصار الحزب الثانى فى الابعاد عن العلم ، والتذنيه بمجافاة العقل وما يثمره الفكر ، ولقد بلغ عدم الاهتمام بالدين عند بنى هذا الدور بحيث عدت التعاليم الالحادية ، من الافكار الواجبة الاعتبار والاحترام ، الجائزة السريان بين العوام رغم انف حملة الدين ومؤيديه .

أما الدور الرابع فهو دور الفطرة ، وهو الدور الذى نحن فيه ويمتاز بمحاولة النوع الانسانى فيه الرجوع الى دينه الفطرى البعيد عن مظان الشبه المنزه عن مثرات الشكوك . لهذه الادوار الاربعة تفصيل لا بد من الالمام به . فنقول :

الدور الاول

(دور الفطرة)

اختلف العلماء الباحثون فى اصول الاديان فى اول معبود عبده الانسان فى اول نشأته فذهب الماديون منهم الى انه عبد الاصنام مباشرة على ادنى اشكالها ثم اخذ فى الترقى فيها شيئاً فشيئاً على قدر رقيه العقل والفكرى ، ولم يزل ينتقل من دور الى دور حتى وصل من

فكرة اللاهوت الى مثل ما وصل اليه « باسكال » و « جول سيمون » و « رينان » واضرابهم من التنزيه المطلق والتوحيد الخاص ، ولم يحد هؤلاء الماديين الى مثل هذا التطوح الا وقوفهم مع الحس المجرد ، وزعمهم انه لا سبيل لسائر المعقولات الانسانية غير الحواس الخمس . ومال الروحانيون من الفلاسفة ^(١) الى ان الانسان عبد الخالق الاقدس على اكمل صورة من صور التنزيه والتوحيد ، واما عبادة الاوثان فهي عرض طارىء اقضاه ميل الانسان الى تحديد كل ما يحس به الانسان احساساً مبهماً . فيكون يحمل هذه النظرية ان الانسان فطر على الدين الحق وحمله معه كلازم من لوازم روحه ، ثم لما مال الى عالم المحسوسات اراد ان يحدد ذلك الشعور فيه ، فوقع في اوهاق ^(٢) الوثنية على اختلاف اشكالها ، وكان من أمره في ذلك ما ترويه لنا فلسفة الأديان من التدافع الذي سيمر بك طرف منه .

اما النظرية الاولى وهي نظرية الماديين فقد سقطت الآن الى الحضيض وتبين فسادها بما اكتشفه العلماء البحاثنون في اصول الأديان ، ومناشئ العقائد قال الفيلسوف الشهير (جيو) في كتابه المسمى (عدم التدين في المستقبل) : « ان نظرية الفلاسفة الحسيين بالنسبة للأديان كان يتوقع سيادتها المطلقة منذ بضع سنين وقد كان راضيها الكثيرون بدون ان يستنتجوا منها سائر نتائجها الضرورية . اما الآن فقد اصبحت واهنة واهية . »

وقد تصدى اكبر عمراني العصر (هربرت سبنسر) لهذه النظرية في كتابه « الاصول الأولية » فدحضها دحضاً واضمحاضاً فسادها بواسطة التحليل العلمي الدقيق . اما النظرية الثانية فهي السائدة اليوم لانها ليست من باب الفروض الظنية بل مما يمكن تحققة بالاختبار اذا صعد الانسان يبحثه الى مناشئ العقائد في الانسان وهذا الامر مهما كان صعباً فان وراءه رجالا يهتمون به غاية الاهتمام ، ويبدلون في سبيل استكناه له كل مرتخص وغال . وأحسن من تصدى لهذا الموضوع الجليل فاجاد وافاد ، هو الاستاذ الطائر الصيت (ماكس مولر) الالماني فانه كتب فيه كتاباً جليلاً سماه « أصل الدين وارتقاؤه » اثبت فيه بالنصوص الدينية

(١) نعني بالروحانيين الذين يعتقدون ان العالم مركب من طبيعتين : طبيعة مادية هي هذا العالم المشهود ، وطبيعة روحانية هي عوالم ما وراء المادة .

(٢) أوهاق جمع وهق أى مضاييد

الهندية وهي ابعاد الديانات عهداً وافتدمن تاريخاً بأن الانسان اول ما عبد عبد الخالق جلّ وعلا على صفته غير المحدودة ، واما هذه الاوثان والاصنام ، فليست الا بنات الخيال استدعتها محبة الانسان للـمس كل ما يشعر به في نفسه قال : « ان هذه الآلهة المجسمة ليست الا تمثيلاً طراً على الانسان بعد تلك الفكرة الطبيعية ، وبناء على هذا فقد ركع آباؤنا وسجدوا امام الله الحق حتى قبل ان يجسروا على الاشارة اليه باسمه . » ثم جزم هذا المؤلف بأن أصل الاديان كلها واحد ، وما سبب اختلافها الا ما أحدثته النزغات الانسانية ، والاهواء النفسانية ، من حب التحديد والتقييد والحصر .

هذا كلام لم يخاف العقل ولا النقل . اما قول الماديين السابق ، فلا ينطبق على علم ثابت ، ولا يستطاع ان يقام عليه دليل . وليس هذا الشطط يبيد عنهم فانهم متى رأوا خرج مركزهم حيال مسألة من المسائل ، اعتادوا التعسف في التفلسف ، وملأوا الارض احتمالات وفروضاً ، ولو كانت اعرق في السفسطة والهذيان مما تعالوا عن قبوله مبدئياً . سلمهم قائلاً : هل يعقل ان الانسان يعبد شيئاً مجسماً قبل ان تكون تلك العبادة مسبوقة بفكرة دعت اليها ؟ هل يتصور ان الانسان بمجرد خروجه من عالم الغيب اكب يعبد الحجارة والجبال والاوذية والاشجار ، بدون ان يكون له شعور مبهم سابق على ذلك التحديد ؟ لا يتصور ذلك بوجه من الوجوه . اذن فاول عبادة عبدها الانسان كانت روحية فلبية على صفتها الصحيحة وموجهة للخالق الاقدس المنزه عن الحدود والقيود .

يقول الماديون مما يدل على ان اباءنا الاولين كانوا محددين مجسمين ، لا مطلقيين منزهين ، ان لغتهم خالية مما يدل على الاطلاق وعدم الحد فلا نجد فيها لفظة (لا نهاية) . نقول ان خلو اللغة منها لا يدل على عدم وجود معناها . على انها في كل لغات العالم مركبة من كلمتين يمكن تكوينهما حالا في اثناء التخاطب كقولنا : لا نهاية . او لا حد . او لا غاية . او لا آخر وهكذا . ومع ذلك فان اللغات القديمة قاصرة عن اشياء كثيرة ، حتى في المحسوسات فلم يوجد في واحدة منها الاشارة الى تدرج الالوان وتداخلها في بعضها بدون شعور ، وليس في اغلبها الا اربعة الوان فقط ، الاسود والابيض والاحمر والاصفر ، فهل يصح ان يقال انهم كانوا لا يعرفون الزرقة من الالوان والسماء فوق رؤوسهم تتألق في حلها

النضراء . على ان فكرة (اللانهاية) يميل اليها المتوحش اكثر من المتمدن . ألسنت ترى ان الجاهل من الناس اذا اراد ان يصف لك عظم بلدة من البلاد لم يجحد في فكره من اوصاف المبالغة ما هو اقرب من قوله : تلك بلدة ما لها اول ولا آخر . وهذا الاستعمال يشاهد عند الجهلاء والمتوحشين اكثر ممن عداهم . اذن ففظرية الماديين قاصرة ولم يحد بهم الى اعتقادها الا اصولهم القاضية عليهم بعز وجميع المدركات الى الخواص الخمس وما أضيق هذا المجال واحرجه ؟ لا يجدر بنا ان نختم هذا الفصل حتى ننبه أن فيه معجزتين عظيمتين تعدان من أكبر المعجزات لسيد الانام صلي الله عليه وسلم ومن أوضح دلائل نبوته العامة لمن كان له قلب يذوق العلم ، ووجدان يحس بالحقيقة . (اولاهما) ان قول الاستاذ (ماكس مولار) ان الانسان مفلطور على (الدين الحق) تعد منه ترديداً لمعنى هذه الآية الكريمة التي انزلت على سيد الانام قبل ميلاد (مولار) بثلاثة عشر قرناً تقريباً وهي : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون . » وقد رأيت انها لم يتحدث بها في العالم العلمي الاوربي الا في القرن التاسع عشر ولم يذعها الا كتاب الاستاذ (ماكس مولار) في سنة ١٨٧٩ (ثانيتها) ان فلسفة الأديان أرتنا كما نقلناه عن الاستاذ الموما اليه ان اصل الأديان كلها واحد ، وان ما أحسن وعمل به الانسان الاول من الدين هو بعينه ما يحس ويعمل به أكبر انسان في العصر الحالي . ولا تغرنا الالفاظ المفوفة والعبارات المزخرفة والاسابيع المنمقة فانها كلها تعبير لما في الوجدان وليس وجدان الجاهل بأقل شعوراً بها من وجدان أكبر فيلسوف . وهذه أيضاً فكرة جديدة جداً سبقهم القرآن الكريم اليها وقال صريحاً بان أصل كل الأديان واحد وهو الامر بعبادة الله الواحد في قوله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً)



الدور الثاني

« دور الفلسفة »

كان الانسان في دوره الاول مطبوعاً على الايمان كما أثبتنا ذلك في الفصل المتقدم ، فلم يكن للشبهات والشكوك سلطان عليه ، وكيف يشك الانسان فيما يحس به في ذاته ، ويشعر بالدافع له اليه ، ولكن لما ابتدأت خصيصة التعقل تسوق الانسان الى التملّي بمجالي هذه الطبيعة الباهرة ، وتبعته للحكم عليها بقدر ما وهب من القوة المميزة ، أخذ قبل كل شيء يبحث في موضوع عبوديته واخباته ، وطفق يسمو بروحانيته ليدرك ذات المتصرف المطلق في هذا الكون العجيب ، فجال في هذا المبحث العظيم جولة الطفل تشغله ملبيات الظواهر عن حقائق البواطن ، وتستوقفه بهارج الاعراض عن النفوذ الى الجواهر ، وناهيك بعقل البسطاء من سكان الكهوف والمناور ، فهب يشخص الهة على مقتضى حواسه الشخصية ، وخصائصه الذاتية ، ثم أخرج تلك الصورة من حيز الخيال الى حيز الظهور فاصطنع الاصنام والتماثيل ، وملأ بها الهياكل والمعابد ، وكلف نفسه تقديم الهدايا والذبايح اليها ، واقامة الحفلات والولائم لها ، وصار يرقى معبوده في الشكل والخصائص ، كلما ارتقى درجة في التصور ، حتى انتهى حالها من جمال الصنع ، ورشاقة الوضع ، الى ما وصلت اليه عند قدماء اليونانيين والرومانيين . في هذا الدور دور التخيل والتعقل ، كان الله تعالى يرسل رسله تترى الى الامم بالعقيدة النقية الخاصة من قدر الظنون ، وكدر الخيالات ، ليخلع الناس ذلك النير الثقيل الذي البسوه أنفسهم فما كان يهتدى منهم الا للذين استعدت افئدتهم لقبول ذلك النور وقليل ما هم بين تلك الامم الطفلة .

عرف الانسان في كل زمان ومكان بشدة الكلف بدينه ، وعظم التمسك بمعتقداته ، فكان يدافع عنها دفاع المستميت اليأس ، ويتنصر لها انتصار المهضوم حقه ، المصاب في عرضه ، ولا يتأخر من الحاق الضرر بالساعين في تهذيبه ، حتى قتل بهذه الحجة عدداً من الانبياء ، ومثات من الحكماء واصحاب البصر ، وعد قتلهم نصرة للدين الحق على الباطيل .

ظل الانسان ينسج على هذا المنوال العدائي ضد عقلاء افراده ، حتى تفجرت ينابيع الحكمة في باحات القلوب ، ولطف احساسات الناس نوعاً بواسطة تلك العوامل التي خلقها الله تعالى لأيقاظ هذا النوع فتيين لهم ^(١) ان الوثنية عبء ثقيل على المدارك ، واتضح لهم انها بنت الخيال ونبت الضلال ، فافردوا للكون لها واحداً وعزوا اليه من الصفات منتهى ما وصلت اليه مداركهم .

هذا الرقي التدريجي في الدين يشاهد باجلى مظاهره عند براهمية الهندود ليس في المجتمع فقط بل في العائلة الواحدة أيضاً . روى الاستاذ « ماكس مولر » الموما اليه في نفس كتابه المتقدم ذكره ان البراهمة قد وصلوا من حرية الاعتقاد الى حد انهم يتركون كلا يعبد ما يوصله اليه عقله ، فترى الاب الهرم في عائلته العديدة الافراد ربما وصل الى اعلى مقام من التنزيه والتوحيد ، ولكنك ترى ابنه امامه يضحي الضحايا لصنمه المعبود ، وعن يمينه ابنه الثاني يرتل الاشعار الخيالية في مناقب الآلهة المختلفة . يرى كل هذا ولا يتأثر له تاركا لعقلها حق التصرف في ايصالها الى نقاء العقيدة

في هذا الدور كثرت الجدال والتنازع في أصول العقائد ، وكان اختلاف الناس في المدارك وتباينهم في درجات التصور ، سبباً في انفراج مدى المذاهب بينهم ، فأخذ كل فريق يجهد عقله ويعمل فكره ، على حقبة الصفات التي يعزوها للخالق جل شأنه ، ويكاف نفسه الاتيان بمزاعم خصمه ويكر عليه بالحجج الداحضة ، حتى صارت كتب اللاهوت عبارة عن تحاور في الالفاظ ، وتناقش في الاصطلاحات ، مما يدل الرائي انه لا سبيل الى الوفاق ولا مساع لطرد شيطان هذا الشقاق . وأنى يستتب الوفاق بين أحزاب جعلت العقل المجرد متكأ للحكم على أصل الاصول ، وحقيقة الحقائق . لا جرم ان الخلاف يكون بينهم مستحكماً ، والتفرق سائداً ، على نسبة اختلاف البشر في درجات العقول وتفاضلهم في مواهب الفكر . ولما كانت سائر المعقولات قابلة للاخذ والرد . وكان من أساليبها المعمول بها فرض الفروض التي لا تقل وتكاف الرد عليها ، كانت الشكوك والشبه من لوازم هذا الدور ، بل

(١) نحن لا نريد عموم النوع الانساني وانما نريد ارقى الامم منه فانه يوجد في كل عصر أمة يتركز فيها مبلغ الرقي الانساني كله .

من اخص مميزاته . لهذا وجدت بعض الافكار الحادة مجازاً الى الافراط والتفريط ، فتمصوا لباس المشككين ، وظهر في كثير من الامم رجال جعلوا دينهم التشديق بنفي الصانع ، وبناء النظريات الفارغة على مجرد الوهم . وما المانع لهم عن ذلك ما دامت المسئلة أصبحت فوضى وصار العالم الذي يشار اليه بالبنان هو الذرب اللسان ، الشديد المحاولة في كبح الخصوم ، واضحى العلم كل العلم هو دقة التعبير وابتكار ادق الاساليب ، لتكون بمنزل غن ممالك علم المنطق ؟ لا مانع من كل افراط وتفريط في صوغ النظريات ، ما دام السلطان المطلق للجدل العقلي ليس الا . من هنا ظهرت النظريات الاحادية ومال اليها بعض الفلاسفة فشأت بينهم وبين الاعتقادين حروب قلمية ، استعالت الى حروب دموية وليس هذا موضع التفصيل .

تفنن الاول في ايجاد الشبه الدقيقة ، ومهروا في صوغ العبارات الجدلية وهبوا ينسفون اركان العقائد من اصولها ، ويذرون بناءها الشاخ في عواصف الشكوك ، فلم يسع حفظه العقائد الا التآلب على دحض مفترياتهم ، وسحق نظرياتهم ، غير انه لم يمض الا قليل من الزمن حتى اصبحت الفرق المذهبية تعد بالآلاف ، لا يجمعهم أصل ، ولا يضمهم فرع ، فركن حزب الدين بما له عند بعض الامم من نفوذ الكلمة والسيطرة على الهيئة الحاكمة الى استعمال القوة ، بعد ما أعلنوا ان البحث بالعقل في اصول العقائد محذور ، ظناً منهم ان القوة تفعل مالا يفعله الاقناع بالبرهان ، فقرروا من انواع العقوبات على المبتدعة ما ينفر منه طبع الانسان ، ثم اوزلوا في تنفيذ قانونهم هذا بغاية الشدة والصرامة ، ومالاً ثم على ذلك اصحاب السطوة والسلطان ، وما علموا ان صرامة العقوبة لا تستطيع ان تقاوم السنن الطبيعية ، ولا أن تعكس سير الاميال البشرية ، وانهم بذلك يزيدون الداء استعصاء ، والكلام انكاء واستشراء ، والنفوس جماحاً واباء ، وفي الواقع رأيناهم كلما تشددوا في التشفي والانتقام اشتد ساعد الاحاد ، واندلع لهبه بين الافراد ، حتى حدثت في الاذهان ثورة فكرية ، تبعها ثورة فعلية ، قلبت شكل الوجود رأساً على عقب وخلصت العقل من اوهامه الاولى ، وبسطت للعلم والفكر ميدان الحرية ؛ هنالك ظهر من الافكار ما كان مستوراً مكنوناً ، وبرز على رؤوس الاشهاد ما كان سرّاً مصوناً ، ولعبت هزة النصر بالافكار المذبذبة دوراً مثلت فيه اقبح الادوار الماخيولية ، على مراح تلك الحرية العلمية . ومما زاد الطين بلة ظهور الفلسفة الحسية ، فصار من المقرر عند

الاكثرين ان زمان الاعتقاد قد فات وانقضى ، وانه لا يمر بضعة اجيال حتى تتلاشى آثاره من العقول دفعة واحدة . هذا ما حصل في دور الحرية العلمية الذي يزيد ان نشيع الكلام فيه فنقول

الدور الثالث

(دور العلم)

لم يمر على حفظة العقائد دوراً اشد هولاً من هذا الدور . على ان حدوثه مع ما فيه من افراط وتفريط وغلواء وسفسطة وعناد ومغالطة كان امراً منتظراً لا بل حادثاً طبيعياً لان كل الرذائل التي شوهدت وجه هذا الدور كان لها مقدمات تقتضيها في الدور الذي سبقه فلم تكن لتوجد هذه لو لم تكن تلك .

ارتكب حملة بعض الكتب السماوية في الدور الفارط غلطات افراطية استدعت ما يقابلها من السفسطات التفريطية ليحصل التوازن بين الشقين المتنازعين ويؤوب الى الاعتدال من هدى الله من اصحاب القطر السليمة . وهي سنة من سنن الخالق تشاهد في كل خطوه من خطوات الافراد والامم .

من تلك الغلطات الافراطية ضعفهم على حرية العقل والعلم ، واهتمامهم بحصر الافكار في دوائر ضيقة لا يمكن اجتيازها ، وزعمهم ان العقل عدو الدين ولا سبيل لفهم الدين بواسطة العقل . ومنها عدم اقرارهم بالعجز عن ادراك ذات الخالق وتشبههم بوصفه بما يروق لعقولهم ورضاه لهم مداركهم ، وحمل الناس على اعتقاد ذلك والعمل به ومعاقبة كل من يناقشهم فيه . ومنها حسبانهم مسائل خلق الكون من الدين وتقدير الطبيعة بحسب افكارهم وقصر قواها وعجائباها على ما وصل اليهم من الاقاصيص القديمة الخرافية .

بلغ الغلو في حمل الناس على هذه الاغاليط الى حد انهم تربصوا لكل من يشمون فيه بارقة الحرية العقلية فنكلوها به شر تنكيل ، واذاقوه العذاب الويل فكم احرقوا من علماء وصلبوا من حكماء وسموا من نبلاء اذكيا ، حتى شوها وجه مذهبهم وجعلوه عنوان العسف والاجحاف ، بعد ان كان الدين رائد العدالة والانصاف . ولكن هيهات ان يوقفوا سير ناموس

الرقى الذي يدفع الانسان بمؤثراته وفواعله غير المحصورة الى اجتياز كل عقبة وتخطى كل مفازة للوصول الى قمة ما اعد للوصول اليه . فكانوا كلما اوغلوا في الظلم والضغط تنبه الناس بحكم الضرورة القاهرة الى تلمس المخلص من هذه السيطرة المخوفة المخوفة بالمكاره وكلما نعى فيهم هذا الشعور بتوالي تلك الضربات القاسية وحيت حرارة الاسى في سويداء افئدتهم انفجرت ينابيع مواهبهم وملكاتهم ، واشرقت في صميم ذواتهم انوار مداركهم فشجعتهم على الثبات والمصاولة ، فصار اولئك الغلاة كلما صدوا لهؤلاء تياراً لاقام تيار اقوى منه سيرا حتى بلغ التدافع منتهاه ، وتكافأت القوتان وادرك اولئك المسيطرون ان حكم الله لا يرد ولا يعقب فالانوا الجانب وحاولوا ان يأخذوا باللين مانعاصى عليهم بالقوة فاختفق مسعاهم ولم يلبثوا ان تحققوا ان خصومهم احاطوا بهم من كل جانب وساوروهم من كل صوب فلم يسمعهم الا الصمت على مضض منتظرين ما ياتي به القدر .

هذا ما كان من اولئك ، اما اصحابنا نصراء الحرية العقلية وزعماء العلوم الطبيعية والفلسفية فقد انتشوا بسلاف الانتصار وازدهتهم تلك الحرية المطلقة بعد ذلك التقييد الجهنمي ، فجازوا تخوم الاعتدال . وبدلاً من ان يرجعوا الى انفسهم ويتحدوا على ما يجب الاعتماد عليه من اصول العقائد ليحموا العامة على تقليدهم في منهاجهم ، استقل كل بنفسه ووقع في مثل ما كان يجاهد لازالته من الافراط والتفريط فهم من ترك المعتقدات وشأنها حقيقة كانت او باطلة واكب على درس المادة وحدها ومنهم من لم يقف عند هذا الحد بل تطوح الى نكران كل شيء لا يقع تحت حسه ؛ ومنهم من اطلق لنفسه عنان الحرية في الاعتقاد وكون لنفسه ديناً خاصاً بها ، وبقيت العامة بين هذه المذاهب المتشاكسة لاندرى اى الطرق اقوم ولا الركون الى اى حزب اسلم ، فأدتها تلك الخيرة الشديدة الى مجافاتها كلها دفعة واحدة وصاروا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء وثبتهم في موقفهم هذا تنازعهم في البقاء واستنزاف الاغنياء لسائر اوقاتهم في الشغل بتعصباتهم الاشعية ، فصار العامل يصبح مشغولاً بجسمه وغنه حتى يمسى ثم يتقاضى اجره دربهات معدودة ، ويذهب الى يته قنزال عليه وساوس الفقر والفاقة وسوء الحال فلا يجد مسلياً له من هذا الكد الواصب والهم الناصب غير معاقرة بنت الحان

فيصرف عليها ثلثي أجرته ويترك اولاده يموتون جوعاً^(١).

هذه الحالة التعيسة تسبب عنها انتشار جملة احزاب وجمعيات مدمرة شريرة لا هم لها الا تغيير النظامات وتبديل الاحكام وابادة الحكام واصحاب الخطام . قالوا ما بالنا احط رتبة من الحيوانات في نظامتنا الاجتماعية واقل تمتعاً منها بمزايا الحرية الطبيعية ؟ ما هي تلك القوانين المسطورة في بطون الاوراق ، وما هي تلك الفئات التي تدعى لنفسها حق الاشراف والسيطرة على اميال الشعوب ؟ ما معنى رجل يتبخر في الاستبرق والحرير ، ويتهادى بين الحياض والازاهير ، وامامه رجل ليس له من حق الوجود غير استنشاق الهواء ، وتوقع القناء تحت كلاكل الضراعة والضراء ؟ كلا . ان العدالة كل العدالة هي ترك الانسان وشأنه تحت رحمة قانون التغالب ، حتى لا يفوز براحة الوجود الا من وهبته الطبيعة قوة الغلبة في هذا المعترك المشهود . وعلى هذا فمن الواجب تضحية كل مرتخص وغال في سبيل الوصول الى هذه الرغبة السنية بكل الوسائل الامكانية . بالحيل والمخاتل . وبالقنا والقنابل . بالمدى والمقابل . حتى يخلو الجو من هؤلاء المسيطرين ويتجلى عن الوجود هذا الظلم المبين

هذه فرقة من فرق كثيرة يعد افرادها بالملايين نشأوا تحت سماء تلك التعاليم الاحادية وازداد عددهم بمؤثرات تلك المدنية المادية حتى خشي على بناء المجتمعات المتقدمة ان يتصدع ان لم يتداركه الله بروح من عنده . كل هذه الزعازع والفتن لقتت عقلاء الامم الى تشخيص هذا الداء وتلمس الدواء ، فرأوا والبرهان امامهم ان ميكروب هذا المرض هو فقدان الدين وخلو القطر من انوار اليقين فهبوا يستردون ذلك المفقود الغالي ويسترجعون ذلك الاكسير الشافي ولكن بأي الوسائل ؟ اخذت تعاليم الفلسفة الحسية من العقول مأخذها ولم يعد من الممكن ادهاشها بخيال ، ولا الهاؤها بزخرف مقال . اشعرت النفوس ان رضوخها لمحض الدليل العقلي تطوح بذاتها الى مثل ما كانت عليه في الماضي واتضح بطلانه في الحاضر ، وعلمت ان ارتكانها على معقول لا يسنده من جانب الحس دعامة قوية ، لا يسلم من شوب المسائل الوهمية . فهبت تسترد اصول العقائد ولكن بنور العرفان وتسترجع مفقود اليقين ولكن باسنة البرهان .

رجوع الانسان لدين الفطرة

هذا الاندفاع من الطبيعة البشرية وراء تلمس العقيدة النقية، المبرأة من كل الشوائب الوهمية والفروض الظنية، تعد من اكبر مميزات القرن التاسع عشر فقد اصبحت الشغل الشاغل لأساطين العلماء في البلاد المتقدمة لارتباطها بمستقبل الامم تمام الارتباط. جاء في مجلة المجلات الفرنسية مجلد ٢٤ ما يأتى: « ان هذه المسئلة هي أهم ما يشغل العالم المتمدن لأن مستقبل الامم المتقدمة يتعلق بحلها. »

ولكن من أى الطرق توجه العقل الحاضر الى حل هذه المسئلة السامية، ومن أى المنافذ سرت اليها اشعة الافكار المبرأة من خطرات الوسوس، وعلى أى دعامة ارتكز التصور للصعود اليها؟ لم يجد الانسان الحالى محيصاً امامه الا الرجوع الى أصل الفطرة التى فطر الله الناس عليها خصوصاً بعد ما أصبح من المقرر الثابت ان نزغات تلاعبت بالاديان فاخرجتها عن أصولها، ونزوات توزعت مبانها فزحزحتها عن مراكزها اللهم الا تلك الفطرة الاولى التى لم تزل في كل دور من ادوار الانسان تبهمن على استقلالها وثباتها، قال (هنرى بترنجيه) المتقدم ذكره في المجلة نفسها « اذا كان الانتقاد التاريخي قد هدم كل الاشكال الثابتة غير القابلة للتغير في الاديان فانه لم يستطع ان يمدوا على تلك الفريزة الدينية بل قد شهد باستمرارها وشيوعها في كل دور من ادوار التاريخ وان كل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد بأن الانسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم انفه. ففي كل جهة وكل زمان وكل مكان قد شوهد احتياج الانسان الى الدعاء والعبادة والتضحية في احسن الاديان الوثنية كما في ارقى العبادات الروحانية هذه هي الشرارة البسيكولوجية (النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الاديان فمن المستحيل عليه ان يطفئها ولكنه سينقلها الى المستقبل وحيث ان الاديان ليست الا مظاهر خيالية لهذه الفريزة الدينية، فستلاشى آجلاً او عاجلاً ككل الآثار الانسانية ولكن تلك الفريزة لن تلاشى أبداً الا مع الانسان نفسه. »

هذا الرجوع من الطبيعة البشرية الى دينها الفطري ليس ببعيد العهد عنا قال الكاتب نفسه (نؤمل في ذلك) (اى الوصول الى حل المسئلة الدينية) لا سيما وانه منذ مائة عام قد

كوت الديانة الباطنية ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين (فجان جاك روسو) و (لمرتين) و (لمنيه) و (ميشليه) و (كينيه) كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا (ارنست رنان) و (جيو) و (شوريه) و (سبتييه) قد اعطوها قوة جديدة ودقة عظيمة . فما هي يا ترى أصول هذه الديانة الجديدة التي يؤكدون انها غاية ما رعى اليه مواهب الانسان من العقيدة : يحسن بنا ان نلقى هذا السؤال على أساطين الفلسفة في اوروبا . قال الفيلسوف (كارو) في كتابه (الابحاث الاخلاقية على الزمان الحاضر) : (قواعد الديانة الطبيعية هي الاعتقاد بوجود اله مختار خلق الكائنات واعتنى بها وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانساني (وهذا غاية التنزيه) ووجود روح في جسم الانسان متصفاً بالذكاء والحرية ومحبوسة في هذا الجسم المادي امداءً لتبتلى فيه . وهذه الروح يمكنها بارادتها ان تطهر هذا الجسم وتنقيه اذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها ان تسفله باستئناسها بالمادة الصماء . والاعتقاد المطلق برفعة العقل على الاحساس . ووضع الحرية الاخلاقية التي هي ينبوع واصل كل الحريات تحت سيطرة الاعتدال . واعطاء الاخلاق الفاضلة اسمها الحقيقي وهو الامتحان والابتلاء . وتحديد غرضها الحقيقي وهو التخليص التدريجي للنفس من علائق الجسم والتهيو لساعة الموت بالزهادة . واخيراً الاعتراف بقانون الترقى ولكن بدون فصل رقى الانسان في مدارج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة) وقال الفيلسوف الطائر الصيت (جول سيمون) في كتابه «الديانة الطبيعية» : «كل اصول مذهبنا هذا واضحة لارموز فيها . اما اصوله فهي الاعتقاد بوجود اله قادر على كل شئ ولا يغيره شئ خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة . ووجود حياة أخرى تؤدي لنا كل وعود هذه الحياة وتكافئ المظالم بالجزاء الاوفى » هذا ولا شك رجوع من عقلاء النوع الانساني الى الدين على أبسط أشكاله اى الى الدين الفطري الذي حمله الانسان معه بالفطرة . فلنرفع صوتنا اذن في ظل معارف القرن العشرين قائمين

﴿ الاسلام هو دين الفطرة ﴾

الفطرة لغة الخلق ، والخلق في اللسان المعصرى الطبيعة ، فالدين القطرى يمكن تعبيره باللسان المعصرى بالدين الطبيعى ومعناه انه لا يكلف الانسان الا بما ينطبق على طبيعته ويناسب حال جبلته وقد سعى في القرون المتأخرة أرومات العلم الطبيعى في أوروبا وكونوا لهم ديناً سموه بهذا الاسم ولم يدخلوا الى أصوله الا ما تقضى به الفطرة الانسانية وتقر على حقيقته العلوم الطبيعية ، خالصاً من الاختلافات والتأويلات ، منزهاً على الرموز والاسرار عملاً بقول شيخهم الكبير (كانت) الفيلسوف الالماني حيث قال : « الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوى الا على قوانين أعني قواعد صالحة للجري عليها نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة وتكون مجردة عن الاساطير والتعاليم الكهنوتية »

سلك هؤلاء ، هذا المسلك في القرون المتأخرة بعد ما سئموا من تناقض الاديان ، وانفوا من الرضوخ للسكان ، ولم يعلموا ان الدين الطبيعى قد اوحاه خالق الطبيعة على اشرف عبادته قبلهم باكثر من عشرة قرون . فلندع هؤلاء الآن وشأنهم فسيتبينون الحق بعد حين ، كما وعد بذلك الخالق في كتابه المبين . ولتثبت قرائنا ان الاسلام هو الدين القطرى الذى لا يعتريه الزوال ، ولا يلحقه الاضمحلال فنقول :

تبين لنا ان الانسان على حالة البساطة الاولى ، والسذاجة المبدئية شعر بلزوم الاخبات لخالق ذاته ، واحس بضرورة الاعتصام به لنجاة حياته ، فلم يحرمه الله من اسعافه بعبادته كان يصطفهم لجل اماته ، والقيام بتبليغ امره الى خليقته ، فكانوا يجيئون اقوامهم بدين الفطرة ، لان الله لا يكلف عباده بما لا ينطبق على طبيعتهم (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) ولكن الناس في تلك الاحيان كانوا من سن الحياة العمومية ، في دور الطفولية ، تؤثر عليهم الخيالات اكثر من الحقيقة ، فكانوا لا ينصاعون لرسولهم الا مادام فيهم ومتى انتقل الى العالم الآخر ارتكسوا الى عقائدهم الاولى مكسوة بثوب جديد ، حتى اذا جاءهم رسول آخر قاوموه ونابدوه ، ومكروا به وصاولوه ، وماروه بكل حجة وجادلوه ، وفيما يحكى الله عن حالهم صورة من امرهم مع رسلهم قال تعالى : « وقال موسى ان تكفروا انتم ومن في الارض جميعاً فان

الله غنى حميد . ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم ، لا يعلمهم
 الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا ايديهم في افواههم وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به وانا
 لنى شك مما تدعوننا اليه مريب . قالت رسلهم فى الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم
 ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا ان انتم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا
 عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله
 يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا ان نأتىكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون »
 هكذا كان حال الامم مع رسلهم فى خلال تلك القرون المتوالية حتى جاء القرن السادس
 وسترى حال الامم فيه فيما يلى من الفصول ان شاء الله مما كان داعياً الى آية كبرى تردهم
 عن غوايتهم وتوقفهم من سكرتهم ، وقد كان ذلك ، فابسل الله تعالى خاتم انبيائه بدين
 الفطرة الذي ارسل الله به رسله من قبل (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) . مخاطب
 الناس قائلاً عن ربه (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً فاما الذين
 آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً) فدخل الناس
 أفواجاً فيه لانهم كانوا قد سثموا الخيالات المضلة التى مزقتهم احزاباً ، وفرقتهم افذاذاً ، فدخل
 فيه من غير العرب فى قرن واحد ما يزيد عن مائة مليون ولم يزل يخمو لليوم بصفة مدهشة
 بتأثير المدنية الاوربية نفسها وان تعجب من ذلك فاليك التفصيل : قد رأيت ان الفارق بين
 الدين الفطرى اى الطبيعى والاديان الاخرى هو ان الاول مركّز على الحقائق المحسوسة
 والثاني على الخيال ، فيكون الانسان متقرباً للحق على قدر ضعف سلطان الخيال عليه ، والامم
 قبل سريان الحركة الاوربية الاستعمارية فى العالم كانت كل أمة منها جامدة على دينها مسنّمة
 الى أساطيرها لا يزعمها عنها شئ : تؤله ماشاءت من الرجال ، وتعبّد ما ارادت من الحكماء
 والابطال ، واختلاصة انها كانت من الدين على خيال ومن المدركات فى ضلال . فلما جاء دور
 الاوربيين وجاسوا خلال الممالك بالحديد والنار ، والكهرباء والبخار ، اقاموا لتلك الامم بأفواه
 المدافع والبنادق وبالسنة المشرفيات الصوارم ، اكبر البراهين الحسية على ان عهد الخيالات قد مضى
 وان ما كانوا فيه من الاعتماد على معجزة ذلك الاله او كرامة ذلك الكاهن ، خرافات باطلة ، وترهات
 فاضحة فانجلي الدين عن افئدتهم وخوى جنانهم من العقيدة فاستعرضوا الاديان التى وصلت

اليهم فلم يرتضوا منها غير الاسلام ديناً خلّوه من الخيالات ، وارتكازه على المحسوسات ، فدخلوا فيه افواجاً افواجاً ولم يسمع في تاريخ الانسان ان القبائل بحذاويرها تدخل الى دين في زمن ضعف سلطة اهله غير الدين الاسلامي . وبناء على هذا فكما توغلت مدافع الاوربيين في احشاء البلاد الوثنية ازداد انتصار الحقيقة على الخيال ، وفتحوا الدين الله اكبر مجال « ان الله يؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أهله »

الاسلام هو الدين القطري او الدين الطبيعي لانه لا يكلف الانسان الا بما هو مطبوع على البحث فيه واعتقاده ، ولا يحميه من العقائد الا بما لا يقف حجر عثرة في سبيل تقدمه وترقيه لان غرضه الاول تخليص النفس الانسانية من تلك الكسف الظلمانية التي اسدلها عليها حفظة العقائد ، وسدنة المعابد ، والزاعمين بأن لهم حق الوساطة بين المخلوق والخالق ، وليطهر الافئدة مما ران عليها من آثار الوراثة والتقليد ، وما تراكم على سويداواتها من غلف التعصبات والجمود كان الناس من جهة الدين في غيابة من الوهم ، وظلمات من الجهل ، يقدسون اساطير جمعت من مدركات الماضين ووساوس المتقدمين ما لو أرادت البصيرة ان تنسم منها روح اليقين لارتدت على عقبها ترسف في اصفاد اليأس ، واغلال اللبس ، من هول ما وضع امامها من عقبات وما احيطت به من غياهب وظلمات ، فكانت بين امرين اما ان تقتنع من الحياة بمجرد البقاء ولو كان العمه لزعيمها ، والخيرة صفتها ، واما ان تحاول ان ترى النور فتعرض نفسها لخطر ايسره ان تضاعف عليها تلك الكسف فلا تعود بعدها تذكر النور ولا توهما . جاء الاسلام والبصيرة في هذا الانين ، من ثقل نير الدين ، وفي لهف شديد ، الى نور جديد ، فصاح بالناس : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نوراً مبيناً فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً »

كانت النفوس حيرى في معنى الدين ؛ لا تعرف من آثاره غير هذا الضغط المشين والحال الميين ، فقررت لها الاسلام بان الدين ضالة الارواح وانشودة العواطف ، وبلسم جراح الحياة ، ونسيم الراحة والطمانينة ، ومهب نفحات الحق ، وهو واحد لا تعدد فيه ، بعث الله به كافة الانبياء الى الامم رفعاً لما طرأ عليهم من الخلاف ، وحسماً لما احتوشهم من روح النزاع : « كان الناس امة واحدة فاختلفوا »

اما ذلك الدين فهو الاسلام لله اى الاستسلام الى احكامه بالقيام على صراط القطرة
المجردة عن الاوهام والافكار البشرية التى هى داعية الخلاف ، ومثيرة التناذب بخلاف القطرة ،
فالها واحدة فى عموم النوع الانسانى فلا يعقل نزاع بالاستقامة عليها ، ولا يتصور شقاق
بالانصياع لمقتضياتها « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من
بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فان حاجوك
(اى جادلوك) فقل اسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين اوتوا الكتاب والايمان
أأسلمتم ، فان اسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فاتمنا عليك البلاغ والله بصير بالعباد » « بل اتبع
الذين ظلموا اوهاءهم بغير علم فمن يهذى من اضل الله وما لهم من ناصرين . فاقم وجهك
للدن حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر
الناس لا يعلمون . منيبين اليه واتقوه واقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين
فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون »

التفت الى اولئك الذين استعبدوا أنفسهم للاهواء ، وخضعوا لسلطان الاوهام ، وحصروا
عقولهم فى مضائق الخرافات ، فنعى عليهم سدا جهم قائلاً : « ان هى الا اسماء سميتوها انتم
واباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من
ربهم الهدى » ثم طالبهم بالدليل على ما حملوه عقولهم من هذه المدارك الفاسدة قائلاً : « اثبوني
بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم ان كنتم صادقين » « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا
ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرون » « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »
ثم سجل عليهم لنهم أسراء الوهم ، وعبيدة الظن فقال : « وما لهم به من علم ان يتبعون
الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً »

ثم بين لهم الفرق بين المعتقد بالدليل والبرهان ، وبين المستسلم لخراف الخيال ، الاسير
لكواذب الاوهام فقال « افمن كان على بينة من ربه كن زين له سوء عمله واتبعوا اوهاءهم »
ثم توجه للذين قبلوا هذا النور الباهر وخلعوا عن اعناقهم ربة الذل والاسر ، ونفضوا
عن رؤوسهم غبار الصغار والعبودية فقال « ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك
بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور . ومن كفر فلا يحزنك كفره لينا مرجعهم فننبئهم بما

عملوا ان الله عليم بذات الصدور » « ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً »

ثم امرهم ان لا يتبعوا ديناً من الاديان التي اقيم لها المعابد والكهان ، وصارت عبثاً ثقيلاً على هامة الانسان ، لما سرى اليها من الضلال والبهتان ، ولكن الزمهم الاعتراف بان اصل جميعها واحد ، وهو الناموس الاقوم الذي بعث الله به الرسل الى الامة كافة فلم يحفظوه من التبديل والتحريف ، فكلف الاسلام اهله بالايمان بها اجمالاً فقال : « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتى موسى وعيسى وما اوتى النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون »

هذا هو الدين الفطري في بساطة معناه ، ومثانة مبناه ، وهو الذي دعا اليه الانبياء كافة وتمت الدعوة اليه بنجاتهم وامامهم محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأيت انه من جهة التدين لا يدعو الا لما يشعر به الانسان في ذاته شعوراً ضرورياً طبيعياً ، اما تلك الاساطير التي طمت بها الديانات وعدت من اركان الايمان فيها فقد اثبتت العلوم الطبيعية والتاريخية بطلانها بالمرّة وصار اعتقادها والتمسك بها من الازراء بالعقل ، والتفكير بالنفس لانها ليست الا مبلغ علم الافدمين بالطبيعات والتاريخ توارثها اللاحقون عن السابقين واكتسبت لقدمها شكلاً مقدساً كما هي سنة الناس في احترام اسلافهم ، حتى صارت هي الدين بذاته وقد سبق القرآن العلم والفلسفة الى تقرير انها باطيل واوهام فقال « ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » ثم انبأنا بان الاسلام مقدمة عصر العلم ، وطليعة دولة الحق ومؤسس سلطان الحكمة فقرر الناموس الطبيعي الكبير الذي اكتشفه (دارن) و (ولاس) بعد القرآن بثلاثة عشر قرناً تقريباً وهو قولها (لا يبقى الا الاصلح) فقال تعالى بافصح عبارة واكمل بيان « فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

اما من جهة العلم بالكون واشيائه فارانا اننا لم نعلم منه الا قليلاً وامرنا بدوام طلب العلم فقال تعالى « وما اوتيتم من العلم الا قليلاً » « وقل رب زدني علماً » وبهذا فقد هدم صرح

تلك العقائد الباطلة التي يزعم أصحابها أنها حوت علم الاولين والآخرين ، على السموات والارضين مما اذن الله به للعالمين ، وان ما عداه فرجس باطل ، وخيال حائل ، يستحق معمله ان يحرق بالنار ، او ان يصلب كالفجار . اما من جهة سير الماضين ، واخبار المتقدمين ، مما جعلوها اساس العبادة والايمان ، وعلقوا عليها نجات الانسان ، مما اثبت التاريخ المصري بالحس والعيان ، انها خرافات اخترعها الخيال ، وسطرها الجهال ، وانها ليست خاصة بدين دون دين ، ولكنها عامة عند الامم اجمعين ، مما يشعر انها دأب الاولين ، فقد سد الاسلام هذا الباب سداً محكمًا بتقريره « وان ليس للانسان الا ماسعى وان سعيه سوف يرى » و « كل امرئ بما كسب رهين » و « تلك امة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »

اما سرد حوادث الماضين فهي وظيفة التاريخ له فيها اسلوب خاص به مثل سائر العلوم الاخرى ، اما الاديان فوظيفتها اشرف من كل وظيفة وهي اقامة الانسان على سنة الفطرة بتخليصه من كل ما ليس طبيعياً فطرياً ، وتنزيهه مما يرضخ له تقليدياً . ليعيش حراً متمتعاً بعقله وفكره وحكمه ، لا عبداً لا وهام غيره . الا ترى انه لما سأل فرعون موسى كما قال تعالى :

« فما بال القرون الاولى » اجاب موسى عليه السلام كما قال تعالى « قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » فانظر الى هذا الجواب النبوي الكريم الذي يشير بغاية الصراحة الى ان التاريخ ليس من وظيفة الانبياء من جهة ، ومن جهة اخرى يشير الى ان سير اهل القرون الاولى ليس مما يمكن التهم عليه بتلك الجسارة التي تشاهد في الجهال بالتاريخ بل هي حوادث كبرى تحتاج لمثل ما يحتاجه كل علم من العناية والدقة . انظر الى هذا الجواب النبوي ثم انظر الى اولئك الذين يسردون لك تاريخ العالم من لدن آدم الى اليوم سرداً يشعرك بانهم شهدوا احوالهم ، ومن المعجب انهم يعلقون على ذلك عقائدهم وايمانهم

أما من جهة الاخلاق والعوائد فالاسلام لا يطلب من الانسان فيها غير الاعتدال والتوسط . لانه لما كان الدين الفطري (او الطبيعي بلهجة اهل العصر) فينظر للانسان نظر العلم الطبيعي له اى بصفته ابداع الانواع الحية واكمل نموذج للصورة المادية « انا خلقنا الانسان في احسن تقويم » ليس في تركيبه الخارجى والداخلى ولا في شكله الصورى والمعنوى زيادة ولا نقص لو اتبع في نموه قانون الحكمة الالهية ، ولكن الخالق الحكيم اذ أعده الى منصات

من الكمال يحسر دون ادراكها التصور، فقد متعه بخاصيتي الاختيار والارادة وأراه طريقى الاعتدال والانحراف بالقطرة وبالوحي، وصرح له بأنه ان اعتدل نال غايتي كماله المادي والادبي وان انحرف ارتطم في عقبات النقص وارتد الى اسفل من عالم الحيوان كما هي السنة الطبيعية في هبوط العالى فقال تعالى: « انا خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون »

— نظرة على الادوار التي تنتاب العقائد —

من اكبر الشبه التي يطعن بها فلاسفة هذا العصر صدور الملبين، وينقض بها الماديون من أعين الاعتقاديين هي قولهم ان الانسان مر ويمر من عقائده على ثلاثة ادوار (أولاً) دور الاحترام والاجلال، والاعتقاد بانها نهاية الكمال (ثانياً) دور الشك والارتياب، عند يقظة الافكار والالباب (ثالثاً) دور العلوم والمعارف حيث يبلغ العقل أشده، وينال الانسان رشده، فيعلم ان الاديان أساطير الماضى، ووساوس الاقدمين فيتركها ويتجه للعلوم يفتدى لبابها، ويستسقى ربابها، ويكون بذلك كالشباب جاز دور الطفولة، واتسم بصفات الرجولة، تمر به مدركاته القديمة فيعدها حلمًا لذيذاً، وخيالاً مسلياً، ويضحك منه كما يضحك من كل أفعاله وهو طفل؛ ثم يأخذ في شأنه من الجد وراء الحقائق المحسوسة والدأب لاستغلال خير الطبيعة، وتحسين بنى نوعه من كل الوجوه الممكنة

نقول ان هذه المقولة ان صدقت في نفس صروح العقائد التي انس بها الانسان في دور طفوليته، فلا تصدق على الاسلام الذي ارسله الله عند ما بلغ الانسان رشده وسثم الوصاية عليه. واليك التفصيل:

المسائل الكبرى التي يطأطيها المسلم امامها رأسه ويحترمها جهده هي بعينها كبرى المسائل الفلسفية التي ستبقى ما دام الانسان حياً، نقطاً بارزة في حياته يزيد بها مر الايام وضوحاً وجلالاً، وتكسوها زيادة العلم كمالاً وجلالاً وهي

اولاً -- ان لهذا الكون الباهر غير المتناهي صانعاً حكيماً « لا تدركه الابصار » ليس كمثله شئ » « يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » « اعطى كل شئ خلقه ثم

هدى « خلق كل شيء فقدره تقديراً » ولا ينكر احد ان هذه كبرى المسائل العالية التي لا يتصور زوالها بوجه من الوجوه .

ثانياً — ان للانسان روحاً غير مادية لها حياة خالدة في وجود غير هذا الوجود . وهذه أيضاً من المسائل العظمى التي اصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول كما ننقله عنهم في كتاب ما وراء المادة

ثالثاً — ان لله ملائكة وهم خلق متجددون عن المادة « لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون » وهذه أيضاً مسألة اثبتتها مسألة استحضار الارواح اثباتاً حسيماً كما ستره ان شاء الله

رابعاً — ان لله رسلا من الناس يتمتعهم بخاصية الاشراف على الملا الاعلى ويستودعهم اسرار وحيه ، وقوانين الدين ليبلغوها الى اممهم « وان من أمة الا خلا فيها نذير » وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم « كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق » وهذه ايضا مسألة كبيرة زادتنا مسألة التنويم المغناطيسى واستحضار الارواح جلاء ووضوحاً لما اثبتنا من ان الروح الانسانية اذا جردت عن الاشتغال بالماديات امكنها ان تستقى معلوماتها بدون وساطة المشاعر كما فصلنا ذلك في محله من كتبنا

خامساً — الكتب التي يرسلها الله الى خلقه أي وحيه الى انبيائه ، وهي مسألة كبرى ايضا لا يرتاب فيها الا من يجهل علم ما وراء المادة العصري كل الجمل ورضى ان يكون واقفاً من العلم حيث وقف ملحدو اوروبا قبل قرن من الزمان وزعم ان الكون محصور على ما يعلم . . . (سادساً) مسألة القضاء والقدر وهي مسألة عظمى توزعت عقول الفلاسفة اجمعين من القدم لليوم ، ولها أنصار وزعماء حتى من الذين لا يعتقدون بغير المادة ، لان تشيع الفكر العصري بوجود نوايس للكون ثابتة لا تتغير تجعل مسألة القضاء والقدر من نتائج العلم الطبيعي نفسه

هذه هي مسائل الاسلام التي نحترمها وامرنا بالفكر فيها للوصول الى المدركات العالية منها وقد رأيت انها مسائل الانسانية كلها لا المسلمين وحدهم ، وانها مما لا يتصور في العقل عدم احترامها واعتبارها من المسائل الكبرى في أي دور من ادوار الرقي العقلي لارتباطها بحياة

الانسان مباشرة ووقوفها في مهبط فكره ومضطرب ذهنه

اما دور الشك فان صح على العقائد الاخرى فلا يصح على الاسلام بوجه من الوجوه .
الشك هو التردد في صحة شيء ودواؤه العلم . وقد رأيت ان المسلم ليس له من العقائد الا
ما هو مغرور في طبيعة البشر حب الاهتمام به واعتقاده ، وهي تلك المسائل الست ، وبما انه
قد يطرأ الشك للانسان فيها لقلة علمه ، فالاسلام لا يعاقب الشاك او المستشكل بالحرق بالنار
او بالصليب بل بدوائه الحقيقي وهو العلم واستنزال روح الرحمة الالهية من قبله ، وقد وعده
الله بحسن النتيجة فقال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » بل
انذر الضارب عن العلم صفحاً بالطبع على قلبه فقال عز وجل « كذلك يطبع الله على قلوب
الذين لا يعلمون »

قلنا ان الاسلام جاء بعد ان بلغ العقل الانساني اشده ولذلك فهو لا ينزل الانسان منزلة
القاصر بل الراشد الذي له حق التصرف بفكره وارادته ، بخلاف الاديان الاخرى التي ادعى
قادتها انهم اوصياء على الانسان وانه لاحق له في استعمال عقله وفكره في شؤون حياته الا
طبقاً لما يوحونه اليه من التعاليم والقواعد ، وقد اساءوا استعمال هذه الوصاية لحد ان الناس
تركوا الدين من اجلها وتخلصوا من تلك السلطة بعد جدال وجلا دامت قرون امتوالية ، وعدى
على حياة ملايين كثيرة من الابرياء ، اما الاسلام فلم يجعل لاحد من بنيه حق الوصاية على
غيره ، بل اسبغ على الكل نعمة المساواة الحقة وآخى بينهم اخاء ملكوتيا لم يسبق له مثال في
تاريخ العالم ، وجاء الخطاب عن لسان العزة الالهية بهذا القسطاس العادل : « الجنة لمن اطاعني
ولو كان عبداً حبشياً والنار لمن عصاني ولو كان شريفاً قرشياً » ولذلك تراه يخاطب ابنائه
عموماً بلسان واحد لا يخص بالخطاب طائفة دون طائفة ولا قبيلة دون قبيلة ، ولم يعلق نجاة
روح على روح اخرى وفي هذا الحديث الشريف اكبر عبرة لمن يعتبر : « اعلم يا فاطمة فاني
لا أغني عنك من الله شيئاً » وهذا غاية ما يتوق اليه انصار حرية النفس ، ومحبو رفع القوة
الاستبدادية

انظر الى هذا المثال الباهر من الحرية وقارنه بذلك الاستعباد الهائل الذي طوق به
قادة الاديان الاخرى اعناق اتباعهم حيث علقوا نجاة السواد الاعظم منهم بشفاعاة رجال

قلائل او رجل واحد . ولا غرو فانهم يتصورون الخالق تعالى على صورة الملوك الارضيين الذين لا يمكن التقرب اليهم الا بالتوسل بمحاشيتهم وذوى الزلفى منهم ، اما المسلم الذى ينزه خالقه عن مشابهة المخلوقين ولا يجرى عليه صفة الملوك الارضيين ويعلم انه ارحم الراحمين ، واكرم الاكرمين ، وانه ليس بينه وبين عبيده حجاب ، ولا جلاوزة ولا حجاب ، وانه سميع مجيب « وهو اقرب اليه من حبل الوريد » فانه لا يحتاج لمن يقربه اليه زلفى غير صالح اعماله ، وعقائل صفاته : اما التعلق بشفاعاة الشافعين ووسيلة الوسطاء والمقرين ، فليس من عقيدة المسلمين ، ولا صفة لها عندهم فى الدين ، وما ورد من ذلك عندنا فمفيد باذن الله ومعلق على امره بالنسبة لبعض مستحقي المغفرة قال تعالى « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » « وكم من ملك فى السموات لا تغني شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى . » اما اولئك الذين ليس لهم فى اعمالهم ما يؤهلهم للحظوة بمغفرة الله فلا يستطيع احد ان يشفع عنهم قال تعالى « فما لهم من شافعين » « فما تنفعهم شفاعاة الشافعين » هذا الاصل وحده هو اهدى قائد لنفوس الآخذين بالدين الى باحات الحرية ، واقتوى باعث لهم الى ساحات المساواة الأخوية ، ومن يعلم ان الحرية اصل كل الاصول المهدبة للأئمة الرافعة لها الى منصات العظم ، الباعثة الى نفوسها روح الهمم ، يتحقق معنا ان هذا الاصل كان من اقوى الاسباب التي نهضت بأسلافنا الاولين الى أعلا عليين ، بينما كان غيرهم فى أسفل سافلين ، مأسورين لرؤساء الدين ، ويتأكد معنا انه كما كان سبب اسلام عشرات الملايين ، من الاقوام البعيدين عند ظهور هذا الدين ، هربا من الضغط المهيمن ، كذلك سيكون هو نفسه الجاذب للمواطنين ، المالك للاميال فى هذه القرون وما بعدها حتى يخلص السلطان للاسلام ويكون الدين كله لله . فان روح هذه العصور المتأخرة قد بعثت الى قلب الانسان حب الحرية والمساواة وسينمو هذا الشعور فى الانسان بتوالى الحوادث حتى لا يكون عليه سلطان غير شعوره الخاص وعواطفه الذاتية ، واين يوجد ما يلائم هذا التصور غير الاسلام الذى يخلى بين الانسان وربه ، ويرفع الحجب بينه وبين مالك حياته « قل اني هداى ربي الى صراط مستقيم ، ديناً قيميا ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك امرت وأنا اول المسلمين . قل اغير الله ابني

رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون »

والباحث في أسباب خلع اوروبا لطوق العقائد يرى من اهمها مسألة الشفاعة والوساطة . قال الفيلسوف (لوسيان اريا) في كتابه (عقائد الغد) : « ان كراهة الناس لرؤساء الدين هي التي ولدت في أكثرهم كما يظهر لي الجحافة للدين . فان الخطر جاء من تسخير الناس بسبب الدين لا من الدين نفسه . ومع هذا فلم تكن وظيفة الكاهن من مواضع المناقشة في مؤتمر الأديان ولكنها فيما أرى من المسائل الأولية التي يجب حلها في مستقبل قريب » انتهى . وانك ترى علماءهم وفلاسفتهم يعدون عدم وجود الوساطة من ضمن المزايا الكثيرة التي للاسلام على سائر الأديان وأقرب شاهد على ذلك ما ورد في (المجلة) القرلساوية في جزء ١٥ مايو وهو : « ليس في الاسلام البتة لاطقوس دينيه ولا أسرار كهنوتية ولا كهان ولا هياكل ولا شيء مما يعتبر شرطاً أصلاً في اداء العبادة . بل فيه ان الانسان شفيع نفسه امام خالقه فتراه يرجو بذاته رحمة ربه وغفرانه ، وبعبارة الاصطلاحات الدينية الاسلام يعد وجود الجمعيات الكهنوتية والسلطة الروحية من البدع المضادة لنص العقيدة . »

قلنا الاسلام ينزل الانسان منزل الراشد لا القاصر ولم يكلفه من العقائد الا ما لو خلى ونفسه لاهتم بها لانها نتيجة عواطفه المغروزة في طبيعته ، وقلنا انه لو شك فيها يعالجه بعلاج الشك وهو العلم لا بالضغط على فكره او حرق جسده كما فعل غيره . لهذا جعل العلم قوام الدين وملاك اليقين ، حتى فرضه على عموم أتباعه من ذكر أو أنثى ، وسن لهم كل ما من شأنه زيادة العلم ونمو مادته . كالسياحة واستشراف أحوال الامم وتعرف نوااميس الخليفة والعمران . وكالنظر في الكون وتنو اسرار الكائنات . حتى قال عن السياحة « أو لم يسيروا في الارض فينظروا . الخ الآية » « قل سيروا في الارض فانظروا الخ الآية » وقال عن النظر في الكون « وفي الارض آيات للموقنين وفي انفسكم ، افلا تبصرون » فانظر كيف ان السياحة واستطلاع احوال الامم والكون التي شككت اليونانيين في عقائدهم قبل الميلاد بأربعمائة سنة ، وحلت معاهد عقائد الاوربيين في ابان اختلاطهم بالمسلمين واشراقهم عن مدنيتهم كما اثبتنا لك ذلك في كتاب الاسلام ، قد ندب اليها الاسلام بصفتهما مقوية

للعقيدة ، مثيرة لروح الدين ، مثبتة لاراكين اليقين حتى قال الله عن السياحة « فلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور » وقال مبكثاً الذين لا ينظرون في مساير الطبيعة « وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فاي فرق هائل بين دينين يقوى احدهما بما يهدم الآخر ، ويحيي بما يلاشي ضده ؟

السياحة تزيد في سعة المدارك وتشرف بالانسان على اسرار العالم وعلى نواميس العمران والحراب في الامم ، وعلى اسباب المدنية والوحشية في الشعوب وتجعل للانسان فكرة عامة على معنى الحياة الانسانية الصحيحة . والنظر في الكون نتيجه توسيع نطاق سلطة العقل الانساني على الادراك ، والسرمان في ضماير الكون ، والوقوف بالتصور والفكر المواقف التي هما جديران بها من هذا العالم البديع ، وتخويل القوة البشرية خاصية استخدام قوى الكائنات في تحسين الحياة الانسانية وتهديبها بما يفتح للعقل من مغلق المسابير ومؤصد الاسرار . وهذا كله كما لا يخفى يعلو بالعقل والفكر ويسمو بهما درجات متوالية على اقدار محسوسة فيحصل ما يسمونه الترقى في الهيئة الاجتماعية ، وهذا الترقى كما يحصل في الصنائع والفنون كذلك يحصل في المدركات والعقائد ، والدليل على ذلك ان كل امة ترتقى تترك عقائدها وتهجرها لتطلب عقائد ارق منها . وقد شعر بذلك رؤساء العقائد فحرموا النظر على اتباعهم ، وقرروا ان كل علم لا يوافق العقائد فهو مردود باطل يستحق صاحبه سوء العذاب . فكيف يخالف الاسلام هذه السنة التي جرى عليها حفظ العقائد ويعلق كمال الايمان وتمام اليقين على ما احدث الشكوك في اذهان اهل الاديان الاخرى وانتزع العقائد من افئدتهم ؟

ذلك لان الاسلام كما قلنا لم يكلف الانسان من العقائد الا بما لو ترك وشأنه لتعلق به من نفسه لانه نتيجة قوى عواطفه واحساساته ، وهي تلك العقائد الست التي ذكرناها آنفاً ، ثم انه بعد ذلك لا يكلف الانسان الا خلع نير التقاليد والوراثات والعقائد الباطلة عن عاتقه خلماً كلياً ليستوى بشراً سوياً خالصاً لله ، لا تمتثالاً محشواً باقدار آبائه واجداده ، وضلالات اسلافه وأواليه ، عقله أسير رئيس دينه ، وفكره مغلول عن البحث خوف الكفر ، كأنه مصاب بشلل في قواه ومواجهه ، او مسلوب التصرف في نفسه . فما

الذي يخشى على المسلم بعد ذلك من وراء العلم؟ وهل للروح المسلمة غذاء غير العلم، ونور غير الحكمة، « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » « انما يخشى الله من عباده العلماء »

اذا تقرر هذا فهل يسرى قانون الادوار التي تنتاب العقائد على الاسلام . وهل يخشى على المسلم من تشبع فكره باحوال الامم وعظمة الكون ، وهل يليق بعد هذا ان يقال لمسلم انك لا ترتقي الا اذا خلعت طوق الدين من عنقك كما فعله غيرك من الامم الراقية؟ وهل يقال له انه من الحياة الانسانية في دور الطفولية او انه يود ان يبقى في ذلك الدور ويسابق الامم الاخرى التي تجاوزته؟

ان الذي حرم المسلمين من التمتع بمزايا دينهم هو إضرابهم عن السياحات وعن تعرف الاحوال والنظر في الكون ومتى جاء ذلك اليوم الذي يأذن الله فيه للحقيقة الاسلامية ان تنفذ الى اوربا من خلال هذه التعصبات القديمة المتكاثفة لما ترتقي روحها السائدة في هذا الجيل عما هي عليه درجات اخرى ، فسترى في ذلك اليوم كيف يكون رجوع الحق الى نصابه بل كيف يكون الدين كله لله « ولتعلمن نبأه بعد حين »

ما هو الاسلام؟

(زيادة بيان)

لو ادرك الناس كافة معنى الاسلام وفقهوا كنه ما يرمي اليه لما بقي على وجه الارض من يدين بدين آخر، لانه مطلوب كل روح ومرمى كل قابلية، وأنشودة كل استعداد، ومطمان كل احساس، ومنتهى كل عقل من معنى الدين والايمان، وهذا سر قوله تعالى (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون) ولولا ان الاسلام دين يتطبق على كل قابلية واستعداد، ويلائم كل عاطفة واحساس لما كلف الخالق به عموم خلقه من انس وجن وهو سبحانه وتعالى القائل بلسان الرحمة (لا يكلف الله نفساً الا وسعها)

هذا اجمال يستدعي شيئاً من البسط وانا موجزون الآن بحثاً في هذا الموضوع نفصل به للقارى معنى تكليف الخلق كافة بهذا الدين ونفسرله ما يقوله علماء المسلمين من ان هذا

الدين سيرت عموم الاديان وسيسود على جميع نوع الانسان ، وانه منطبق على كل قابلية وصالح لكل جيل من البرية . وهو بحث جليل القائدة يحل لنا الحقيقة الاسلامية في اجلي مظاهرها واكمل معانيها

(الناس أمام الاديان)

الناس ثلاثة اقسام : فهم إما جهلة لا يدرون من معنى الوجود والحياة والعالم الا ما علمه بعضهم من افواه بعض علماء ناقصاً مشوشاً ، وإما علماء وقفوا على غايات العلم على قدر ما فتح الله على الناس من حقائق طبيعية واسرار كونية ونواميس وجودية . وإما اوساط لم يخطوا الى حضيض الجهال ولم يصعدوا الى منصات العلماء فهم وسط بين ذلك . هذه اقسام ثلاثة كلية بينها اقسام ثانوية قد لا تعد ولا تدخل ضمن حد . فان الجهال اصناف شتى وطبقات عدة ، وكذلك العلماء والاوساط ؛ الا ان صعوبة هذا الاستقراء وعدم فائدته لنا في موضوعنا هذا يقف بنا عند هذه الاقسام الكلية ؛ فانا انما نريد ان نعطي قارئنا صورة جميلة عامة لها صور تفصيلية لا تستقصى بتغير بتغير الاحوال والظروف ، ولا يمكن ادخالها الى قاعدة . فلندرس الآن كل من هذه الاقسام من حيثة علاقته بالدين ليرى قارئنا تفصيل ما اجملناه له في مقدمة هذه المقالة ببيان جلي وشرح كاف فنقول :

(حظ الجاهل من الدين)

قلنا الجهال اقسام لا يمكن حصرها بالضبط ولا فائدة لنا هنا من التقيدها والسعى في حصرها فانه يكفي ان نعرف مقدار الجاهل في العرف فقط لا نريد بالجاهل من لا يقرأ ولا يكتب فقط فقد يكون الرجل قارئاً كاتباً وهو من الجهل بحيث لا يدري انه جاهل

اذا كان يمكننا ان نشبه حياة العالم بحالة الانسان في اليقظة في وضوح مجال الوجود امامه ، ونصوع اشائه في نظره ، وادراكه اطراد علله في انتاج معلولاتها ، وارتباط اسبابه بمسبباتها ، وانتظام حلقات الكائنات واتساقها ، يمكننا ان نشبه حياة الجاهل بحالة الانسان في الحلم فهو يرى ويسمع ويبصر ويشم ويحس بكل ما هو من خصائص الحس ولكن احساساً ناقصاً غير مرتبط ولا متسق . يرى اللال ولا يجد من نفسه القوة على رؤية معلولاتها ويرى المعلولات

ولا يرى عليها فيخلط بينها خلطاً وربما عال وجود الشيء بما هو سبب عدمه . يرى الحوادث
تتري وتتم فيحسبها حوادث يقذفها الوجود على غير قاعدة ، وتلفظها الشؤون بغير ضابط ،
لا حظ له من تناليها الا الاشراف على آثارها والفرح والحزن بما يقع على حسه منها
الجاهل قليل العجب بالبدائع ، ضعيف الشعور بالجمال على الخس معانيه ، لانه لا يعرف
النظام ولا يدرك معنى الائتلاف والاتساق ، ذئ الحظ من اللذة من حيث هي لانه محروم
من اللذات المعنوية لعدم قابليته للشعور بها ، ولا نصيب له من اللذة الا ما يشعر به جسده
وهو مما يشاركه فيه العالم ويزيد عليه شعوره بمكان تلك اللذة من عالمها الخاص بها
كل منا علم الجاهل علماً ذاتياً وذائقه ذوقاً وجدانياً حينما كان طفلاً من بعد السنة السابعة
الى السنة الثانية عشرة تقريباً ، وقد يزيد هذا التقدير عند بعض الناس وقد ينقص على حسب
الاحوال وهو امر لا يغير جوهر الموضوع ، فكلنا ذاق الجاهل وعلمه ويستطيع ان يعطى
نفسه منه صورة على قدر طاقته في تصوير المعاني ومكانه من حسن الذاكرة
هذا الجاهل لا حظ له من الدين الا على قدر ما يخفف عنه من ألم في مصيبة ، ويخفف
له من دسمة في نازلة ، من وعد بأجر ونعيم ، وإبعاد على معاقبة عدو لئيم . اما فيما يسمو على
ذلك فشعور الجاهل به ضعيف ، وطلبه له اضعف . لذلك ترى شيعة الباطل من الاديان
جهالاً كلهم وقد يكون معهم افراد من الاوساط المتأثرين بآثار العادة والالف ، لانهم لا
ينتظرون من الدين الا التعزية في وقت الشدة ، والعدة بالتعويض في دار بعد هذه الدار .
وهذه الخاصية موجودة في سائر الاديان على خلاف بينها في وجوه تلك التعزية ووسائل
ذلك التعويض وموجباته . لهذا لا يفكر الجاهل في ان يثور على دينه بشك ، او يقاومه
بريبة ، وان كان يتألم من تناقض يحده في بعض قواعده ، واختلاف يصادفه في أمهات
مسائله ، الا انه ألم لا يلبث مع سلطان العادة وبطش الوراثة وسطوة التقليد الاعمى ، فتراه
لا يكاد يضطرب بوجدانه هاجس من مقدمات الشك حتى تنشأ غاشيات الوراثة من كل
فج ، فيعتري ضميره نوعاً من الاغماء فلا يفيق الا وهو في واد آخر من أمور حياته وشؤون
جهاده . مع كل هذا فالجاهل المسلم احسن حالاً واوسع صدرأ وأقل هواجس وارواحاً
من أى جاهل من جهلة الاديان الاخرى ، لانه لم يكاف باعتقاد ما لا يعقل ولا بتصديق ما

لا يدرك ولا يعمل ما يشق عليه ولا يقتل عاطفة من عواطفه . فهو يحس من نفسه الحرية ويأنس من روحه الغبطة والسرور دائماً ، فتراه في صلاته وصومه ونسكه وتسيبجه حتى في سلامه ودعائه فرحاً مسروراً مطمئناً مرتاحاً ، يكرر الحمد مراراً في يومه على ان خلق مسلماً ولا يرى فوق ذلك نعمة ، ولا يجيش في صدره ان يرتد عن دينه لاي سبب يمكن تصوره . بينما نرى جهال الامم الاخرى يسلمون كثيراً ولو عنيت صحف الاخبار في بلادنا وفي غيرها باستقصاء عدد الذين يسلمون يومياً لبلغ في السنة مئات الالوف . وقد سمع عن اهل الملل الاخرى من يهدد اهله باسلامه اذا لم يسمفوه بمطوبه ولم يسمع عن اجمل المسلمين مثل هذا التهديد مطلقاً ولو بلغ الله وكدره اقصى مبلغه ، وفي هذا دليل محسوس على الطمأنينة السائدة على نفسه ، والهدوء المستفيض على روحه

(الاوساط والدين)

قلنا ان بين الجهال من الامم والعلماء طائفة وسطى لم تحط الى حضيض الجهل ولم تصعد الى قمة العلم فهي في عالم وسط في الحياة ويمكن تشبيه حالها في الوجود بالنسبة لشعورها به وبنظام كائناته وارتباطها بحالة الانسان بين النوم واليقظة ، يشعر شعور الصاحي ويدرك مداركه وليس كالصاحي في ضبط علاقات ما يقع على حسه من الحوادث ، وادراك النسب الموجودة بينها ، وهو لا يعني بذلك ولو غني به وسعى وراء تحصيله خائنه وسائله فيحصل منها ما يشبه الحقيقة وليس بها . ولو كلفت نفسك باستشراف افكار هذه الطائفة وهي الشق الاعظم من متورى الامم لرأيت لكل من افرادها فلسفة خاصة تشمل كل المسائل الانسانية . فله فلسفة في الدين والعلم والمدنية والعمران والاخلاق على قدر وسائله تعطيك شكلاً فلسفياً كاملاً وان كان نافصاً من جهة الاستقراء والاستدلال وخالية من روح التحليل والتشريح ، ولكنها على اى حال فلسفة يقنع بها اهل طبقها ويقف معها ذووها من اهل درجتها . قلنا ان هذه الطائفة لها فلسفة على الدين خاصة بها فتطلب ديناً ينطبق على مقررات العقل ولا يتنافى بدائنه الحس

ديناً يحبها في الحياة ولا يزهدا فيها

ديناً ينشطها للعمل ويحرضها على استصلاح المعيشة

ديناً يحثها لطلب العلم ويدعوها لاحترامه واستثماره
 ديناً يبيع لها مجال الفكر ويفسح لها ميدان النظر
 ديناً يسمح لها بالتمتع بالذائد البدنية المعتدلة ولا يحرم عليها الا الافراط فيها
 ديناً يفيض على نفوسها روح الحرية ويثبت في افئدتها حرارة الشم والحمية
 ديناً يفضي بالروح الى خالقها ولا يقيم الوسطاء بينها
 ديناً يرحمها في ضعفها ولا يطلب منها فوق طاقتها وينزل معها الى حيث هي ويعاوبها
 ولا يعلو عنها

ديناً يراعى بها ادوار الطبيعة ويلاحظ لها اطوار الحياة فيعطى لكل دور ما يناسبه ،
 ويقابل كل حال بما يلائمه

هذا هو الدين الذي يتطلبه الاوساط من الامم ولا نجد فيما نراه من صور الاديان
 الموجودة الآن ديناً فيه هذه الخاصية وزيادة غير الدين الاسلامي . لذلك ترى الاوساط من
 هذه الامة اغير الناس على دينهم واحمام قلباً على كرامة ملتهم ، حتى انه ليوجد بين اوساط
 هذه الامة نهضة دينية تشبه من كثير من الوجوه تلك النهضة التاريخية ، وقد سرى تيار
 هذه الحماسة الدينية في الافئدة كافة وصار من مقررات الرأي العام اليوم ان تأخر المسلمين
 سببه ترك الدين وهجر تعاليمه ، وهو اجماع عجيب في عصر هجر الدين فيه كل الامم الراقية
 والاسلام وان يكن حقيقاً بهذا الاجماع وزيادة ، الا اننا نعجب من ان فتنه المدنية التي اجتاحت
 كل عاطفة فينا كيف ابقت على هذه العاطفة الدينية مع معارضة المدنية لها جملة وتفصيلاً
 هذا عجيب في ذاته ولا علة له الا ان الاسلام انشودة روحية غالية جداً لا تسطو
 عليها فتنة مهما عمت وطمت ، بل ربما كانت الفتنة تبعث النفوس اليها وتأخذ باكظام العواطف
 لها عليها

كيف لا يكون التفاف اوساطنا حول الاسلام عجيباً وكل شيء في الشرق الاسلامي
 اليوم منفر من الدين ومبعد من الايمان واليقين ؟ امامهم مدنية قامت بلا دين بل بنت
 عظمتها من انقاض مجد اشياعه وهي الآن تعمل على اسقاطهم وراحة العالم منهم ، وبين
 يديهم جرائد ومجلات تدس لهم السم في الدسم ، وتصور لهم العلم الاوروبي في صورة وحش

كاسر سطا على العقائد فقوضها ، وعلى التقاليد الانسانية فهدمها وعلى كل قديم فاوهى اساسه وتركه خاويًا على عروشه ، وزيادة عن ذلك فين ايديهم نفر من شذاذ الآفاق اتوا بلادهم للارتزاق وهم من عدم احترام دينهم بالسكان الاسفل وكفى بهم مثالا سيئًا لامة اصابتها مموهات سحر هذه المدنية اصابة افقدتها التميز والرشد . اليس اصرار اوساط المسلمين الآن رغماً عن كل هذه الحوائل على الدعوة الى الدين والحماة به يعد امراً عجيباً مدهشاً ؟ نعم والذي هو اعجب من هذا وادعى للبحث هو ذلك السر الكبير الذي اودعه هذا الدين القويم ، وما منحه من لدن خالق الكون والانسان من تلك القوة الطائلة التي تسمح له ان يقارع بها كل هذه الحوائل الصورية والسواحر المعنوية والفتن الاجتماعية والتردية ويتغلب عليها ، وتكون في القرن الرابع عشر الهجري او القرن العشرين الميلادي على الصفة التي نحن عليها ننتظر روحا اسلامية تحل بنا ، وحياة محمدية تفيض علينا ، فترجعنا الى مثل ما كان عليه ابائنا صلاحاً وكالاً .

لا يمكن ان يكون هذا كله الا لأن الاسلام حاصل على الخصائص التي ذكرناها وزيادة ولولم يكن كذلك لما امكن ان يكون هذا اثره على العقول والمواطف في عصر اصبح فخار اهله فضلاً شعارهم الطعن على الاديان والافرار بتخلصهم من سلطة سائرهما هذه الطائفة الوسطى تعترى افرادها شكوك في بعض مقررات الدين ، ولكنها شكوك مشوبة بماطفة من الفيرة والحب ، فترى الرجل منهم يشك ويتمنى من صميم قواده ان يرزق بمن يزيل له شكه ، وربما تألم من شكه أكثر مما يتألم من فقد ابنه مخافة من ان يفصله ذلك الشك عن انشودة روحه ، ومطمأن عواطفه وهو الاسلام ، وقد رأينا باعيننا شاكين يتألمون من وجود الشاكين ، فهم بهذا الفعل المتناقض كأنهم يعترفون في سويداء افئدتهم بنساذ شكهم وحقيقة الدين في ذاته ، وان كان عقابهم يتطلب برهاناً من عالم العلم يزدادون به قوة في عالم الاعتقاد ، وهذه سلطة على النفوس قد لا تصادف في متبعي دين غير هذا الدين يقول بعض المتفلسفين هذا تأثير قانون الوراثة ، واثراً من آثار قوة العادة ، ويفيب عنهم ان لقانون الوراثة حداً محدوداً ، وسلطة الاوهام العادية نفوذاً معلوماً ، فان الحقائق الساطعة ، بل الحوادث المضلة والفتن المفسدة المستمرة تقف امام قانون الوراثة حيناً او احياناً ثم تحمل

عليه حملة منكورة فتبديد آثاره تبديداً ، وتصل في اندفاعها الى ابعد ما تصل اليه لو كان الطريق امامها خالياً ، لذلك ترى فجور الفاجر بعد الصلاح اشد وطأة من فجور من نشأ على الفجور من اول مره

على ان هذا القانون الشديد البطش لماذا يصدق على المسلمين دون غيرهم ؟ ها هي شعوب اوروبا لم تقو فيها الوراثة الدينية على صد كتائب الشبه والشكوك فجنحت الى الاحاد عامتها وخاصتها وجاهر الكل بنبذه للدين على حد سواء . بل هذه أم الشرق الاقصى من الهند الى الصين الى سائر الامم الاخرى سواء كانت اسيوية او افريقية مما يستوي في الجهل مسلموها وغيرهم ترى المسلمين ثابتين على دينهم ، فرحين مستبشرين بمقائدهم ، وترى غيرهم من الوثنيين المجاورين لهم يدخلون الى ملتهم افواجا افواجا بطريقة مستمرة تشبه الحوادث الطبيعية ذات النواميس الثابتة . فلماذا تشتد آثار الوراثة على المسلمين وتضعف عن الآخرين ؟ أليس لكون سلطان الاسلام على العقول والارواح قويا جداً يصعب ان لم نقل يستحيل زحزحته عن مكانه ؟

هذا الاثر بعينه ظاهر في الطبقة الوسطى من المسلمين اذا قورنوا بأمثالهم من الامم الاخرى وهو دليل محسوس على ما نقول من ان الاسلام مطلب كل روح وانشودة كل استعداد وقابلية

كما ان هذه الطبقة الوسطى لا تنزه عن شك في الدين كذلك هي عرضة لنفثات المشككين ولكن لا نتيجة لهذه النفثات الا تثبيتهم في دينهم وان كان ذلك خلافاً للتبادر للذهن ذلك لان المشككين انما يتصيدون الشبه على القرآن وعلى الداعي اليه تصيداً ، ويتعسفون في صوغها تعسفاً بيناً ، وفوق هذا كله فانهم يتسلحون لها بسلاح من الانتقاد ماض جداً فاذا تشبع احد المسلمين بشبهاتهم وتسلح بتلك الاسلحة الانتقادية في نقد ما يقدمونه اليه من تعاليم دياتهم التي يدعون اليها كرأبنا الى الاسلام رغم انه لما يجده امامه من التناقضات والتعاكسات التي لا تدخل تحت حصر فيرجع للاسلام لا رجوع المفضل له على غيره ، بل رجوع الموقن به المتحمس له تالياً على نفسه قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله)

ثم ان هذا التشكيك على دين الاسلام من أولئك المشككين يفيد الاسلام من جهة النشر فائدة كبيرة جداً . ذلك انا قلنا انهم في تشكيكهم يتصيدون الشبه تصيداً ويستعملون سلاحاً انتقادياً حاداً جداً فيطلع اهل ملتهم بحكم الحال على تلك المقالات الانتقادية الحادة سواء كانت في الحوادث التاريخية او في الامور الاعتقادية او في المعاملات فيكتسب الشاب منهم قوة انتقادية خاصة به تشتد وتضعف على قدر مداركه ، فاذا استعرض معتقداته أمام نظره بذلك العقل الانتقادي الصارم واشرف عليها وهي على ما يعلم الناس من التناقض والمجافاة لبدائه العقل في أكثر جهاتها رجع والشك ألصق به من ظله ، فلا يجد له محيصاً الا السكوت على مضض ، والى متى ؟

بهذه الصفة نرى ان هؤلاء المشككين يخدمون الدين الاسلامي اجل خدمة وان كانوا لا يتوهمون ذلك ولا يضطرب في خيالهم ، ولو كان في بلادنا احصاءات لرأينا ان عدد الداخلين في الدين الاسلامي في هذه الايام الاخيرة التي انتشر فيها أولئك المشككون يزيد يوماً بعد يوم . وهو وان كان لانتشار العلم اثر كبير في احداثه لان العلم يبعث الانسان نحو الحقيقة دائماً ، الا ان لأولئك المشككين اثر يذكر ايضاً ، فانهم بتشكيكهم يوقفون المواطنين النائمة ويبعثون الشبه الكامنة ، ويجعلون المسئلة الدينية في مجال البحث والمجادلة ، وكفى بهذا الجهاد محرضاً للشاكين منهم على ترك دينهم والمجاهرة بزعة يقينهم

قلنا ان هؤلاء المشككين لا يكسبون من وراء جهادهم شيئاً غير تثبيت المسلم في دينه ونصبه مناظراً لدوداً لهم ينقض بنيانهم ويفض جبالهم ، لان المسلم ان شك في دينه لجأ الى النظر والاستدلال ، واعتصم بالعلم والبرهان ، وكل هذا من أصول ديانته وقواعدها . فهل يسمح له اهل دين آخر بان ينظر ويستدل او يستشهد بالعلم والبرهان على اصل من أصول العقائد ؟

اذا تقرر هذا علمنا ان الطبقة الوسطى من المسلمين يستحيل عليها ان تصبأ عن دينها الى دين آخر وانها اشبت بدينها من نظيراتها لدى الامم الاخرى ، وهو ما قدمناه من ان الاسلام انشودة كل فطرة ومطمان كل عاطفة ومطلوب كل استعداد وقابلية

(العلماء والدين)

أريد بالعالم هنا العالم المعصرى الذى تركزت في مداركه صورة مصغرة من معلومات هذا الجيل على اختلاف أصولها وفروعها ، وتجلت له بكل شدتها وهولها تلك المعارك القلمية الصارمة التي حدثت بين حفظة القديم وانصار الجديد في القرن الماضى والذى سبقه

أريد من صنف العلماء الموما اليهم من سلمت فطرهم من الطمس ، وطهرت جواهرهم من خبث العماية الجبلية . فانا في بعض كتبنا قسمنا الفطر الى ثلاث : فطرة مؤمنة وفطرة كافرة وفطرة جامدة لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء . فأريد هنا من العالم العالم السليم الفطرة المتألى الوجدان ، فهو الذى اقصده ، وهو المستحق لهذا اللقب الفخيم باخص معانيه ، بل هو الذى يصدق عليه انه صورة حية من حال القرن الذى يعيش فيه . اما غيره فلا يريك تلك الصورة الاناقصة مشوهة

الدين روح كلية مستولية على سائر الارواح الجزئية استيلاء البحر على احيائه السابحة فيه ، لكل روح منه قسط يناسب مداركها ، ونصيب يوافق شعورها ، ويلائم استعدادها ، ومن انكر الدين في ذاته فقد انكر اكبر ارواح الوجود تأثيراً واقواها على العالم تسلطاً ، وكان كالعقصة الصغيرة تسبح في القطرة وتشكر البحر الذى يشملها ، او كالبعوضة ترح في جو الحجرة وتبجح الجو الذى يحملها

فلنا الدين روح شاملة تأخذ منها كل روح على قدر حالها . وقد درسنا حظ الجاهل من الدين وحظ الطبقة الوسطى منه في الفصلين المتقدمين ، وهنا ندرس حظ العالم منه

أخص صفة من صفات العالم المعصرى « الافرار بالجهل » حتى حدد الاستاذ (ايزوليه) المدرس (بمدرسة فرنسا) العلم بقوله : « ان علومنا هي الجهل المرتب » وقد حلل الفيلسوف الانجليزى (هربرت سبنسر) العلم الانساني في كتابه (الاصول الاولية) فاحاله الى درجة العجز المطلق أمام ادراك كنه اصغر ذرة من ذرات الوجود . وقرر انه لا يكسبنا فى الامام باشياء الوجود الا ادراك علاقاتها ببعضها وصفاتها الخارجة عن كيانها وكنهها

اذا تقرر ان الافرار بالجهل هي صفة العالم المعصرى وان العلم الحالى قد بث هذه الروح فى نفوس اهله ، فلنا ان كل دين لا يكون من اوليات أصوله ومبنى قواعده ما يلائم هذه الروح

التي اكتسبها العالم المعصرى من العلم الحاضر فلا يصلح ان يكون له ديناً . بل ان كل دين لا يقول للانسان « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ولا يعترف له بقانون الترقى بالنص قائلا له « وقل رب زدنى علما » ولا يريه ان المعلومات غير قابلة للانتهاء وان الانسان بازائها شيء صغير كقوله تعالى « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بنشله مددا » فلنا كل دين لا يواتى الانسان من جهة هذا الميل لا يصلح ان يكون ديناً للعالم المعصرى بوجه من الوجوه

أكبر مشكلة متسلطة على الفؤاد الانساني هي مشكلة العقيدة بوجود الخالق . مشكلة تتولى الانسان من أول شعوره بالعالم حتى كأنها قطعة من فؤاده ، او كأن فؤاده قطعة منها . فلا يزال يترقى في الشعور بها حتى ينتهي لأن يعجب من نفسه في عدم استقرارها من هذه المسئلة عند حد ، وكيف يقف منها عند حد وهي مشكلة الخالق جل جلاله الذي ليس كمثل شيء ؟

قد كشف العلم المعصرى لذويه من احوال الالم البائدة او المعصرية الجاهلة في درجات مداركها من هذه العقيدة ما يريك بالحس كيف يعبد الانسان خياله ، وكيف يحسم وهمه . صورت كل أمة الخالق تقدست صفاته على قدر عقلها وعلى حسب قوة خيالها حتى لو أردنا إيراد مذاهب كافة الناس في هذه العقيدة للزمن ان نفرد لها مجلداً كبيراً ثم لا نستطيع حصرها بالضبط . أفلا يعذر العالم المعصرى أمام هذه الافكار بل الاوهام المختلفة ان لفظها كلها الى عالم الخرافات والاضاليل ، وحكم عليها حكمه الصارم الذي يرهبه اتباع الاديان الباطلة في كافة البلدان ؟ اذا كان العلم المعصرى قد كشف لذويه بالدلائل العيانة ان الانسان قاصر عن ادراك ذات المادة وانه جاهل جهلاً مطلقاً حتى فيما يدعى معرفته ، فكيف يشرب الى زعم تصوير الخالق بصورة ذهنية ، ويتعالى الى الحكم على ذاته وصفاته بحكم ليس له عليه دليل مشاهد ؟ لاجرم ان كل دين لا يقرر في اوليات أصوله عجز الانسان عن ادراك الخالق ووجوب وقوفه عند حده كقوله تعالى « ليس كمثله شيء » « يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » لا يصلح لان يكون ديناً للعالم المعصرى مطلقاً . بل لا يريح بال العالم المعصرى ويقطع هواجسه الا دين ينص له ما نصه له العلم من ان كل تلك العقائد اوهام

وظنون وان الحق وراء ذلك كقوله تعالى « إن يتبعون الا الظن وإن هم الا يخرصون »
 « إن هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » « وان الظن لا
 يغني من الحق شيئاً »

وكما ان العالم المصري يرى من العلم ان يقر بمجزئه عن ادراك خالق الكون كذلك
 يرى من العلم ان يقر بقصوره عن ادراك كينية خلق الكون وان لم يكن ذلك الادراك من
 المستحيلات عليه . وكيف لا يقر بقصوره وكل يوم يكشف من قوى الوجود ما لا كان
 يحلم به ويرى بعينه ان مجال البحث بعيد الاكتاف ومجاهيل الوجود لا تدخل تحت حساب
 وتبرهن له المكتشفات كل حين بأنه كان جاهلاً وأنه لا يزال كذلك حتى يأذن الله له بشيء
 من القبح لا يضطرب في خياله

من هنا يرى العالم المصري ان العلم متبع ناموس الارتقاء وهي حقيقة لا يمتري فيها
 انسان فلا يحب ان يكون دينه الذي يدين الله به واقعاً عند حد ، او حاكماً عليه بحكم بل يرى
 ان الدين اجل من ان يتبع العلم في دور من ادواره السابقة او اللاحقة لانها كلها نافصة
 باعتراف الحس والمشاهدة . فكل دين من هذا القبيل لا يصلح ان يكون دين العالم
 المصري ، فهو لا يرضخ الا لدين يقول له « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس
 والحج » اشارة الى ان ليس من وظيفة الدين الا الحقائق الاولى لا المعلومات النافصة
 الجزئية . ويقول له « قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي
 ولا ينسى » اشارة لان ذلك ليس من وظيفة الانبياء حتى يسألوا عنه ، بل هو مما يفتح الله
 به على بعض المشتغلين به

تري العلوم التاريخية للعالم المصري حال اهل الاديان كلها في اختلاف وشقاق وافق
 مع مفاهيم الانفاظ ، متشاكسين في مضامين الكلمات ، منقسمين فرقا واحزابا ، يكفرون
 بعضهم بعضا ، ويمزق بعضهم احشاء بعض . يرون هذا شائعا في اهل كل دين على حد
 سواء غير مقصور على قوم دون قوم ، فيرون ان ذلك كله ليس من الدين وانما هو من
 الاهواء والنزغات فلا يرضى العالم المصري ان يدين الله الا بدين يقول له « ان الذين فرقوا
 دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء »

ترى الفلاسفة الانتقادية التاريخية للعالم المصري ان كتباً قد كتبت لدى اهل كل دين على حد سواء، وملئت بالمقالات الطويلة الذبول في الكلام على الخلق وصفاته واحواله وعلى مذاهب المخالفين لهم مما يستوجب الردود المستفيضة ويستدعي المجادلات العنيفة في مواضع يستوي الجميع في جهلها، ولا يفضل بعضهم بعضاً في العجز عن ادراكها، فيرى العالم المصري أن كل ذلك ليس من الدين في شيء، وان هؤلاء الناس انما يتناقشون فيما وصلوا اليه من العلم، وانتهت مداركهم اليه من الفهم، ولا إثم عليهم في شيء من الجدل، لولا انه جدل في الدين أقاموه باسمه وروجوه بسلطانه، فلا يرضى العالم المصري الا دين يقول لاهله « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

دين يقف صاحبه على الناموس الطبيعي في اختلاف المدارك وتباين القابليات لا يدرك الحقائق كقوله تعالى « وما انت بهاد المعنى عن ضلالهم » « انك لا تحيي الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين » « إن تدعوهم لا يسمعوادعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير »

يرى العالم المصري من استقرار حوادث التاريخ ان حوادث اجتماعية كبيرة وانقلابات سياسية وحربية هائلة حصلت على اثر ظهور رجال حفظ التاريخ اسماءهم للآن، ظهروا في أتم مختلفه وازمنة متعاقبة، متحدين في الوجهة، متوافقين في الغاية، يظهر امرهم أولاً ضعيفاً هيناً ثم يقوى ويشدد، ولا يزال كذلك حتى تصير كل قوة بازائهم ضعفاً، وكل مقاومة استسلاماً، وهم في زمان قوتهم كما في زمان ضعفهم كبراء الافئدة لا تستخفهم الموهبات الارضية، واللذات الوهمية، أحرار لم تأسرهم فوائن الدنيا ولا سواحر الحياة، مسلمين وجوهرهم لله لا يخافون بطش جبار ولا سطوة غاشم، داعون الى سبيل الله، لا يفترون ولا يملون، ولا يضعفون ولا ينجبنون، جسوم آدمية، واخلاق ملكية، قد وسع الناس حلمهم وعلمهم، واتسع للسكل صدرهم ووجههم، فقراء ولكن تستخفي الملوك أمامهم، حلماء ولكن ترتد العناية بحضرتهم. هؤلاء العظماء الذين برهنت افعالهم على صدق اقوالهم، وجاءت الحوادث مؤمنة على دعائهم، اتحدوا كلهم على القول بانهم رسل الله الى خلقه، وأمرته على

أسرار وحيه ، وان بينهم وبين العالم العلوي صلة مستمرة ، ومدد لا ينقطع ، وانهم جاؤا
للارواح بنورها ، وللعقول بريحانها ، وللأفئدة بمطلوبها ، وللصدور بشفاؤها . رأى العالم
العصرى هذه الحوادث الكبرى في التاريخ يتلو بعضها بعضها كأنها سلسلة متجانسة الحلقات فلم
يسعه الا الاعتراف لا واثق الرسل الفخام بوظيفتهم ، وكيف لا يعترف لهم بها وقد ادعوا لها
واقاموا الدليل المحسوس على انهم رجالها واصحاب تكاليفها بنجاحهم فيما تصدوا له وهو امر
جل ، وعمل دونه كل عمل

يرى العالم العصرى نفسه مرغما على الاعتراف لهؤلاء الرسل بوظيفتهم لانهم قالوا نحن
انبياء ، وجاؤا لمن بين ظهرائهم بألوف من الدلائل المؤيدة لدعواهم ، وقالوا نحن رسل الله
ونصبوا الاعلام الواضحة على صدق مدعاهم ، قالوا من آمن بنا نجا ، ومن اعرض عما جئنا
به هلك ، فكان ما قالوه رغما عن تألب اعدائهم عليهم ، وتماثلهم على احباط سعيهم . قال
كل منهم انى جئت بشريعة ناسخة لشريعة من كان قبلى او مكملة لها ، وفعل كما قال ، وأيده
الله رغما عن كل معارضة ومنايذة

هذه آيات يهديها تاريخ العالم الانسانى للعالم العصرى ويجليها له بالاسلوب النقدي
التحليلي تجلية لا تدع للناظر شكاً بأن لهذه الطائفة الطاهرة شأناً في الوجود غير شأن الانسان
العادي ، مما لا مشاحة في وجوب التسليم لهم بما يعزونه لانفسهم من انهم في عالم وسط بين
العالمين الانساني والملكوتي وانهم يشرفون على ما في الحضرة الروحية بخاصية وهبهم الله إياها
بالقطرة فيرون من أمر الملائكة الاعلى ما لا يرى الناس ، ويأتون لنا من ذلك الطريق بمعلومات
يقصر العلم ان يتوهمها توهماً فضلاً عن ان يطلع على شيء منها

يرى العالم العصرى السليم القطرة ان لا مناص من التسليم لهؤلاء الرسل كلهم بكل
ما عزوه لأنفسهم من المسكنات الروحية ، والمقامات الملكوية لانهم قالوا وبرهنوا ، وادعوا
واقاموا الدليل المحسوس

نعم يرى العالم العصرى ان يسلم لهؤلاء الرسل بشأنهم ولكن بدون تعصب لبعضهم
ضد بعض ، وما الموجب لهذا التعصب المستنرب ؟ كيف يسوغ لمن ينظر في تاريخ الانسان
هذا النظر المجرد عن الغرض المضل ان يؤمن بجميع الانبياء ويكفر بواحد منهم او باثنين مع

ان مثل الكل واحد ، والناموس الذى ساروا عليه في وظيفتهم واحد لم يتغير ؟
 اذا كان هذا التعصب في ذاته عجيباً ، فأعجب منه الهوى الذى يحمل بعض الناس على
 التكذيب بنبوة خاتمهم وامامهم محمد صلى الله عليه وسلم مع انه اقرب منهم الينا عهداً وأفعاله
 وأقواله وأحواله وسيرته محفوظة في الصدور والسطور تناقلتها الامم عن الامم من عهد مبعثه
 الى اليوم وهي حاصلة على كل الشروط التي تسمح لافسي أساليب الفلسفة الانتقادية ان تتناولها
 بحثاً وتنقيباً وقد بدى أمره صلى الله عليه وسلم عجيباً غريباً كما بدى أمر كل رسول ثم انتهى الى
 ان افرع وانتشر نوره شرقاً وغرباً وأحدث في الوجود تغييراً لم يحدثه أى رسول آخر ممن
 يحفظ التاريخ اسماءهم ، فهل يليق بالعائل ان يسلم برسالة كافة الرسل الا خاتمهم وهو على
 ما نصف لك من وضوح السيرة وقرب العهد وفخامة الآثار وجلالة الاعمال ؟ ألا ينجبل
 المكذب برسائله من ان يتهم نواميس الحكمة الوجودية وقوانين الحياة الانسانية بهذه التهمة
 البطلة ؟ هل عهد الناس ان الحكمة الالهية تؤيد المبطلين ، وتعلو رؤوسهم فوق الرؤس
 أجمعين ؟ هل عهد الناس ان الدلالة الالهية تنصر المدعين للرسالة ، وترفع من شأنهم حتى يسود
 دينهم على سائر الاديان وتبقى حجة قائمة للآن ؟

الله اكبر ! ان تشكك الانسان في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فبأى رسالة بعدها يصدق
 وبأى رسول غيره يؤمن ؟ هذا رسول ايدته الحوادث وشهدت له الوقائع ، واقام الوجود له
 من دلائل الشهود ما لا يسع العقل انكاره ، ولا يسوغ للبصيرة جحوده ، فبأى حيلة
 يجحده الجاحد ، وبأى جسارة يكذب به المكابر ؟

هذه مسألة حلها العلم المصري ، ولئن كان في الشرق والغرب للآن رجال لا يزالون
 جامدين على موروثات آبائهم ، وواقفين من امر الانسان والانسانية عموماً على ما وجدوا
 عليه اهل بلادهم ، فقد قضى العلم بان هذا تعصب لا يطول امدده ، وقد انقطع مدده ، وان
 العلم قد وصل بالعالم الى نقطة عرفه بها ان العالم الانساني عائلة واحدة يجمعها اصل واحد وهي
 وان كثر افرادها حتى توزعت في افطار شاسعة واصقاع متناثية الا انها لا تزال يجمعها
 ناموس واحد

هذه الامم التي تفرقت وتوزعت وانقطع الاتصال فيما بينها قروناً مستطيلة فظننت كل

منها انها قائمة بذاتها فكونت لنفسها اديانا خاصة سينتهى امرها كلها لان تتصل ببعضها اتصالاً
اخوياً بضرورة الاحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية . وقد ظهر امر هذا الاتصال
ولاحت بوادره ، فان الآلات البخارية والاجهزة الكهربائية جعلتنا نعرف عن احوال
اقصى بلاد الله في الساعة الواحدة ما لا كان يحلم آباؤنا ان يعرفوه في سنة . بل نحن اليوم
متصلين غاية الاتصال ببلاد لم تكن معروفة للعالم من قبل خمسمائة سنة

هذا الاتصال بين شعوب الارض سينتهى امره شيئاً فشيئاً لان يمحوا اختلافات الجنسية
والقومية والوطنية التي فرقت العالم الانساني لليوم وكانت سبباً لكل المنازعات التي حصلت
بين جميع افراده

هذا الاتصال يستدعى ان تقوم جميع الامم من الدين على عقيدة يرضى بها الناس
اجمعون ، ولا تكون سبباً لان يتشاكس عليها المتعاملون . هذا لا مناص منه لان حالة
التقرب بين الشعوب تولد الشعور به توليداً طبيعياً حتى انه لو لم يكن في العالم دين فيه هذه
الخاصية لأسس العالم ديناً من هذا القبيل ، فما بالك وهو موجود ، وقد شهد له الوجود ؟
قلنا ان الاحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية عاملة جاهدة في ربط الامم وايصالها
ببعضها ، وهل يمكن انكار هذه الحقيقة احد بعد ما يرى بينه ان التجارة وهي اخص
مظاهر الاحوال الاقتصادية اصبحت اكبر اسباب التعارف بين الامم شرقيها وغربيها ممتدنها
ومتوحشها ؟ وهل يتجاهل الناظر في الاحوال السياسية المصرية ما أحدثته من اختلاط
الامم ببعضها ان لم يكن طوعاً فكريها ، وهل يجمل انسان حق العلم في مساعدة تحقيق
هذه الغاية البعيدة وقد اصبحت بمعلوماته الحقة في التاريخ والعمران والفلسفة اكبر صقال للاذهان
المصرية يزيل عنها تلك الاغشية التعصبية التي ركبتها على مدارك البشر أولئك القادة الذين
تسلطوا على الشعوب آماداً طويلة فصوروا لهم الحياة بغير صورتها ومثلوا لهم الجمعية البشرية
تمثيلاً سافهم اليه الحقد والاثرة والتفريق

نعم جاء العلم فارى الناس عموماً معنى قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر
وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم » فبات محبو الخير العام
ينتظرون ذلك اليوم الذى يكسر فيه العلم تلك السدد الوراثية التي اقامها القادة في الاجيال

الماضية بين الأمم وأخواتها . في ذلك اليوم المنتظر يدرك الناس اجمعون معنى (الاسلام) ومعنى (خاتم النبيين) ويظهر من امر هذا الدين الالهي ما يشاء الله ان يظهر مما يكاد اللاحقون يساوون فيه السابقين والله في خلقه شؤون

قلنا ان الأمم كلها مسوقة بعوامل الامور الاقتصادية والسياسية والعلمية الى الوحدة سوقاً قسرياً لا يمكن إيقافه ، وقلنا ان هذه الحالة تولد فيها الشعور بوحدة العقيدة توليداً طبيعياً كما تشاهد بوادره الآن ، وقلنا ان ذلك الدين العام لم يكن موجوداً لا وجدته الشعور العام بحكم الضرورة ، ثم قلنا ان ذلك الدين موجود وهو الدين الاسلامي ، فإبرهاننا على ذلك نحن لاجل البرهنة على ان الاسلام جاء لتوحيد الأديان كلها وتخليصها من التعصبات التقليدية والفشوات الخرافية ، لانتكاف ان نسلك مسلك الجدول ، ونعمد الى اساليب الفلسفة ، لاننا نرى ان مجرد تذكر وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم كما وصف به نفسه ودعا الناس اليه ، يكفينا مؤونة كل جدل ويرينا رأى العين ان ديننا هو ذلك الدين الذي يساق البشر اليه سوقاً طبيعياً وسينتهي أمرهم اليه لا محالة (سنبريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد)

جاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم داعياً الثقلين الى دين الله الاقوم وناموسه الاعظم وهو توحيد الله وتنزيهه والوقوف بهذه العقيدة الالهية عند الحد الذي حددها الله به في المعنى الانساني فكل ظن وكل وهم وكل هاجس يخطر بالبال مما يميل به الانسان لتحديد صفات الله تعالى والحكم عليها بقضايا هذا العقل الناقص فهي مردودة على صاحبها ليست من الدين الحق في شيء ، لانها لو كانت من الحق لاهتدى الناس منها الى النقطة الجامعة ولما كانت سبب الخلاف والنزاع بين العالم . أليس افتراق العالم الى مآت من المذاهب في صور هذه العقيدة يدل على ان الجميع انما يفترون مقالاتهم من عالم الخيال والظن ؟ أليس يكفي مجرد هذا الافتراق على اعتقاد ان الداعي اليه (وهو توفيق العقل لتصوير الخالق وتكييفه في الذهن) ليس من الدين العام في شيء ؟ وكيف يكون من الدين العام ولم يفرق بين العالم في العقائد عامل اكبر منه .

لو وقف الانسان من العقيدة بالخالق في الحد الذي يشعر به في معناه الانساني وهو

اعتقاده ان لهذا الكون خالفا عظيما قويا حكيما عليما ، ولم يكلف نفسه البحث فيما وراء ذلك لما رأيت فرقا بين الابيض والاسود من الناس في شيء ، بل لرأيت عقيدة اعلم العلماء لا تفرق عن عقيدة اجهل الجهلاء من هذه الوجهة مطلقا

جاء النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الى هذه العقيدة القطرية ويطالب العقول بان تتخلص من الغواشي الوهمية التي غشاها بها قادة الاديان وهي الاساس الاول لتوحيد دين النوع الانساني ، لان النفوس متى لفظت تلك العقائد الوهمية التي اخترعها رؤساء المذاهب وزعموا انها وحى من الله اليهم استحال الناس الى تلك العقيدة الاولى القطرية التي هي واحدة عن جميع افراد النوع الانساني . ومتى استحالوا الى هذه النقطة استقامت كل عقائدهم الاخرى واعتدلت جميع افراطاتهم وتقربطاتهم من ذاتها ، كأن التوحيد حصن الروح ، وموئل المواطنين العقل متى وصل اليه الانسان تأدت قواه ومواهبه الى جانب الامان الالهي ، والسلام الصمداني

ألم تر ان العرب لم يكن بينهم وهم في الجاهلية الجهلاء ، والفتن الصماء ، وبين ما آلوا اليه بعد اسلامهم من المكنات العلى ، والمقامات الكريمة ، الا ان يصلوا لدرجة التوحيد والتنزيه على الاسلوب القرآني والتعليم المحمدي ؟ لا غرابة ان رأينا هذا الانتقال الفجائي الباهر من جاهلية جهلاء الى ملكية علياء ، فقلنا لا بد من ان يكون لعقيدة التوحيد والتنزيه يد قوية في احداثه ، ولا عجب بعد ذلك ان بذلنا الجهد في التحسس من هذا السر الكبير ، والا كسير الشافي (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)

نعم ان عقيدة التوحيد والتنزيه تحمل للنفس الانسانية روحاً من الادب لا يقدر على الايمان بمثلها غيرها مما يتخيله البشر ، ذلك لان هذه العقيدة تؤثر على كل قوة من قوى النفس تأثيراً مناسباً لها من الجهة الخاصة بها فتقيمها على صراطها العدل اقامة تحير شيوخ الفلسفة وتعجز اساة الاخلاق ، وان تصنع الى احداثك بطرف من هذا الباب يهديك لشيء من عجائب هذا السر

العقيدة بوجود الخالق أول العقائد التي تولدت بالقطرة في نفس الانسان ، فان شئت فقل انها لازم من لوازم معناه ، وان شئت فقل انها صفة من صفات جوهره ، وان

شئت فقل أنها شعور روحاني حملته روحه معها من عالمها . هذه العقيدة هي أعطف شيء عليه في مصائبه واخني آس عليه في نوازله ، يعتصم بها في مخاوفه ، ويلتجئ إليها في معاطبه ، ويستسهل بها صعوبات الحياة ومرارات العيش ، ويموت بها مرتاحاً قريحاً العين لتيقنه ان يداً تنظره لتحمله الى عالم أرق من هذا العالم ، وقدرة تحتف به تحفظه من عادات الفناء وجائحات الغدم . تأمل في أمر هذه العقيدة التي تمس أخص جهة من جهات حياة الانسان ، وتدبر بأمعان في شعوبها وفنونها السارية من سائر عواطف النفس مسرى الكهرباء في أسلاكها والاشعة على ذرات اثيرها ، ثم دع هذا العالم الباطني واستجلب هيكل الانسان الظاهري تر قوى النظر والشم واللمس والذوق والحس مستخدمة ومسخرة لهذه العقيدة ايضاً ، فما مناظر هذا الجمال التكويني وبدائع هذا العالم الحسى مما يؤثر على كل حاسة من جهة قابليتها الاثيرات لهذه العقيدة موقظات لزيادة الشعور بها . تأمل هذا بامعان بامعان ثم تيقن ان كل تغيير يحصل في العقيدة بالله مهما كان صغيراً يقع من هذه المشاعر الباطنة والظاهرة موقفاً يناسبه ، وينزل منها منزلة تلائمها فان كان هذا التغيير في الجهة التي تقويها قويت كل قوى نفسه على حسب جهة تلك القوة ، وان كان في الجهة تضعفها ضعفت كل تلك القوى ضعفاً مناسباً . ونحن لا نغنى هنا بالقوة والضعف ما يعطيهما اللفظان على اطلاقهما ، وانما هما قوة وضعف معنويان يدرهما كل من يشعر بقوى ذاته

علمنا مما مر ان العقيدة بالخالق جل شأنه مسئولية على سائر عواطف النفس وقواها استيلاء تاماً بحيث انها تعتبر المصرفة المدبرة لتلك العواطف والقوى على ما يناسبها ويلائمها ، وعلمنا تبعاً لهذا ان كل تغير وتحوير يحصل في تلك العقيدة يؤثر على تلك العواطف والقوى تأثيراً خاصاً على أشكال لا تحصى ولا تعد

ونحن هنا قبل ان ندرس الادب الالهي الذي تهيه عقيدة التوحيد والتنزيه لنفس الانسان وجميع قواها يحسن بنا ان نورد هنا صورة موجزة من الآثار التي تحدثها عقيدة وجود الخالق على عواطف الانسان لنعرف بالحس كنهه تسلطها عليها جميعاً ترشيداً لا دراك كنه ذلك الادب الالهي الذي تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه عليها فنقول :

القلب يشعر بوجود خالق لهذا الكون البديع اقامه على هذا السميت المدهش ، فتهتز

في العقل عاطفة تعطفه لان يتعقله ويدركه ، فيستعين بالفكر في ايتائه تلك الانشودة فيجول صاحبنا الفكر في فيافي التصورات فيعتضد بالخيال في شطحاته فيليبه خياله بنشاط بعد ان يعد كافة جنوده المعنوية ، فتثور في داخلية الانسان ثورة تيقظ لها سائر عواطف النفس وقواها لان الموضوع ماس بها من أخص جهاتها ، فتهب الحواس الخارجية ايضاً من سباتها ، فتنتظر العين الى ابعد مدى تصل اليه فاذا كلت وحسرت تركت ما بعد قواها لجياد التصور والفكر فاذا عجز ادعوا الخيال لينفذ الى حيث لم يصل اليه ، وهكذا حتى يصل الانسان لتصوير خالقه بأكل صورة يشعرها ويهبه من الصفات اكل ما يدرك انه كمال . فاذا ارتقى عقله درجة ادرك انه وصف آلهه وصوره بما لا يحسن فيصلح من خطئه ، ثم يرتقي عن ذلك ايضاً فيرجع للتغيير والتحوير . وهذا ما ترباه فلسفة التاريخ في جميع اطوار النوع الانساني . وليس هذا موضوع بحثنا فانا انما نريد ان نصور لقارئنا صورة موجزة من صور انفعال قوى النفس وعواطفها لتأثيرات العقيدة بوجود الخالق توطئة لادراك كنه ذلك الادب الالهي الذي تهيه عقيدة التوحيد والتنزيه على سائر تلك القوى والمواطف

(الادب الذي تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه على المسلم)

لا ينكر علينا اليوم احد ان العرب بعد ان كانوا من الجاهلية على حال من الخلل الاجتماعي والخلقي لم يتمكنهم من الصعود في مراقي العمران درجة واحدة ، اصبحوا فجأة بواسطة الروح التي بعث الله بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أمة دانت لها الامم طوعاً وكرهاً وآلت اليها خلافة الله في الارض قروناً طويلة كانت في خلالها حاملة لواء العدل والعلم والحرية والمساواة والرقى الصوري والمعنوي باخص معانيهما

اذا تقرر هذا فلا مناص من التسليم بان لهذا الرقي الفجائي سرّاً كبيراً اتاهم من تلك الروح الكاملة العالية التي تنزلت عليهم ، وما تنزلت عليهم تلك الروح الا لما استنزلوها بما أشربوه من عقائد وخصال . من هنا كان البحث في اسرار عقائد الاسلام هو الطريق الصحيح المؤدى الى ادراك تركيب ذلك الاكسير المحمدي الطاهر ، ولما كان التوحيد والتنزيه هما اكبر ما جاء النبي صلى الله عليه وسلم لتقريره للعالم الانساني ، فلا شك في انهما القانون الجامع لاسرار ذلك الاكسير كاه ، او انهما العنصران النعاليان فيه من بين سائر عناصره الاخرى

التي هي بمثابة المساعدات لفعله ، العائلات على أثره . وها نحن شارعون في بحث هذا الموضوع الجلل على الأسلوب التحليلي والله ولي المؤمنين

التوحيد هو أن توحيد الله في ذاته وصفاته وفعاله . ومعنى ذلك في اصطلاح المتكلمين كما جاء في كليات أبي البقاء « ان للتوحيد ثلاث مراتب : مرتبة (توحيد الذات) وهو مقام الاستهلاك والقضاء في الله فلا موجود الا الله . ومرتبة (توحيد الصفات) وهو أن يرى كل قدرة متفرقة في قدرته الشاملة ، وكل علم مضمجلا في علمه الكامل ، بل يرى كل كمال لمعة من عكوس انوار كماله . ومرتبة (توحيد الافعال) وهو ان يتحقق بعلم اليقين او بعين اليقين او بحق اليقين أن لا مؤثر في الوجود الا الله . » انتهى

وأما التنزيه فهو أن تنزهه سبحانه وتعالى عن مشابهة الخلق ، وان تبتأ من كل ما يحيش بصدرك من الميل الى تكييفه وتصويره ، وان تسد نافذة الخيال في مجال التفكير فيه ، وان تعتمد قلبا وقلبا بأنه الحى القيوم اللطيف الخبير « ليس كمثله شيء » « يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار » وان كل سعى تبذله في تصوره بصورة ، وكل جهد تعمله في الوقوف له على ماهية او كيفية او كمية ضائع سدى وذاهب عبثا ، وان تجزم جزما لا تردد فيه ان (كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك)

لهاتين العقيدتين اثر على نفس معتقدهما من جهة التأديب النفساني والتكميل الخلقى لا يدرك خطارته الا من اشرفت عليه لمعة من نوره ، وحفت به نفحة من جلاله فهما اكسيران إلهيان ، وروحان سماويتان ، تنزلان من النفس الانسانية منزلة الشمس من سمائها فتطرد من دياجير الرعونات البشرية ، وتزيل من ادران المقتضيات السفلية ، ما لا تستقل بوصفه الافلام ، ولا تتطلع لمداها الافهام ، كما سترى له شيئا من التفصيل . قلت ان لهاتين العقيدتين اثرا على نفس المعتقد بهما ، وأريد بالمعتقد من يدل عليه اللفظ بمعناه الصحيح ، لا من ألصق نفسه بالعقيدة وادعاها ، فان اصل معنى (اعتقد الشيء) صدقه وعقد عليه قلبه وضميره . وقد تسامح الناس في هذا المعنى حتى اطلقوه على الذين يتوهمون انهم معتقدون وما هم كذلك في الواقع ، وما هم الا قوم ورثوا عن آباءهم تلك العقيدتين بعد ان طال على آباءهم الامد ونسوا حفظا مما ذكروا به ، فاخذوها عنهم لفظا مجردا ، وحشروا انفسهم بذلك في مصاف اهل التوحيد والتنزيه

اسما، ثم تركوا انفسهم عملا وفعل لا هوأهم واهواء آبائهم من قبلهم مما ينافي بينك العقيدتين ويجافيهما، وسموا ذلك ديناً لهم جروا عليه احقابا وقرونا فحمدوا عليه جمود الانسان على صفاته الموروثة، وعاداته المألوفة، فان نبههم الى ذلك مستشكل قابله بحشو من التأويلات وقذفوه بسيل من القياسات والتشبيهات، حتى يفحموه او يهجرروه. وليس هذا بسدع في اصحاب العقائد بل هو مقتلهم الوحيد، وجهة ضعفهم التي يتسرب منها اليهم التشييت والتبديد « وما ربك بظلام للعبيد »

نريد بالمعتقد بهاتين العقيدتين من عقد لهما قلبه، ووقف عليهما عقله ولبه، فسرت انوارهما في اعماق سرائره، ونفذت سيالاتهما المحيية الى طويات ضمائره، وبات وهما ادخل في نفسه من نفسه، والصق بمعناه من حسه

لا جرم ان المعتقد على هذه الصورة يحس في نفسه آداباً عظاماً، ويأنس من ذاته سجايا فخاماً، تنشأ فيه نشوءاً طبيعياً، وتنبع من جوهره نبوعاً ذاتياً، فلا يلبث ان يكون فاضلاً وهو لا يدري معنى الفاضل في عرف الحكمة الاخلاقية، ويصبح حكيماً وهو لا يدرك تحديد الحكمة في الاصطلاحات الفلسفية. وهل بغير هذا البيان يستطيع الباحث ان يفسر سرعة تطور العرب من الجاهلية الجلاء، الى المدنية الادبية العليا في اقل من ربع قرن؟ وهي مدة لو كانوا قلبوا البيوت فيها مدارس وأتوا للعرب بكبار فلاسفة الرومان واليونان والفرس فما كانوا يستطيعون ان يطلبوا ما كانوا مفرمين به من شرب الخمر، وهو اقل مصائبهم خطراً، فما بالك بتلك القوة التي كرهتهم (بدون مدارس ولا فلاسفة) في الخمر والميسر وطلب الثار وحب الانتقام والغارات والانقسامات والتفاخر بالآباء وعدم المساواة وهضم حقوق النساء ودفن البنات احياء الخ من المصائب الاجتماعية، والبلايا الاخلاقية. ثم ان اضيفت لهذا ما تلاه من رقيهم السريع وقيامهم بخلافة الله في الارض قياماً أدهش الحكماء، وحير العرفاء، وارغم معاطس العقاة، وطأطأ جباه المتألهين الجفاة، وهم شرذمة معدودة، وآحاد محدودة لعلمت ان هذه قوة القوى وان الباعث لها من العقائد لا بد من ان يكون ناموسها الاكبر وملاكها الاعظم

أنا هنا لا اريد ان اسوق البراهين الطبيعية الدالة على وحدانية الله تعالى وتنزهه عما

يشاكل مخلوقاته ، وعلوه على كل ما يخطر ببال أحد من عباده ، فان السكون بجملته وتفصيله يدل على هاتين العقيدتين دلالة لا تحتاج لاحالة نظر ، واعمال فكر ، انما الذى اريده هو ان اشرح ذلك الادب الالهى الذى تفيضه تانك العقيدتان على المعنى الانسانى فتقلبه انساناً سويًا على مقتضى القالب القطري والنموذج الالهى بدون علاج من كتب الاخلاق ، ولا رياضة من قانون الفلاسفة ، ولو كنت واثقا من صحة وجود اكسير الكيمياء الذى يقال انه يقلب المعادن ذهباً ، لقلت ان هاتين العقيدتين تشبهانه من حيث استيلائها على جوهر الانسان ونفي التلونات العارضة عنه ، وسبكه سبكا جديداً على مقتضى قانون ليس فى قدرة العقل الحوم حول تفاصيله .

من وحد الله فقد اعتقد ان « لا اله الا الله » ومن اعتقد ذلك رسخت فى ضميره عقائد تتبعها وانجالت عنه اوهام لا تنفق معها . اما ما يرسخ فى ضميره من العقائد التى تتبعها فتيقنه بان لا معبود الا الله ، ولا محيى الا الله ، ولا مميت الا الله ، ولا رازق الا الله ولا حارم الا الله ، ولا نافع الا الله ، ولا ضار الا الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، وان لو اجتمعت الانس والجن على ان ينالوا احداً بخير فلن يستطيعوا ذلك الا باذن الله وتقدير الله ، وان اجمعوا على ان يصيبوه بشر فلن يطيقوه الا بقضاء الله وحكم الله ، وان كل ما دون الله وجود حائل ، وظل زائل ، وما يشاهد من افعال الناس وحركاتهم مما ينسبه قصر النظر اليهم ، فهي نسبة مجازية ، وامور اصطلاحية . اما هم فى الحقيقة فآلات منفعة ، وحوادث متصرفة ، لا يملكون لانفسهم نفعا ولا كسبا ، ولا يستطيعون لغيرهم شراً ولا ضراً ، مملوكون لقدرة لا تحمد بحمد ، ولا تقاس بعدد ، فما مثل الملوك فى ابيتها وتعاضلها ، والقادة فى تكبرها وتفشمرها أمام هذه القدرة المحيطة بالاكوان ، التى لا تحدها الاذهان ، الاكمل الضعفاء فى مسكنها ، والبسطاء فى خيالها وعجزها

لو عقد الانسان فؤاده وعقله على هذه العقيدة ، وابعد عنه شياطين التأويلات وبالسة التحريفات ، نزلت على فؤاده من عالم الكمال الالهى صفات عالية ، وخصائص سامية ، تستدعيها الحالة التى آلت اليها ذلك الفؤاد من التجرد والصفاء كما يستدعى المألوم لازمه ، وكما يطلب الموصوف صفته ؛ واول ما يهب عليه من عالم النفحات القدسية عاطفة الاستقلال والحرية ،

تنزل عليه هذه العاطفة من اعتقاده ان لا معبود ولا نافع ولا ضار ولا رازق الا الله وان لا حول ولا قوة الا بالله ، فيحس انه والكل سواء فما الملوك في قصورها ، والكبراء في ثروتها ورياشها الا مثله مربوبون مملوكون لا يملكون لانفسهم حياة ولا نفعا ، فيسقط من ذهنه صنم الوهم الذي يخيفه منهم ، ويدعو للتحكك بهم ، لثقتهم انهم آلات منفعة لقوة الله وتأثيره ، واشباح تروح وتبجى بأمر الله وتسخره ، فيرى انه حر ليس لأحد عليه سلطان ، في أي أمر كان ، وانه والعالمين في مستوى واحد من حق الوجود ليس لأحد عليه ميزة في الحقوق الانسانية ، وان القانون الذي يجب ان يشملهم هو وجميع أفراد نوعه هو قانون العدل والمساواة ، لا قانون التمايز والمحاباة ، ويتحقق ان ما طرأ على العالم من مصيبة الخضوع للقادة المطلقين والسادة القاهرين الجبارين ، هو تسامح الناس في حقوقهم الشخصية وخضوعهم لقوتهم الوهمية التي تربهم ان قادتهم من طينة أرقى من طينتهم ، فتراه مسوقاً سوقاً اضطرارياً لان لا يسلم بتحكم روح على روحه ولا بعدوان أحد على حقوقه ، فلا يرضخ لمسيطر يميل لتسخره في أهوائه ، وتصريفه في شهواته . هذه الروح المستقلة تدفعه بطبعها لمعاداة كل من يعارضها من بني نوعه سواء كانوا من المدعين للوصاية الروحية ، الملتصقين بالوظائف الدينية . او من الذين يريدون اغتصاب السلطة الدنيوية ، وصرف الامة الى أحكامهم الاستبدادية ، فهو من هذه الجهة من أعداء المتألهين ، واشد اضداد المستبدين ، من أي قبيل كانوا وبأي صبغة ظهروا ، فلا تذله ما يبذله الملوك من كواذب الالقاب ، وجواذب الوسامات ، ولا تأسره ما يأتيه به مدعو السلطة الروحية من فواتن الاوهام ، وخوادم الاحلام ، لما يرى فيها من العدوان على استقلاله ، والذهاب بحريته وكماله .

تخيل أمة يكثر في آحادها الموحدون الصادقون ثم انظر كيف تقدم فيها تانك السلطان الضارتان ، سلطة الملوك المطلقين ، وسلطة الرؤساء الدينيين ، وهما السلطانان اللتان نخرتا عظم الانسانية ، وبلغتا من هضم حقوقها الى زعم ان لا وجود لهما مع وجود رؤسائها ، وان حياتها فانية في حياتهم .

نعم تعتمد هاتان السلطانان وينعدم معها ما يتبعها من نقض في نظمات الحكومة ، وجور في قوانينها ، وامتيازات بين رعاياها ، واستئثار من طائفة منها بالسلطة الروحية ، مدعية حق

الهيمنة على ارواحها وعقائدها ، مما دعا ويدعو الى امور تستنز العواطف الساكنة ، وتوقظ
الفن الثائمة ، وتجر الى كراهية السلطة ومجافاة الدين بالكلية هربا من اولئك المغتصبين ،
وحالة العالم كله شاهد بما نقول

هذا وحده اثر عاطفة الاستقلال التي يشعر بها الموحدون بحكم عقيدتهم ، وأعظم به
من اثر . اما ما ينشأ عن التوحيد من عواطف اخري فما لا يستقل باستيفائه كتاب ، كماطفة
الشم وكبر الفؤاد التي تنتج من اعتقاد الموحد وتيقنه بان لا رازق ولا حارم الا الله فتراد
ابي الفؤاد عزوف النفس لا يداهن للملوك ولا للاسراء ، ولا يتقرب الى الاغنياء ، لتيقنه ان
الذي اعطاهم قادر على ان يعطيه اضعاف ما عندهم ، ان اراده لذلك ووفقه له ، فان هم به خاطر
رغبة الى الصمود لتلك المراكز الدنيوية وجه وجهه شطر من يده الاعطاء والمنع راغبا اليه
ان يهبه من القوة والاهلية ، وان يوقظ في ذاته من عوامل النجاح في مراميه القصية ،
ما يذلل به صعاب الحوائل ، ويسنى له منال الوسائل ، فان نال مناه ، وبلغ مداه زاد بالحق
يقينا ، وفي مذهبه تمكينا ، وان اخفق سعيه ، واكدى جهده ، اتهم الوسائل التي استعملها ،
واستقل القوى التي بذلها ، فزاد في وسائله تكميلا ، وامتد قواه تشييطا ، حتى يبلغ ما قدر له
وهو على الهمة ، كبير الفؤاد لم يلق به الجهل الى مداحض الذلة ، ولم يدهوره الطمع
الى مزاق الحسة .

تخيّل امة يكثر فيها امثال هؤلاء الموحدين ترها افخم مظهرا ، واكبر غنبرا من
اية امة عصرية ممن وقرت في نفوس آحادها عاطفة الاعتماد على النفس والثقة بالذات
كالانجليز والالمان والامريكان مثلا فان هذه الامم استمدت هاته العاطفة من النظر في
نواميس الحياة نظرا مقصورا عليها اما اولئك الافراد فتنزلت عليهم هذه العاطفة من جانب
الكمال الالهى الاقدس ، فلا جرم ان الثائت هذه العاطفة لدى الامم العصرية بشي من
النقص والجور والشره والمزاحمات الجنونية القائلة لكثير من العواطف القلبية ، ولا غرو ان
نشأت سمائم القوضويون والمدميون وغيرهم . اما الاولون فتراهم مع تمتعهم بتلك العاطفة
عاطفة الشم وكبر الفؤاد مترامحين متعاطفين ، جمعهم الحياة برباط من حب خالص وود
وثيق العرى لاتحاد وجهتهم في طلب الكمال الالهى ، لا اقيام امرهم على النفع الدنيوى .

هؤلاء لا يتزهون عن امراض المجتمعات الحية فتصيبهم لقحات من التنافس على اعراض الحياة ، وفواتن السلطة والجاه ولكنك مع ذلك لاتعدم فيهم تلك الارحية للرحمة ، وذلك الميل للتصافي والحب ، فلا يضع بينهم فقير ولا يهضم لديهم حق ضعيف ، وان ضاع فقيرهم او هضم حق ضعيفهم ، فهما ضياع وهضم يعدان رحمة اذا قيسا بما يصيب ضعفاء سواهم من الامم التي فيها عاطفة الاعتماد على الذات مرتكزة على قوانين الحياة الحيوانية

هذا كله ولا تنس عاطفة الشجاعة والعزة التي هي من اخص صفات الموحدين وهي تنبع في افئدتهم من اعتقادهم انه لا ينفع ولا يضر الا الله . نعم متى اعتقد الانسان ان الانس والجن لن يصلوا اليه باذى لو حماه الله ، وانهم لن يصيبوه بحسنة الا اذا بعثهم الله ، سقط من عينه كل صنم يقيمه الوهم في ذهنه ، فتراه لا يخشى الا الله ولا يرجو الا الله ، ولن يموت الا اذا امانه الله ، وهذا موقف قد أمر به الله ، فما الذي يؤخره عنه غير جيئات الوهم ، وسطوات الجبن ؟ هذا تفصيل موجز لبعض الخصال الكريمة التي تنشأ من عقيدة التوحيد نشوءاً طبيعياً ولا احيالك في نظر ذلك بالحس الا على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم وحدهم المثال الكامل الذي يليق ان يتخذ حجة محسوسة على ما نقول

من هنا ترى ان عقيدة التوحيد تهب على الروح الانسانية بأدب الهى يقيم الشخص على صراط الحق ويبعثه للسير فيه بمتأ ذاتياً ، ويحليه من الصفات الصالحة لعارضة الأرض وحماية الجامعة بخلائق تعجز عنها التربية وتعيها دونها أساليب التقويم والتهذيب المعروفة .

هذا الأدب لا يقتصر على تأدية الانسان لارقي مظاهر الكمال الدنيوى فقط بل يؤدبه لاسمى منصات الرقى الروحاني ايضاً ، لان الروح الانسانية لا يحجبها عن مشاركة عالمها الذي نزلت منه ، ولا يمتنعها عن المتاع بحال مشاهد ومعاهده الا ما استدعاه هذا الجسم من صفات الحيوانية ، ولوازم الحياة البهيمية . هذه الصفات واللازم التي اكتسبها الانسان بتلبسه بهذه المادة كالهلع والجزع ، والبخل والشح ، والخوف والجبن ، والحسد والحقد ، وغير ذلك من الصفات الذميمة المستوعبة لحيوية اكثر الناس والمستولية على مجموع همهم والمناعة لهم عن السكون الى ذاتهم ، والطمانينة الى ارواحهم سببها نقص ايمانهم بالخالق الحق ، فان الهلع والجزع صفتان معناهما اظهار الحزن من فقد الصبر عند المصيبة ، وقيل

هما بمعنى وقيل ان اهل علم فحش الجزع ، فهاتان الصفتان ليستا من صفات الكاملين قال تعالى « ان الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا الا المصلين ، الآية . » وكذلك البخل والشح والحقد والحسد والخوف والجبن صفات خسية لا تحل الا قلوبا جاهلة خلت من الايمان السكامل لأن مدارها كلها على الشؤون السافلة ، والامور المنحطة ، ومن كان يؤمن بالله ايمانا كاملا ويرى انه الفاعل الحق والمؤثر الفرد ، فلا يحقد ولا يحسد ولا يخاف ولا يجبن ، ولا يشح ولا يبخل ، فيخلو فكره من الجولان في هذه الصفات وما يلازمها ومتى خلا فكر الانسان من الرتوع في قدر هذه الصفات الخسية وتوابعها التي يقضى فيها ناقصو الايمان اعمارهم الثمينة جال بطبعه في عالم الحقائق وسلك من باحاتها طرقا سلكها قبله الانبياء والصالحون فيمر في اثناء سيره على عوالم الجمال والكمال بطريقة طبيعية لا صناعية فنزداد علاقته بالعالم الروحاني متانة ، ويزداد الاتصال بينه وبين حقائقه احكاما فيرتقى فيه ارتقاء تدريجيا كما يرتقى جسمه في عالم المادة فتكون روحه في عالم القدس تتلى وتمتع ، وجسمه في عالم الحس يكافح ويجاهد كما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه وكافة المرسلين والصدّيقين مع اختلاف في الرتب وتباين في الهمم كما لا يخفى

من هنا يرى قارئنا ان (لا اله الا الله مفتاح السموات والارض) كما جاء في الخبر النبوي ، فهي مفتاح السموات لأنها تؤدي الشخص الى الكمال الروحاني في ابدع مجاليه ومعانيه ، وهي مفتاح الارض لأنها اقوى عامل كما رأيت لتربية ملكاته ، وتهذيب مواهبه وتأديته الى ارقى مظاهر من مظاهر الحياة الارضية .

اما عقيدة التنزيه وهي اعتقاد ان الخالق اعلا من ان يحده بحد أو يصور بصورة ذهنية ، فآثرها على النفس من اكبر الآثار واعجبها ايضا واليك شيئا من التفصيل

قلنا ان الانسان منطور على العقيدة بالخالق جل وعز لمساسها بحياته الشخصية وعواطف فؤاده الداخلية ، وقلنا ان هذه المسئلة مستولية على سائر مشاعره واحساساته استيلاء غير محدود فمقله وفكره وخياله وذاكرته مسخرة لها مشغولة بها شغلا يعرف بعض آثاره من احوال الاعم قديمها وحديثها ، وان مسالة هذا شأنها من التسلط على فؤاد الانسان خليقة بان تقف في مهب فكره ، وتكون دائما حيال خياله ، ولا عجب بعد ذلك ان شطح الانسان

بمدركاته فيها شطحا استنفد فيه وسع الخيال ، وجاوز به حدود الاعتدال ، ولا غرو بعد ذلك ان اصبح لكل امة في صفات الله تعالى وذاته كلاماً ينافي كلام جاراتها ، ولما اذا لاتكون هذه العقيدة بعد ذلك تابعة لنمو المدارك وسعة العقل ، فيصلح اللاحق غلط السابق ، وينقح الابناء ما تسامح في اعتقاده الآباء وينتهي الحال بالناس الى النظر لاصحاب الاديان نظراً للمحرفين المؤولين ، المتذبذبين المتلاعيين ، ولهم الحق في هذا النظر

جاء الاسلام ساداً هذين البابين الهائلين باب الفكر في ذات الله وباب اعمال الخيال في ادراكه ، مقرر ان كل ما خطر ببالك فائتة بخلاف ذلك ، منذراً بالهلاك والثبور كل من يتجارى على التطفل على الحوم حول هذا الحمى المنيع ، او التطلع لا اكتشاف هذا السر العزيز لانه ليس من اختصاص هذا العقل العادي الوصول اليه ، والاشراف عليه . الا تري ان هذا العقل يرقى كل يوم نحو الكمال ، فلو اطلقنا للعقل حريته في الفكر في ذات الله وشؤونه العالية وسمحنا للخيال ان يأخذ حظه من هذه المجالات السامية ، اصبحت عقائد الدين كمقائد العلم عرضة في كل جيل للتحويل والتغيير ، وكفى بهذا مسقطاً لمهابتها من نفوس الآخذين بها ، ولو تركت بلا تحويل ولا تغيير لكانت بنفسها ادل الادلة على انها افكار بشرية ، وخيالات ذهنية ، صورها الجهل ، وزينتها الاهواء ، ولأصبحت بذلك في واد وعقول اتباعها في واد آخر ، اذ يستحيل على الانسان ان يعتقد ما لا يعقل او يحترم ما يجزم انه وهم باطل وخيال من الحقيقة عاطل ، كما هو حال اتباع اكثر اصحاب الاديان اليوم .

قلنا ان عقيدة وجود الخالق امس ما يمس حياة الانسان الشخصية فهو يبحث عن صانعه الحكيم طلباً للطمانينة على ذاته ، وغيره على حياته ، لانه لا يستطيع ان يدرك له وجوداً ابدياً ، ولا حياة فيها جزاء عادل على الحسنات والسيئات ولا ناموساً عادلاً سائداً على الكون والكائنات حفيظاً عليها ، ومرافقاً لحركاتها وسكناتها ، ولا قدرة شاملة وحكمة كاملة وضمت هذا الكون على قواعد الحكمة وحسن التقدير ، الا باعتقاد وجود ذات اولية متمتعة بكل الكمال ، ومتصفة باقصى ما يمكن من صفات الجلال . ثم قلنا ان هذه العقيدة لما كانت امس العقائد بحياة الانسان فهي اكثر مدركاته تسلطاً على مداركه ومشاعره وقواه ، ثم قلنا وان مسألة هذا شأنها من التسلط على فؤاد الانسان خليقة بان تقف في مهبط فكره وتكون

دائما في مضطرب خياله ، ولا عجب بعد ذلك ان شطط الانسان فيها بمدركاته شطحا استنفد فيه وسع الخيال ، وجاوز به حدود الاعتدال . ثم قلنا بعد ذلك جاء الاسلام فسد باب الفكر وباب الخيال دون هذه العقيدة ، وحال بين شهوات العقل وبينها حيلولة لا يصح اسلامه الا بها فكيف يمكنه الصبر على هذا الفصل بينه وبين اكبر شئ يؤثر على فكره وخياله ؟ نقول ان الذي يصبره على ذلك ويثبتته فيه هو ما يشعره بسببه من الكمال المعنوي الحقيقي الذي ينبع في فؤاده ، والنور الذي يشرق على سرائره فيملأه سعادة وغبطة . والانسان مغرم بالكمال ، ومشغوف بالنور والسعادة . واذا أردت معرفة طرف من ماهية تلك اللذة وكيفية نشوءها فإليك :

الانسان ما انساق الى الفكر في ذات الله والطيران في اجواء الخيال في تحديد صفاته وشؤونه الا بما يجده من اللذة المعنوية في ذاته من جراء التحسس على علم ما لم يعلم ولو وهما . وقد عودنا انه متى عدم الحقيقة ولذتها قنع بالخيال وتلهم به وربما غلا فقهر نفسه على اعتبار خياله حقيقة ، وهو يعرف هذا الضعف من نفسه ولا ينكره .

كل منا يشعر بلذة العلم الذي يمس مصلحته من اى جهة كانت فتراه يرتاح لسماعه او لاستنباطه ومتى حصل له منه شئ طار به فرحا وترنح له عجبا واودعه في صميم فؤاده ، لاسيما لو كان ذلك العلم ماسا بما يشعره من الحاجة الدينية وما يرمي اليه من المقاصد الروحية ، وقد تحمل هذه اللذة بعض الناس على هجر اهله وبلده اكتفاء بها عن كل محبوب ، وتفضيلا لها على كل مأوف .

ما منا احد الا وقد شعر بهذه اللذة العالمية سواء كانت فيما يتعلق بمصالحه الدنيوية او بمراميه الدينية ومطالبه الروحية ، وهو امر معقول لدى الكافة لا يتردد في حصوله احد لأن اللذة نتيجة سبب معلوم وهو العلم ، ولكن ادعأونا حدوث لذة ونور وسعادة بمحض صدقوى الفكر والخيال عن الجولان في موضوع العقيدة وبمجرد القناعة بها كما هي بدون تحديد ولا تعريف ، امر لا يسلم لنا الا بدليل منير .

نقول اذا كان سبب اللذة المعروفة لنا هو العلم فان عقيدة التنزيه اكبر درجة ممكن ان يبلغها الفكر البشرى من درجات العلم ، فلا عجب ان كانت لذتها اكبر لذة معروفة عند البشر .

اما كونها اكبر درجة من درجات العلم البشري فلائها تتعاق بصفات الخالق الاقدس من
جهة كونها صفات غير محدودة ، وكالات غير محصورة وان اردت ان تعرف كيف ان التنزيه
اكبر العلم فاليك :

قلنا ان التنزيه هو ان تنزه الخالق عن كل ما يشاكل خلقه وان تعتقد ان كل ما خطر
بالك فهو بخلاف ذلك . ولما كان الفكر والخيال عاملين دائيين وراء استكناه المجاهيل
واستنباط المساتير ، باعثن للعقل على مجاراتهما في تجوالهما فسيانك من جهة هذه العقيدة
بمحصول وبخثانك على اعتقاده فان كنت غير مسلم فرحت بنتيجة كدها واعتقدت ما اتياك به
من العلم حتي ينهك منبه على ضلالك او يرتقي فكرك وخيالك درجة فيهدمان من ذاكرتك
ما بنياه اولاً ويقيان لك عقيدة جديدة وهلم جرا ، او يجمدان بك على عقيدة راسخة رسمية
من قبل الطائفة المسيطرة فلا تستطيع ان تعداها وهما وان كنت قد فقها فعلا . واما ان
كنت مسلماً منزها عاملاً بواجب التوحيد والتنزيه وافقاً بقواك العقلية موافقها الحقة على
حسب التعليم القرآني يحصل بينك وبين تلك القوى الادراكية فيك ثورة داخلية يكون
نتيجتها من العلم العالي ما يحبيك ويسعدك . ولاجل تجلية عقيدة التنزيه كما هي في جلالها ،
وتصوير ما يحدث في المعنى الانساني من الاخذ والرد فيها حتى يطمئن الضمير على حقيقتها
نصف لك هيئة المناظرة التي تحصل بين القوى النفسية في سر الانسان :

(العقل) انا نعتقد بوجود الخالق سبحانه وتعالى ولكن ما هو وكيف صفته ؟

(الفكر) لقد سألت عما يجب ان يسأل عنه وسأبذل لك اقصى قواي في الاشراف

بك على احسن ما تتوق اليه ، وساعتضد بالخيال

(الخيال) لبيك وسعديك اني معك حيثما تذهب فان عجزت عن الطيران بمقتضى

طبعك طرت وحدي وصدقتك فيما احدث

(عقيدة التنزيه) كفوا عن هذا الجدال فانتم ومن في الارض والسموات جميعاً اقل

من ان تصلوا الى الله من هذا الطريق طريق المشاعر الحسية ، والعوامل الجسدية ، فان

سلطانكم مقصور على عالم الشهادة واشيائه وليس الله تعالى بما يشابهه او يشاكله حتى تقدروا

على الوصول اليه من هذا المسلك

(العقل) وما هو اذن وكيف الوصول اليه ؟

(عقيدة التنزيه) هو اكبر من ان يحيط الوهم بسرادات كماله واعلا من ان يصعد التصور الى معارج مجده وعلائه ، قدرة لا تحد بحد وحكمة لا تنتهي لغاية ورحمة دونها كل نهاية ، وصفات كمال لو أردت تصورها بهذا الفكر القاصر فان تصل لشيء منها لان فكرك مصوغ على قالب هذه العوالم المريئة المحدودة وافيسته منزعة من عالم الحس المتناهي فهما صعدت فانت في عالمك هذا لا تتمدها والله تعالى اعلا من ان يقاس بالحدود والهيئات او يدرك بالمعلومات والآلات

(العقل) اذن فكيف يعتقد الانسان ما مجهول ؟

(عقيدة التنزيه) اني اقول لك ان حقيقة الله اكبر من ان يصل اليها العلم واجل من ان يصورها الفكر وأعز من ان تحوم حولها المدارك . وصفاته أعظم من ان تحصر او تحد ، أليس هذا اكبر درجة من درجات العلم واقصى غاية من غايات قوة الادراك ؟

(العقل) العلم في عرفنا ان نعلم حدود الشيء وصفاته وعلاقاته بغيره اما هذا النوع الذي تذكره فلم نصطلح على تسميته علما

(عقيدة التنزيه) ان ما اصطلاحتم على تسميته علما ليس قابلا للتحويل والتبديل والزيادة والنقصان حتى فيما تدعونه علوما تجريبية ؟

(العقل) نعم وهذا من أخص صفات العلم

(عقيدة التنزيه) أفتريدون ان يكون شأن العقيدة كشأن العلم من حيث قبولها للتحويل والتبديل على حسب درجات العقل وورق المدارك ؟

(العقل) لا ! لا يليق ذلك فان فيه خطا من كرامتها

(العقيدة) اذن فليس لنا الا امران اما تناولها بآلاتنا القاصرة وعقولنا المحدودة وتعرضها للتحويل والتبديل على نحو ما عليه عقائد الاعمى المبطللة واما وقوف العقل عند حده والافرار بعجزه المطلق عن تناول ما ليس من عالمه ولم يؤت وسيلة الصعود اليه

(العقل) اذن كيف يثلج الصدر بالعقيدة وتطئن الخواطر لها

(العقيدة) الاعتقاد على النحو الذي ارسمه لك لا يكاد يخالفك فيه اكبر ملحد فضلا

عن انه احسن ما يثلج عليه صدر المؤمن لانه مستند على الحس
(العقل) كيف ذلك؟

(العقيدة) لا تشعر بضرورة وجود قدرة ابدعت هذا العالم المدهش وتلك القدرة
كبيرة الى ما لا نهاية؟

(العقل) هذا امر بديهي لا يحتاج لجدال

(العقيدة) ألا ترى ان هذه القدرة المبدعة دائمة العناية بمبدعاتها مواصلة الامداد
والترية لها

(العقل) كيف ينكر الحس عاقل ولكن الملحدة يسمون هذه القدرة نواميس
طبيعية

(العقيدة) اذا كنت تنكر عليهم تسميتهم لها نواميس طبيعية فلماذا تسميهم انت ايضا بتقليدهم
في تصورهما بصورة ما والحكم على صفاتها بحكم يناسب حالها؟ اذا كان الملحدة قد جاروا
بتحديدهم تلك القوة فلماذا تريدان تجور انت ايضا من جهة اخرى؟ ألا ترى انك لو اكتفيت
بالعقيدة الفطرية وهي الشعور بوجود قدرة لا تحد ابدعت هذا الوجود على مقتضى الحكمة
والعدل وأقلعت عن تحديدها وتصويرها على قدر وسائلك القاصرة، وكان اكتفى الملحد من
جهة أخرى بشعوره الذي لا يمكنه ان يخالفك فيه مطلقا لانه شعار هذه الانسانية امام هذا
الوجود المعجز لأن الانسان لا يستطيع ان يدعي مطلقا وجود هذا الوجود بلا قدرة عالية
قلت لو كنت اكتفيت انت بما تشعره بالقطرة من وجود تلك القدرة واكتفى هو ايضا ولم
يسمها نواميس اما كان ذلك داعيا لاتحادكما في العقيدة وتأخيكما عليها، ولكنك لم ترض
بالوقوف مع الشعور الفطري ففقت تصور وتحكم ولم يقف هو ايضا في مركزه بل أخذ يجمل
 ويفصل حتى سماها نواميس طبيعية، فنشأ بينكما خلاف موهوم ما كان لينشأ لو وقفتما عند
حدكما ولزمتما مقامكما. اما ثلج الصدر واطمئنان الخواطر فهو من لوازم التنزيه وصفاته فان
شعورك بقدرة عالية متولية أمر الكون والكائنات على دستور العدالة والحكمة والعلم وانها
كما تولتك وانت نطفة وربتك تلك التربية الجنينية ثم هدت امك لتربيتك وساقها
للعناية بك حتى كبرت وترعرعت هي نفسها التي تتولان الآن وتبعثك بالدوافع التي وضعتها

فيك الى كمال أنت مستأهل له وان لم تنته بعد اليه ولم تشرف عليه . شعورك بانك مقود بتلك القدرة التي لا تحدد ولا توصف والتي لا يستطيع ان ينكرها احد يجعلك هادئ الضمير تلج الصدر خالياً من جيشات الشبه وسطوات الشكوك ، وهل الشبه والشكوك تطراً الا على محصولك العلمي وقضاياك العقلية ولكن هذه العقيدة التي لا تسمح لك فيها بالحكم عليها بفكرك القاصر وعلمك الناقص وأريد منك ان تدعها فطرية طبيعية كما هي ، كيف يطرأ عليها الشك وليست من قبيل معلوماتك المتحولة وقضاياك المتغيرة ؟

الا ترى معي بعد هذا ان التنزيه ارقى درجة من درجات العلم وانه اوجب لأن يطمئن اليه الخاطر وينشرح له الصدر وادعى لان تجتمع الائم كلها عليه وتآخي فيه تآخياً خالصاً لتساوي الكل في الشعور بموضوعه شعوراً فطرياً . وانه اعدل طريق يسلكه الانسان امام حاجته للعقيدة وارتياحه لها

اما النور الذي يحل بالصدر والسعادة التي تقاض عليه من حلول عقيدة التنزيه به فلا أن ردع القوة الفكرية والخيالية عن الجولان في اكبر موضوع يؤثر عليهما وإيقافهما عند حدهما دون الخوض في مسائله يستلزم حدوث انقلاب غريب في دستور مملكة الانسان الباطنية واتجاهات قواه الداخلية . فانه بردع تينك القوتين عن الجولان في هذه العقيدة المستولية على مهاب مشاعر الانسان ومسارب مداركه كما اثبتنا ذلك قبل قليل فتقطع عن شياطين الأوهام والخرافات التي تلصق بالدين زورا مادة البقاء فتنجلي عن النفس بحكم الضرورة وهذه الشياطين كما لا يخفاك قوى تسوية تضليلية تحل بالنفوس المستعدة لها كما يجذب الميكروب الى البقعة التي يجد فيها غذاءه فيفرخ فيها ويتكاثر حتى يخرج ذلك الشيء عن اصله بالتحلل . كذلك النفس الوهامة المخرفة تجذب اليها تلك القوى الخبيثة فتفرخ فيها وتنمو وتستدعي ما هو افكك بالحياة منها ولا تزال بضمير الانسان حتى تحلل فضائله او تمسخها وتصرفه في شؤونها واهوائها الى ان ينتهي وجوده على حال من الاحوال . ولكن حلول التنزيه في القواد من جهة العقيدة وهي الجهة المتسلطة على سائر عواطف النفس واميالها يقف بالنفس موقف الطهر ويحميها من فوائك الصفات الخسيسة وخوانس القوى الشريرة فتدع الانسان لقواه الطبيعية ومواهبه الفطرية وهي اولى القوى بحق قيادته واهدى الادلة

لارشاده وهدايته

عميدة التنزيه تفعل بالنفس من التطهير والتنقية وتعمرها من ارواح السكينة والحياة الصحيحة ما لا يفعله العلم الطبيعي الذي يزعم اليوم انه يحل محل الدين في قيادة الانسان وتخليصه من اسر الخرافات الاعتقادية التي حملها لنفسه ومسح بها فطرته . يقول علماء الطبيعة والانسان ان الخالق قدست صفاته وهب الانسان مواهب جليلة ومنحه بجزايا نبيلة وركبه مادة ومعنى على صورة قابلة للترقى والتهديب ووضع في وجود مناسب له من كل وجه وصالح لصقل ملكاته لما بينهما من الارتباط والمناسبة ، ولكن الاديان وكهانها قد كانت ولم تزل عتبة كووداً في رقيه بما تفتحه سبيل له من مجال الخيال والاوهام وما تلتطخ به فطرته من الضلال والاحلام وما تصرفه فيه من الاعمال التي تقسديكيانه وتمسخ طبيعته فتجعله مملوكاً للاهواء مستعبداً للاساطير فجاء العلم الطبيعي بعد ان فاز على رؤساء الاديان ونجا من مخالبهم لخليص هذا الانسان الضعيف من ايدي مستعبديه ومضليه بخلع كل تلك الكسيف المتراكمة على فؤاده ولبه من عقائد باطلة واوهام عاطلة وتجريد فطرته عما يقف بها في احوال النقص ونغمسها في اقداء الرجز فتخلص مواهبه من قيودها وتستقيم ملكاته على مناهجها ويزداد على نسبة العلم والعرفان الذي يعطي له رقياً ورفعة .

هذا ما يزعمه العلم الطبيعي المصري ويرجوه ويعمل عليه فاذا كانت النتيجة كانت تخليص الانسان من اسر الاهواء حقيقة ولكنه جار ففراه من عاطفة الدين ايضاً فضج العالم منه ضجة لم يزل دويهاً يخترق الآفاق للآن يسمها اصحاء الآذان والافئدة وان انكرها الصم المفتونون قال (فيرنس جيا فرت) في كتابه الغمة الحاضرة « ان العلم قد غلا في الاستفادة من سرعة تصديق العامة اكثر مما غلا رؤساء الدين ، فلقد اثبت لها عدم صحة رموزها الدينية القديمة ووعدوا بتعويضها لها باصول ثابتة ابدية لدين حسي جديد ، فلم يف بوعده لها . ولما آب للانسانية رشدها ، وقد فقدت شرباتها السابقة ، وجدت نفسها حيال فراغ اوسع مما كانت فيه قبلاً . وفي الواقع ماذا يفيد الانسان علمه بيمض الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الاحاد المتجدد المؤلم الذي يجرنا اليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة »

« انهم ينصحون كل انسان بان يكون لنفسه دينه الخاص ، ولم يفتنوا الى ان هذه

النصيحة المزدوجة تحتوى على تناقض بين حيث ان المذهب الحسى لم يترك للانسان مجالاً في غير المسائل المادية المحضة . »

« ان الحق والعداء يزدادان يوماً فيوماً في نفوس اهل البأساء المحنكوم عليهم بالفاقة الى الابد ، وان جنون البذخ والكبر ينمو على قدر ذلك لدى اهل اليسار والبذخ . وهذا الاحاد الآخذ في النمو يسوق جمعياتنا بعاطفة المساواة الى حالة ثورية دائمة . واصبحت ترى الملوك العظام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم تكن تشاهد في وزراء الازمنة الماضية . والحكم الاستبدادي بدل ان يتشبع في بعض الافراد اضحى منتشراً بين الملايين فكل ديموقراطى يتمنى ان يبلغ الرتب العلية ، وترى الشعب لما أحس انه خلص من اسر الواجبات الروحية التي تفرضها الكنيسة وازدرى بذلك الدستور السياسى الذى يراه يتغير بسرعة جنونية اعطى لعاطفة الأثرة فيه كل الحرية وصار يعتبر ان ماله من حق المساعدة في ادارة شؤون حكومته وسيلة لنيل ما ربه الحيوانية بأسرع ما يمكن ولقد رجونا ان نداوى مصائب النوع الانسانى بالكنوز المادية التي القيت بين ايدينا من منذ قرن من الزمان ، كما تكاتف العلماء والمهندسون والصناع والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا زيادة عظيمة ، ولكن لم يكن من نتيجة كل تلك المكشفات الا نشر حى حب المال في الطبقات السحيقة جداً . »

« فأى قانون اخلاقى يكفى لسكبج جماع اهوائنا وادخالها الى مجاريها الطبيعية المعتدلة لقد ذهب عنا الكمال المعنوي ولم يبق فينا الا خوف مبهم من شىء غير مدرك . لان العقيدة بالله لا يمكن زوالها من النفس ، فترى الذين لا احساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من الظلمات ، وترى العقول المستنيرة بالعلم ، المحرومة من الدين تعذروهم في ارتكابهم الجرائم وبهذا فقد اصبحت الشهوات غير واقفة عند حد . »

« ان تحت هذا السلم الذي اقتضاه الخوف العام لاحقاداً تختمر اختاراً بأشد مما كانت فى اى زمن من الازمان فان جرائم القوضويين وافلاس المسالين واتجار الاسر باجمعها والوساوس الخرافية الآخذة في الانتشار بين الناس والجنون الذي لا ينتظر الا سنوح القرص واصحاب الاثرة البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقى الشديد الوطأة البعيد القرار الذى عم اجناسنا ناشئ من عدم وجود قاعدة دينية تصلح لاحداث الوحدة والاخاء بين احتياجنا

الدائم للعمل وبين عاطفتنا للحب ،

« لذلك ترى ظلمات من الحزن والكمد آخذة في الاسوداد كل يوم ملقبة اظنابها على عالمنا . ويزعم الانسان في غروره ان حرية الاثره ستحصل له كل ما يتمناه من سرور وانسراح حتى صرنا وكل يوم لنا مطلب جديد وكل طائفة تسعى لنيل امتيازات جديدة ، وكل فرد يدعى لنفسه حقوقا ليس لها حد تنتهي اليه وبذلك فقد اصبح الانسان بين هذا العذاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترفاً بأنه امام الحياة اضعف مما كان في أى زمن من الازمان »

وقال العلامة (كاميل فلامريون) ونظن أنه غير مجهول لدى المسلمين : « لا يجوز لنا ان نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لاننا رضىنا به واصبحت عقولنا المتشعبة بالأثره لاعم لها الا اغراضها الذاتية اليس حفظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيل لا الكسب والجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات ؟ » « وان من التناقض بين المؤلم ان ترى ان الرقى الباهر الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له في التاريخ ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للانسان في الطبيعة بينما رفعت عقولنا الى المدركات العالية اهبطت انسانيتنا الى اخس الدركات . ومن الحزن ان نحس بأنه بينما نشعر ببناء قوتنا يوماً بعد يوم ، تنطفئ حرارة قلوبنا وتتصوح زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية » انتهى

اذا علمت هذا رأيت ان الصراط الالهى الاعدل والمخرج من كل هذه الفتن المزعجة المجتاحة هو الاسلام فانه المنهاج الوسط بين افراط الاديان المحرفة وتفريط العلم الطبيعى أفرطت الأولى في اسر الانسان واطلق كهانها لانفسهم عنان الحرية في اسر العالم وتسخيره لأرادتهم فنارت الانسانية في وجوههم وقارعتهم بالحديد والنار حتى خلس العالم منهم فجاء العلم ولكنه في طرف التفريط فازال عن النفوس اعز مطلوباتها وسعى في اقناعها بامكان قيامها على الصراط الحيوانى مقصوراً على الطين ولذاته والحس ومقتضياته ، منكرآ لها الروح والخلود والثواب والعقاب وعالم ما وراء المادة فاستراحت اليه هنية واستنامت له برهة ثم احست بما افزعها وازعجها فقامت تنشد مطلوباً عزيزاً وتطلب مفقوداً غالياً . وما هو ؟ هو

الاسلام لانه حاصل على ارقى ما تتوقى اليه النفس من مطالب روحية وكالات نورانية وعواطف قلبية . وحال باقصى ما يتمناه العلم من معاداة الخرافات ومجافاة الظنون والوقوف بالنفس موقف الطهر عن اعتقاد الاوهام واقتراف اثر الخزعبلات وتسليم قياد النفس للقادة المضلين والهداة الغاوين الخ الخ مما يطلبه العلم ويجهده نفسه في تقريره لان عقيدته التوحيد وهي توحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله وعقيدة التنزيه وهي ردع الفكر والخيال عن الحوم حول تصوير الخالق وتكييفه وما يقتضى ذلك من الادب النفساني الباهر وما يتبع ذلك من البعد عن الظن والتقليد والاعتقاد بلا دليل الخ الخ مما هو من قواعد هذا الدين القيم ، كل ذلك يجعل المسلم أشد حيطة لنفسه من أى عالم او متعلم على الاسلوب الحديث فان المسلم يعتقد انه مسؤول عن كل شيء وعن أقل زيف في الدنيا والآخرة لا في الدنيا وحدها كما هي عقيدة طلاب العلم الطبيعي فهو بالضرورة اكثر احتفاظاً منه بنفسه . لا تقل فلم لا نرى المسلمين كما تصف ، فاني اقرر ماهية الاسلام من انه الصراط الالهى الاعدل الذى سيرت العلم والاديان معاً . اما المسلمون فلنا عليهم كلام آخر .

اذا تقرر هذا فقد ظهر لك باجلا الادلة ان الاسلام الذى عنوانه لا اله الا الله محمد رسول الله ، وحليته التوحيد والتنزيه بأخص معانيهما هو الدين الحق الذى سيؤوب اليه المفرطون والمفرطون معاً . أما المفرطون من أصحاب الأديان فانهم يلافون من انفسهم ومن الوجود كل يوم حرباً عواناً وقد رأيت وترى انهم يقولون في كل صقع ويضولون في كل جهة وليس هذا الاضمحلال عرض يزول بل هو مستند على موانع طبيعية تمنع من بقاء اديانهم لمخالفتها للمقل وللطبع معاً . واما المفرطون من اصحاب العلم الطبيعي فلا يمكنهم الثبات في وقتهم مع الحس وقد أريناك انهم أخذوا يجأرون ويصيحون بفقد العقيدة . اذن فلا بد من دين يتفق عليه الطرفان ويكون وسطاً بين الافراط والتفريط وكتابه محفوظاً من التعريف والتخليط وتاريخه معروف مشهور . ولا دين فيه هذه الصفة الالهية غير الاسلام الذى جاء يدعو الناس اليه محمد عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذي قال الله فيه « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون » « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد »

﴿ الرقى المادى والشكوك فى الدين ﴾

نحن بعد ان جلنا بالقارىء هذه الجولة يحسن بنا ان نسأل انفسنا قائلين : ما هذا التلازم بين الرقى المادى والشكوك فى الدين ؟ وما هذه العلاقة الاكيدة بين العلم بالكون والاحاد ؟ لو كان هذا شأن امة من الامم اقلنا ان له سبباً عرضياً استدعته حالة من أحوالها الخاصة ولكنه يشاهد فى جميع الامم على حد سواء (الا الامة الاسلامية) واطهر مثال لنا ما نشاهده باعيننا من الاوربيين فانهم اصبحوا من ترك العقائد بحيث لا يستطيع ان يتخيل امكان رجوعهم اليها وقد علقو رقبهم كله على تركها وكل حين تردنا كتبهم ومجلاتهم مفعمة بالمطاعن الشديدة على البقية الباقية منهم على عقائدها ، فهل فى هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة ان الدين باعثه الجهل ومادته العمايه عن حقائق الكون ؟ وهل فيه حجة للقائلين بأن الاديان الموجودة هي حوادث تاريخية استلزمها ادوار خاصة وقد أدت وظيفتها وأخذت فى الانحلال ولن يقوم لها فى عصر العلم قائمة ؟

ان كان لا هذا ولا ذاك ، فهل فى الرقى المادى شئ من السحر يعترى النفوس فيلقها عن مطالب ارواحها ويعميها عن رؤية كالاتها ؟

ان كان كذلك فما هو ذلك السحر فى نفسه وما منشأه وكيف يؤثر على العقول هذا التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن ان يوجد على سطح الارض مدنية مادية متحدة بكلمات روحانية ويكون الانسان بينهما مغموراً فى نعيم روحه وجسده متمتعاً بلذائذ مادته ومعناه ؟ ان كان لا يمكن ذلك فهل شرع الدين ليكون مقصوراً على الفقراء والمساكين وموقوفاً على المحرومين والمستضعفين ؟

وان كان من الممكن جمع مدنية مادية مع كالات روحية فما بال بعض المسلمين الذين قضى عليهم بالاحتكاك فى قشور هذه المدنية الاوروبية قد خلعوا أئنة الدين ، واملسوا من وشيجة العقيدة ؟

ليس من العدل ان نصممهم كلهم بالعمايه والطيش فان منهم المتعلم الذى يفخر به معلموه ، والسامع الذى هام به محبوبه ، والارمحي الذى يحمده قاصدوه ، فما الذى امال اعتناق هؤلاء الى

الهوى ودفعهم الى الردى ؟ واذا كان لا مناص من ان يكون الرقي المادى يقابله عدم الدين وقد رأينا بوادره في اخواننا الاقربين فانتظر اذن حيناً من الدهر لا تصادف فيه راكباً في محراب ، ولا داعياً الى غير شراب ، لان المدنية الصناعية آخذة في الانتشار ومتسربة الى سائر الامصار ، وانك ترى انها تعدت من كبار الافراد الى من يليهم ومن يليهم الى من وفهم حتى دخلت الى قرى الفلاحين ، وكادت تطرق الباب على صغار الحرائين ، فان كان كما قلنا في المدنية شئ مما نسميه سحراً فقد قرب الوقت الذى ندعو فيه الى الدين فلا يجيبنا غير الصدى ، ويذهب كل ما كتبناه في الحث على التخلق به سدى

أليست هذه مسألة يجب التعمق فيها لادراك سرها ، والوقوف على حقيقة أمرها ، لنعرف مكان الداء وحقيقة الدواء تفادياً من التعب في غير متعب ، وهرباً من الذهاب في غير مذهب ؟

ما هي المدنية وما تأثيرها على الروح الانسانية ؟ ما هي الشهوات الجثمانية وما هي الكمالات النفسانية ؟ لماذا يفضل الانسان الشهوات الفانية على الكمالات الباقية ؟ هل السبب في ذلك عدم الايمان ؟ فما هو الايمان ؟ كيف يقوى وكيف يضعف ؟ هل في العلوم المادية ما يقوم مقام الدين في اتياء الروح حاجتها وتهدة النفس في جيشانها ؟ هل فيها ما يغذى عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الارضية وتكتفى بملاذها الجسدية ؟ هل نمو القوة العقلية ينتهي بالانسان الى اعتقاد بطلان الأديان ، وادراك فساد ما بنيت عليه من الاركان ، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل حتى يتم الامر بزوال الدين وانتهاء سلطته ، وقيام العقل مقامه في اداء وظيفته ؟ يمكن ان يقال نعم ، وان يقال لا .

ان قيل نعم فما هو العقل وما هو الدين وما حدود سلطانهما على النفوس ؟ هل هما يتنازعان الانسان من جهة مشتركة فيكون هو للغالب منهما دون الآخر ، ام لكل منهما دائرة نفوذ خاصة يؤثر على انسان من قبلها ؟ فما هي جهة سلطة العقل وما هي جهة سلطة الدين ؟

وان قيل لا . تقول : اذن ما هذا الاثر الذي نشاهده ؟ لماذا نرى كل من ازداد علماً بالكون وبالانسان من اصحاب الاديان سواء الاقدمين او المحدثين يشكون في العقائد ويتهاونون في

أمرها ، ولا يزالون كذلك حتى يتركوها بالمرّة ؟

ان قيل : ذلك لما تسهله المدنية لهم من اسباب اللغو والترّف ، وما تجلبه لهم من المغربات على الخلاعة والسرف . نقول : وكيف يقوم لامثال هذه الاعمى قائمة وكل ما ذكر من صنوف اللغو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ؟ عاد على كيان حواظها الاصلية ؟ هل ذلك لأننا واهمون في تحديد ماهية الفضيلة وماهية الرذيلة ؟ ماذا يكون جوابنا لو استشكل علينا خصم فقال

« انكم سميتم عاداتكم فضائل ودعوتهم اضدادها رذائل وجعلتم ذلك قانوناً تحكمون به على الأمم والافراد فيذهب كل يوم حكمكم ادراج الرياح . تطبقون عاداتكم على أمم الغرب فلا تنطبق عليها فتحكمون عليها بأنها بعيدة عن الفضيلة وترون فيها اضداد عاداتكم فتحسبونها رذائل فتسرعون بالقضاء عليها بقرب الزوال والتلاشي . والحقيقة غير ما تحكمون وما تظنون .

« انكم تنظرون الى الربا فتظنونه رذيلة مجتاحة (هذا قول المعتز) مع أن عليه تدور دائرة التعامل في العالم المتمدن كله وبه تتوطد الدعائم الاقتصادية فيه . وتلفتون الى الحر فتعدونها رذيلة حتى الاعتدال فيها مع أنها المورد الاكبر لمالية الأمم المتقدمة ؟ وترنون الى مسألة تكشف النساء وحضورهن في مجالس الرجال فتخالونه رذيلة مع أنه أهم الاسباب التي رقت الاوربيين واخذت بأيديهم الى مكانات العلاء والرفعة . وهكذا سميتم كل ما خالفكم فيه غيركم رذيلة وهي في الحقيقة فضيلة وصرتم تثرثون بها كل يوم حتى اعتادتها الاسماع ولم يعد لها تأثير .

« انكم تعجبون من كونكم مسحوبين من انوفكم الى تقليد الأوربيين والاخذ بعاداتهم وتذهبون في تعليل هذا الامر مذاهب انخيل والشعر فتسمونه سحراً او تسمونه روحاً وقد جعلتم التفتيق بامثال هذه الكلمات مادة لكم في ابحاثكم وكتاباتكم ادرتون ما تجدونه في أنفسكم من الاندفاع للتقليد اثر اي قوة هو ؟ هو اثر قوة الفضيلة في الامم التي تحتكون بها لان الفضيلة جذابة خلافة تؤثر تأثير السحر على العواطف والاميال فهي تجذبكم كل يوم اليها بقوتها الذاتية فترضخون لاحكامها بالفعل بينما تكون السننم وافلامكم لاثكة

تلك العبارات الاستفهامية والجلل التعجبية اندهاشاً من كونكم مسحورين بالذائل ومجبرين على ترك الفضائل . فعليكم ان تبصروا وتجيدوا استعمال الروية ، قبل ان تقع على عاتق المتهورين من كتابكم المسئولية ، مسئولية صد الشرق عن الاستفادة من خير المدينة »

هذا ما يستطيع ان يقوله مجادل عنيد في مناسبة ماسقناه من النبذة التاريخية وما نساء لنا عنه من ذلك المؤثر الذي يؤثر على العقيدة الدينية في عصور المدينة . وهو من الشبه الرائجة في أيامنا هذه على السنة بعض الناس ممن يستطيعون التعبير . وفي ضمائر البعض الآخر ممن لا يحسنون القول والقليل . فلا مناص لنا من حلها حلاً جلياً تفصيلياً ان شاء الله تعالى لانها من احاييل شياطين الشرق اليوم التي وقع فيها كثير من افراد النشأة الجديدة مسوقين اليها بتيارين : تيار سحر الزخرف الصناعي المنصب اليها من اوروبا وتيار القوة والنفوذ اللذين هما في جانب الغرب اليوم .

هذان التياران وان كانا في العادة دافعين هائلين للامم المستضعفة الى الانحلال ، الا انهما لا يبلغان غاية قوتيهما الا امام الامم الجاهلة الغافلة عن سر الحياة ، التي لا تسمح لها عمايتها بالتفكير فيما بعد يومها الذي هي فيه ، وتوهمها وساوسها بان الحال لن يتغير عما هو عليه ، وان العالم قد طبع بطابع نهائي اى ان القوى يبقى قويا الى الابد والضعيف لا يبرح ضعيفاً الى الابد ، ولا معنى لهذا الا اليأس بعينه وهو اشد درجات الكفر في مذهبنا .

فالعلم والحالة هذه يفتح للارواح باب الامل الواسع ويحلهم بساحة الرجاء المنعش فيطلبون الحياة بما لديهم من الوسائل فان اكثرت الوسائل طلبوها ولو بالتبني ، واحتموا بذلك من اليأس الذي هو طاعون الهمم ، وسرطان الشعوب والامم ، ولو لم يكن في حلولنا لهذه الشبه الا الامام بشيء من اسرار الحياة لكفى به نتيجة عظيمة

﴿ حلول الشبه المتقدمة ﴾

﴿ تمهيد ﴾

لو اردنا ان نعالج كل هذه الشبه التي سردناها واحدة بعد أخرى لطال بنا الكلام وتشعبت بنا فنون التعبير وذهب فكر القارئ مع قلمنا مذاهب بعيدة يصعب معها اشرافه

على مجموع المقال ، ويتعذر عليه الاحاطة باطرافه من أول جولة فنضيق الثمرة التي نقصدها بالذات من اشباع القول في هذا البحث . لهذا رأينا ان نحدد ميدان المناقشة في دائرة محصورة يستطيع القارئ ان يلم بمحيطها من اول نظرة ويدرك لها مركزا معلوما ؛ ولا حرج علينا بعد ذلك ان مددنا انصاف اقطارها الى حيث يقتضيه منا خطر الموضوع ، فانه مادام وافقاً في مركز الدائرة يمكنه ان يتبع خطوات القلم الى حيث يشطح ثم يعود بنفسه الى النقطة التي خرج منها ليتجه منها حيث اراد بدون ان يخشى الشرود عن جوهر الموضوع .

هذه الدائرة التي نقول عنها هي عبارة عن بسط مقدمات اولية اساسية صالحة لأن تكون لهذه المباحث كالحود المرسومة للبناء ، لانرى بدا من اقامتها ومن الله نستمد القوة والحول :

﴿ دستور الكائنات ودستور الانسان ﴾

لكل كائن في عالم الكون دستور يسير على موجهه في حياته ، وترتد اليه سائر محاولاته ، حتى ان الجمادات والنباتات ليست محرومة من دستور خاص بهما ملائم لاحوالها وان كانت لا تتمتع من خصائص الادراك والتميز بما يشعرها به ويهدها اليه وليس دستوراها الا النواميس الطبيعية المسلطة على كيانها حتى انك لو كلفت شخصا من اشخاص الجمادات او النباتات بما لا ينطبق على تلك النواميس اى على دستوره الخاص لقاوملك واعياك ، فاما ان تقلع عنه واما ان يذهب فقيد هوالك . فاما الحيوانات الحاصلة من الحياة على قسط اكبر من هذين العالمين السابقين فدستورها اوسع مجالا ، وابعد اختصاصا وأناى مرابي واغراضا ، ولكنهما اتسعت مجالاته ، وتشعبت اختصاصاته ، فلا تعدى مراميه الحاجيات المادية ، والمطالب الجسدانية ، وليس فيها من القابلية والاستعداد معها ارتقى وتهذب لان ترمي لما وراء حسها بأى وجه من الوجوه

اما الانسان فقد دل حاله بالاستقراء على أن عوامل دستوره لاتقف به عند المطالب الطينية ، بل تتعداها الى باحات أخرى معنوية لا يحددها له الوهم بحد ، ولا ينتهي منه تصويره الى غاية . وكلما ارتقى في الفكر والشعور درجة اتسعت امامه تلك الباحات المعنوية درجات

كثيرة ، وزادت شدة العوامل الدافعة اليها حتى انه قد يصل من الالتذاذ بالمعاني لدرجة يضحى معها الماديات في سبيلها ويكتفى من بواعث الحاجات الجسدية بما يسد الرمق تفرغا لتلك المطالب العالية وجريا وراء أمانيه منها . وقد شوهد من احوال الانبياء انهم مع سمو مناصبهم ، واستطاعتهم للتعم بالماديات فوق ما يستطيعه الملوك والقادة لتسلطهم على أرواح الناس وأجسادهم ، كانوا يكتفون من الخبز بلقيات تقيم صلبهم ، ويلتفتون من عالم القدس وانوار الجمال الالهي لما هو اكبر من الدنيا وما فيها في نظرم . واعظم مثال تقدمه لقرائنا حال سيد الانام محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان من السلطان على رعيته في درجة لم ينله عاشاق الملك ومؤسسو الممالك بحيث ان كل واحد من اتباعه كان يهون عليه ان يفديه بنفسه وأهله وماله ، ومع ذلك فقد ابت نفسه الشريفة كل ذلك النعيم الفاني ولم يصب من حاجيات بدنه الا ما يقيم شخصه اكتفاء بذلك الصفاء الروحاني الذي كان يشعر به مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتدلنا سيرة كبار اصحابه وعظماء تابعيه في كل الاجيال على ان منهم من تبعه في هذه الخطوة الشريفة فانعمر مما يتوق اليه في بحر من الفيض الالهي لو وضعت الدنيا بلذاذها في صدفة من اصدافه لما وازنت اصغر درة من درره المعنوية الكريمة .

نعم ان تاريخ النوع البشري ليدل دلالة صريحة لاسيما لو استقرينا احوال الامم المرتقية منه على ان دستور الانسان في حياته ، الذي يسيطر على سائر حركاته وسكناته هو غير دستور العالم الحيواني ولا هو ترق منه

الحيوان لاهم له الا خدمة الجسد ، واداء مطالب البدن يعيش ويموت أسيره وخادمه ، والانسان على الضد منه ، له مرام أبعد مدى ، واغراض اشرف مقصداً ، وهو طلب كمال يشعر به في صميم ذاته ، ويتضرم لاجله في لباب كيانه ، وان لم يستطع ان يصوره بصورة ، او يقف منه وهمه على كيفية

نعم خلق الانسان مغرماً بالكمال ، ولهان به في كل حال فهو لا يأكل ولا يشرب ، ولا يسكن ولا يلبس ، ولا يحارب ولا يسلم ، ولا ينقض ولا يبرم ، بل ولا يماكر ولا يداجي ، ولا يدلس ولا يحاجي ، وان شئت قلت ولا يسرق ولا يقتل الا وفي قلبه نار

تدفعه لطلب الكمال ، وترعه عن الوقوف في الأحوال وان غلط في اختيار الوسائل ،
وارتكس بجهله الى اخس المنازل

طلب الكمال صفة من صفات الروح الانساني ، ولازم من لوازم تركيبه الروحاني
بل هو النتيجة اللازمة لكل هذه العواطف والاميال والقوى التي ركبت في هذا القواد
الخفاق الساكن بين الجوانح !

دع عنك لحظة ما تعرفه من حال الانسان في جهله وعمايته ، وما تسمعه من غيه
وضلته ، وما اكسبته له التربية الرديئة من الصفات الحيوانية ، والاميال السفلية ، كالايغال
في الماسم ، والانغماس في اقدار الجرائم ، وارجاس الذمام ، وانظر اليه بشراً سوياً خالصاً
من مؤثرات التربية المعوجة والوسط المفسد ، طاهراً من شوب التقليد والوراثات . تر
كائنات اعطى من القوى والمواهب ، ومنح من الملكات والبواث ، ما لا يدخل في حسابان
حاسب ، ولا ينحصر في ابحاث باحث . ماذا ترى ؟ ترى ادرا كالا تعجزه حقيقة ، وعقلا
لا تكمله معضلة ، وفكرا لا ترند تموجاته دون غاية ، وتصوراً لا تنتهي قواه عندنهاية ،
وخيالاً ليس لمزاييه دائرة تنحصر فيها ، وأميالاً لا تنتهي لها مطالب . وقوى لا تعيها
الغائب ، وهو مع كل هذه العطايا في عالم لا تنتهي عجائبه ولا تقني غرائبه ، ولا تنضب
مادة آياته ، ولا تفيض أسرار مدهشاته .

تأمل في هذا الكائن المتمتع بهذه المواهب ثم قل لي اي مطلب يليق ان يتخذ له
غاية في حياته ، وأي مرمى يصح ان يجعله عرض محاولاته ، وانشودة ملكاته ؟ قلنا دع ما
تعلمه من حالة الانسان في الفساد والدنايا جانباً وقل لي بعدها أي طلبة تليق ان تكون مرمى
هذه الخلقة الشريفة ، ومطمح نظر هذا التركيب البديع غير كمال مناسب لهذه الغرائز ،
ولاثق بهذه المنح والنحائر ؟

نم خلق الانسان وكل مافيه يسوقه ويخزه لطلب الكمال والجمال ، بل ويهيئه ويدفعه
في سبيله دفع الجوع للجوعان ، ويسوقه سوق الظمأ للظمآن ! ولكن اين هو والاهواء
متغلبة والشهوات متألبة والعوامل التي سنطها على نفسه لم تدع له اختياراً
اي قلب لا يتفتت كذا وحسرة ، وأي حشاشة لا تذوب أسفاً وحزناً ، اذا علم الانسان

من حال بني نوعه واستعدادهم لأسمي منصات الكمال ، ما اتينا على طرف منه ، وانهم قد وهبوا من الملكات والقوى ما يدفعهم اليه دفعا ، ويهيئهم له تهيئا ثم يري ان اكثر هذا النوع المكرم قد شا كل البهائم في شرها ونهمها ، وضارع الوحوش في ضلالها وجهلها ، واشبه الضياع في ضراوتها وقسوتها ، وحاكي الشياطين في حيلها وخدعها ؛ وقد عكسوا كرائم تلك القوى والملكات عكسا سقط بهم دون عالم الحيوان ، فوجوا بينهم ذمائم الصفات ، وخسائس الاخلاق ، وقاسوا على مقتضاها معاملاتهم واحوالهم ، ورتبوا على اصولها قوانينهم وشرائعهم ، وجسوا انفسهم بذلك في مضيق لا يليق بكما لهم ، ولا يناسب سمو حالهم !

هذا هو الذي كان يلم بفكر المصلح الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم فيجعله دائم الحسرة طويل الفكرة ، أسفا على ما آل اليه امر هذا النوع الكريم وقد كان هذا الاسف يؤثر على مزاجه الشريف حتى ان مبدعه جل وعز خاطبه على لسان الروح الامين قائلا : « فلعلك باخع نفسك (اي مهلكها) على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » وقال تعالى : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » . فرجع عليه الصلاة والسلام الى هذا الادب الالهي وعلم ان تلك حكمة بالغة ، وابداع لا يعلمه الا هو ، فهو وحده المصرف للاُمور ، العليم بصيور الشؤون ، واعقاب الاحوال سبحانه لا معقب لحكمه .

انظر الى هذه الفطرة الانسانية الكريمة والى ما تمتع به من قوى ومواهب والى ما تليق له من عاليات المراتب ، وساميات المناصب ، لو أسلمت وجهها الى الله أي لو تخلصت من شائبات التربية المفسدة ، وحررت من مؤثرات العادات القبيحة ، والتقليدات المردية ، والوراثات المائلة بالملكات الى غير ما خلقت له من الكمال والاعتدال ، ثم قدر تلك الحجب الطينية الغليظة التي تحجب عن هذه الفطرة الكريمة نورها الزاهر وجمالها الباهر ، وتأمل كما ينبغي ان تتأمل في تلك الغياهب الشيطانية التي تحول بين المرء وقلبه ، وتهبط به عن أوج مجده ، واشكر الله على ان هداك الاسلام ، وأقامك على منهاجه ، وهل الاسلام الا اسلام الوجه الى الله وخلع كل الوراثات والعقائد والمدركات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والقيام على صراط الاحسان في القول والعمل على ما يقتضيه قانون الخلقة

وناموس الحياة « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن »
 إذا تأملت فيما قلناه ورأيت أنك بينما ترى الانسان نوراً صرفاً وجمالاً خالصاً وكلاً
 بحتاً إذا هو بعدم اسلامه اي بعدم اسلام وجهه لله ظلمة متكاثفة وقدرراً محضاً ونقصاً
 يسفل فيه عن أخس الحيوان ، إذا تأملت في هذا وتعجبت منه ، فإن أعجب منه بما لا يقدر
 ان الحد الفاصل بين هاتين الحالتين المتناقضتين عقيدة واحدة قد تحل بصميم فؤاده فتمتلك
 سائر قواه فتوجهها الى مصاعد الكرامة ، ومعارض الجلالة ، فيعرج على اجنحتها الى الغايات
 القدسية ، ويتصل بالعوالم النورانية ، وقد تتخلى عنه هذه العقيدة فتدعه لهواه فيهوى به الى
 اسفل من دركات الحيوانية ، ويفمره من عالم النقص الى اخس المنازل ، ويتركه من مدا حض
 الاهواء في هوة ليس لها آخر :

هذه العقيدة هي الايمان بالعالم الروحاني واليك البيان :

✽ الناس امام هذه العقيدة ✽

الناس بازاء الاعتقاد بالعالم الروحاني ثلاثة اصناف : صنف يعتقدها اعتقاداً ذوقياً فوق
 اقراره بها اقراراً برهانياً ، بمعنى انه لم يكتف باقامة الادلة على حقيقتها وجعل دينه مجرد حفظ
 تلك البراهين والثرثرة بها كتابة وقولا فقط ، بل صدقها بالحجة والبرهان ، وعمل بما تقتضيه
 من الاركان فذاقها ذوقاً ذاتياً فاتتجت فيه ثمراتها النورانية فسطعت في اعماق ضميره واقصى
 ثنيات فؤاده . ورجل لم يعتقدها ولم يصح لديه برهان على حقيقتها فكشطها من ذاكرته ،
 ولم يعد يخطر بها بباله ، فلم يعمل بموجبها ولم يبين اموره على اصولها .

ورجل ثالث يعتقدها بالوراثة عن آبائه وأجداده فاكتفى منها بمجرد وهمه بانه واحد
 من حملة أمانتها ، وفرد من الامة التي كانت تحمل علمها ، وتستضيء بمصباحها
 لاجرم ان لكل رجل من هؤلاء الثلاثة دستوراً خاصاً في الحياة يلائم مكانه من هذه
 العقيدة لا بد لنا من الاماع الى طرف منه تمهيداً لحل كل تلك الشبه المتقدمة لارتباطها بهذا
 الموضوع تمام الارتباط

❦ حال المعتقد بالعالم الروحاني ❦

هو رجل لم يقف من هذا الوجود المحيط به في الدائرة التي تحددها له حواسه . أي لم يقصر عوالم الكون على محض ما تبصره عينه السكيلة . وما تلمسه يده الغليظة وما يتأثر به شمه وسمعته وذوقه ؛ وعز عليه ان يكون من الجود والغلظ بحيث يجزم بأن هذا الوجود الذي لانهاية له لا يشتمل الا عليه وعلى ما يمكن ان يحسه فقط ؛ وانف تصوره ان يحكم على نفسه بأنه والحيوانات في مستوى واحد لا يمتاز عنهم في شيء مطلقا كما يدعيه غلاة التاريخ الطبيعي ؛ وابتى فكره الطموح الجوال ان يزعم ان هذه الطبيعة المدهشة لا يصرفها ويحركها الا نواميس طبيعية محدودة لا علم لها ولا اختيار ولا ارادة . وان كل هذه البدائع المحيطة بها من كل جانب ليست الا مقتضيات تلك النواميس ونتائجها ؛ وتعاصي عقله ان يقبل تلك التعليلات الطبيعية التي جاء بها اولئك الذين ذهبوا بصائرهم ، وطمست أفئدتهم لعلمه بأنها ثمرة الفكر ولا يخفاه كلاله حده . وعجزه عن ادراك كنه الذرة البسيطة فضلا عن الاحاطة بالكون والحكم عليه هذا الحكم الجائر

علم صاحبنا كل هذا ثم نظر الى تاريخ النوع الانساني نظرة فرآى ان العقيدة بالعالم الروحاني قديمة وعامة في سائر الالام فصعب عليه ان يزعم ان النوع الانساني عاش كل هذه القرون الكثيرة مغموسا في بحار الخيال . وواهما في اكبر مشكلة تعنيه وتهمه ثم اتى بنظرة اخرى على تاريخ الانسان ومر على احوال اولئك الرجال العظام الذين ملكوا قياد الشعوب والقلوب في سائر الاجيال من لدن القدم لليوم ، وحدثوا اكبر الحوادث الاجتماعية وهم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام فرآهم كلهم مجمعين على وجود عالم روحاني فوق هذا العالم الجسداني ، ودعوا الى الاعتقاد به كافة الناس فحدثوا بهذه العقيدة اعظم القوارع الادبية التي كان ولم يزل لها اكبر اثر في حال الانسان واخلاقه . فرآى ان مجرد حال اولئك الانبياء والرسل ان لم يكن هو وحده ادل الدلة على وجود ذلك العالم فلا اقل من انه يستلقت اليه النظر ، ويوجه عليه الفكر ، ويميل بالعقل الى ترجيح وجوده وينحجب اليه المتاع بشهوده .

جال صاحبنا هذه الجولات الطبيعية والتاريخية ثم عاد الى نفسه فرآى ان الحياة الارضية دار آلام واحزان وقرارة اكدار واشجان ومحنة بلايا وارزاء، تارة في النفس والمال وأخرى في الاخوان والآل. وان حوادثها سلسلة من ادوار واطوار، لا تنتهي حلقة منها حتى تنتهي حلقة أخرى. والانسان بين تلك الحلقات في حرب عوان وضراب وطعان ضد نفسه واهله وبني بلده واخوان وطنه وعموم نوعه، وفوق ذلك كله ضد الطبيعة وعوارضها وهو من معمران هذه المعركة الدائمة في تيار يجري به الى حيث يحفل، ويجول به في كل جدول. يجتهد ليقف لحظة او يرتاح هنيهة فيرى ان في وقوفه الهلاك المعجل والشقاء المسجل فلا يسعه الا الاستسلام لدفع ذلك التيار فلا يزال يقذف به من جانب الى جانب حتى ينتهي به الى غاية حياته او يصدمه في احدى جمعاته صدمة توقف حركته. ربما يكون هذا الرجل في اثناء دورانه هذا قد جاء باولاد اندفعوا معه بهذا التيار نفسه وصار حظهم من الحياة لا يفترق عن حظه وكثيرا ماتمزقوا امام عينيه فيكون المصاعف وحزنه وأساه ليس يسهل على الوصف.

رأى صاحبنا نفسه في هذه الحال فتحقق ان الحياة على هذه الصفة عبثاً ثقيلاً. بل بلاء وبيلاء وشراً مهولاً يجدر بالانسان معها ان يحسد القارة في وكرها. والتملة في مسكنها. والحمامة في عشها. بل والحجارة في جبلها. والرمال في سهلها. وبينما هو يفكر في هذا الشأن ويتنفس من حالته ويبحر الى قيوم الوجود ليهديه في حيرته، وينعشه من وهدهته، اذا بصوت جهوري يرن له من أعماق قلبه. ويصعد اليه من لباب معناه تالياً عليه قوله تعالى: «انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً» فلم عندها انه مستودع امانة جلييلة. وحامل سر عظيم؛ فهم يعرف تلك الامانة ويدرك معنى ذلك السر ولكن اين العرفاء اين الادلاء اين المرشدون؟ اين الهادون الخيرون اين الحكماء الروحانيون؟ فينما هو يبحر الى الله بهذا القلب المنكسر واللب المنذعر واذا بصوت كالاول صعد اليه من غيابة سره تالياً عليه قوله عز وجل «الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس» فرمى بنفسه بين يدي أو تلك الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام رجاء ان يأخذوا بيده ليقفوه من هذا الدوران

الهائل ، وينقذوه من أسر هذه الحقائق الموبقة ، ولكن من الذي يقصدهمهم وهم كثيرون ، ومن الذي يستمد من روحه واكثر تعاليمهم قد حرقها المحرفون ، وبدلها المبدلون ، فانه ليروج في متاهة هذه الخيرة واذا بالهام يذكره بهذه الآيات . « انا نحن نزلنا الذكر وانا له حافظون » « ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم » ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » فلم يسمعه بعد ان ظهر له وجه الخلاص ، وتراءت له سفينة النجاة الا ان يعتصم بها من هول ذلك التيار الجارف ، ولكن هيهات كيف الوصول الى سلم السفينة وهو من موج احواله في هبوط وصعود ، ومن ثورتها في اضطراب يضيع الرشد والحيل ، ويفرى باليأس عن بلوغ الامل ، فبينما هو على مهواة القنوط واذا بك مرت به على هذه الآية « قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فلم انه لن يحرم من معونة مبدعه الذي خلقه ووعد به الهداية ، وصوره على هذا الابداع وحاطه بحسن الرعاية ، فلم يزل يأخذ نفسه بادب القرآن ، ويستمد نور طه عليه الصلاة والسلام حتى هدأت تلك الزعازع ، وركدت هاتيك الزماجر ، وقد كان يظنها لا تهدي . ثم منعه الله كرامة السكينة في فؤاده بعد ذلك الجيشان الابليسي ، والسكينة مشرق النور الالهي ، ومهيبط السر القدسي ، ومهب نسيمات الطمأنينة والراحة « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم » فازداد حباً في التأدب بأداب النبي الاعظم وتشبهاً بتعاليمه صلى الله عليه وسلم فقال على قدر ذلك قرباً من الحق الاقدم ، وتمتعاً بشهود الجمال الاقدس ، وبصر ابنور الخالق ، وشعوراً بلذة الرضا والاستسلام والتذاداً بذهلة العبودية ، وهياماً بما ينتظره في العوالم التي تلي هذا العالم « يهدي الله لنوره من يشاء » واكتسب ثباتاً في قوله وفعله ، ورزاقاً في فكره ونظره ، وزايلته تلك الحمى الشيطانية التي كانت تدفعه وراء المطالب الكاذبة ، وتستعبده للكمالات الوهمية السكسدة ، وارتفع عنه ذلك الطيش الحيواني ، والنزق الجنوني ، والخرق الشهواني الذي كان يلعب به لعب الطفل بالكرة ، ويستطيعه استطارة الريح للريشة ، فكان من الذين قال خالقهم فيهم « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً . الآية » ثم كان من أثر تلك الحالة الكاملة عليه ان افتتح له من قبل عالم الجلال

والجمال نافذة عليّة يصل اليه منها نور يغمر فؤاده ، ويحميه من غاشيات النفس المادية ،
ومفسدات المطالب الجسدية ويحجب عنه أفاعيل الشياطين التي لا تفتأ تنصب الانسان
العداوة والجفاء ، وتنصب له اشراك المسكر والخداع ، فيكون من هذا النعيم في حالة نغبته
عليها الاملاك ، وتخدمه فيها القوى الروحانية العلوية والسفلية . وتخضع له نواويس العوالم
المعنوية والمادية مما لها نسبة بحالته البشرية

هذا هو الرجل الذي يعتقد بالعالم الروحاني اعتقاداً ذاتياً ، وعمل بمقتضياته عملاً حقيقياً ،
ولم يكتف بالثرثرة به لفظياً ، فهو يعيش عبثة مباركة طيبة حاصلاً على سعادته ، وفرحاً
بكمال حالته « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياه طيبة
ولنجزيهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون »

آثره في الوجود

يظن الذين لم يذوقوا طعم العقائد ، ولم يتمتع فؤادهم بسبحات نورها سواء كانوا من
المنتسبين اليها او من اضدادها بأنها تغض من طرف الانسان عن الاحتفال بالعالم الفاني
وتبسط من حركته عن الرقي في مجال الكمال الصوري الجسداني وهو زعم لا أساس له
من الواقع . وما يروى من ذلك عن بعض الانبياء فان صح كان ذلك خاصاً بزمانهم
لحكمة يعلمها الله تعالى وهو امر لا يبنى عليه حكم فان تاريخ الرسل عليهم الصلاة والسلام
عامة وتاريخ امامهم وخاتمهم محمد خاصة يدل على ان اكبر الحوادث الاجتماعية التي بعثت
الى الكمالات الصورية والمعنوية تمت على أيديهم وبواسطتهم . على اني لا اعني بالكمالات
الصورية والترقيات المادية تلوين الاواني وتزويق الالبسة والتفنن في صنوف المآكل
والمشارب واقامة معالم المراقص والملاعب وتهتك النساء وذهابهن في الزينة والخلاعة كل
مذهب . كل هذه الافراطات يجدر ان تسمى نفثات شيطانية ونزعات حيوانية لا كمالات
انسانية ، وانما اعني بالرقي المادي المتنازع بالمزايا العظيمة التي خلقها الله لنا في الطبيعة وصرف
القدر الواجب من قوانا في تحسين حياتنا الجسدية تحسيناً لا يفتن النفس والعقل ، ولا يعدو
على الشرف والعرض ، ولا يصرف الانسان عن الجمال الباقي الى الوهم الفاني « قل من حرم

زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق »

اذا عجزت من هذا وقلت كيف يجتمع الزهد في الدنيا مع هذا السعي فيها ، قلنا :
الرجل الذي يعتقد بالعالم الروحاني يعلم تبعاً لذلك انه النسخة الصغرى لهذا الوجود كله ؛
وخليفة الله عز وجل في أرضه ، وانه قد منح من القوى المختلفة ذات القابليات العجيبة .
ما لا يحصره وصف الواصف ، أريد من هذا انه كلما ازداد تنوراً بعالم الروح ، واستشراقاً
لأنواره الباهرة ، ظهرت فيه قوى جديدة ، ومواهب لم يكن يحلم بها ؛ ويرى بالحس ان
تلك القوى لم تخلق فيه عبثاً ، ولم توضع في ثنيات فؤاده جزافاً ، بل خلقت لأغراض يجب
ان تسعى اليها ، ومرام لا تنفك تتطلع لها ؛ فيكون الذي يعتقد بالعالم الروحاني والحسالة
هذه مجبراً على اعمالها فيما خلقت له ، مسوقاً الى توجيهها الى مراميها التي طبعت عليها ،
عملاً بشروط خلافة الله في أرضه ، وقياماً على صراط العدل الذي هو طريق حياته ونجاته
وبناء على هذا فيكون دأبه على اعمال قواه واستخدام مواهبه على النحو الذي صورده عليه
مبدعه بقدر شغفه بكمال ذاته ، وكلفه بالصعود بها الى العوالم التي يتوق اليها ، لانه يعلم انه
لا كمال الا بأدائها ، ولا صعود الا بالنهوض بأعبائها .

هذا سر تلك المهم العلية ، والعزمات القوية ، التي تسوق أصحاب العقائد الحققة الى
جلائل الاعمال في هذا العالم الارضي مع زهدهم وتقاعده الطينيات في نظرهم
الرجل من هؤلاء لا يستثمر الطبيعة لينال منها لذة ، او بصيب منها وطراً ؛ فان ما
يشعر به من اللذة الروحانية تكفيه النظر للدنيا وما فيها ، ولكنه يستثمر الطبيعة لسكونه
يعتقد انه آلة من آلات الحياة ، ينشرها حيث يصل اليه امكانه ؛ وانه شعاع من نور
الكمال خلق ليكشف الغمم ويقشع الغياهب ، وانه عامل من عوامل الحق ارسل ليقارع
الباطل حيث كان وأنى وجد .

أنا لا أدعي ان جميع افراد الامم ذوات العقائد الحققة هم على هذا النمط من الكمال
وانما هذه الحال مخصوصة بافراد من تلك الامم يعدل الواحد منهم الالوف المؤلفة ممن
ليسوا على شاكلته . فاذا كان منهم مائة في أمة عظيمة فان ارادتهم القوية تستولي على
مجموع ارادات الملايين من أبناء جلدتهم فيسوقونهم الى حيث يريدون ويصبغونهم بنفس

صبغتهم ولو تقليدياً وليس هذا بعجيب بل أثر من آثار قانون الموازنة ألا ترى ان من كان جسمه اقوى كان جذبه لمن هو دونه مناسباً لتلك القوة ؟ كذلك من كانت روحه اقوى جذب من هو اضعف منه لا محالة وحركة بحركته . ومن هنا ساع لنا ان نقول ان روح خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم اقوى الارواح التي ظهرت في العالم لتأثيرها في الارواح المحيطة بها تأثيراً لم يمهده مثل في تاريخ الانسان

✽ حال الذي لا يعتقد بالعالم الروحاني ✽

حاله على الضد من سابقه بمعنى انه وقف من وجوده في الدائرة التي حددتها له حواسه وقصر الكون كله على ما تبصره عينه وتلمسه يده ويتأثر به ذوقه وسمعه وشمه .

بحث عن روحه وعن عالم الغيب فلم يحس بهما بواحدة من تلك الحواس فانكر وجودهما ، وأراد ان يعمل وجوده ووجود الكائنات على غير الطريقة الاعتقادية فاخترع اسما انتزعها من حال الموجودات وعلاقتها ببعضها وسماها نواميس طبيعية وزعم انها قديمة كقدم جوهرها وهي المادة ، فزعم انها هي التي ابتدعت كل هذا الابداع الباهر في ملايين لا تحصى من السنين ، وان ليس الكون وما فيه الا سلسلة غير متناهية . تولد الدنيا من الدنياوات فتعمل فيها النواميس المتسلطة عليها فتظهر عليها الكائنات الجامدة والحية . ثم تلبث ما قدر لها ان تلبث ثم تتلاشى وتتحطم بمصادمة كوكب آخر لها او بسبب آخر وهكذا الحال ابد الآبدين ودهر الدهرين

ولكن كيف العمل وهو من ادوار الحياة مسوقاً بنفس التيار الذي كان يسوق صاحبنا المعتقد ، ومن هم العيش ومنغصاته على ذات الحمال التي وصفناها هنالك ! ويزيد عليها امر افزع عليه من كل ما سبق وهو اليأس من الخلاص !

يرى هذا الرجل نفسه من مضاضة العيش ولو اعيج الحياة على أحر من الجمر وأمضى من المهند المصقول ، ويرى المصائب تترى من بين يديه ومن خلفه عليه وعلى أهله واخوانه وبني نوعه . ثم لا يرى له من ذلك مخلصاً ، ولا يتخيل ان له منه معزياً ، ولا يتوهم ان وراء هذا الطور المضطرب طوراً من الحياة يرتاح فيه ، ويلتذ باتظاره وتمنيه !

ينظر الى مناجل الموت تحصد حوله الرقاب ، وتهدم القصور والقباب ، ويرنو الى
مقذوفات البلايا تهوى بالارائك والعروش ، وتحطم الملوك والجيوش ، ويلتفت الى ما بين
يديه وخلفه فيرى صرعى هذا العالم القاني يستثرون الذعر من أعماق الصدور ويستجيشون
الخوف من القواد الصخر ، ثم يلتفت الى نفسه فيراها فضلاً عما هي عليه من الحال المقيم
المقعد ، هدفاً لقارعة تذهب بانفاسه ، وترجه الى شق من الارض لا يقيم بعده رأساً ،
ولا يحير جواباً ، تسلط عليه فيه الهوام والحشرات تستأصل عناصره وتمتص نخاع
عظامه ، ثم يلحظ فلا يرى له من ذلك الامر محيصاً ولا مفرأ ، ولا يتصور دونه منجاة
ولا مستقراً ، فكيف تكون الظلمة التي تلم بفؤاده والألم الذي يحل بمعناه ، والكمد الذي
يستولى على لبه ، والنكد الذي يخيم على كيانه ؟

لا جرم ان كل هذه الأمور المزعجة تدفعه رغم انفه لطاب المخلص في العالم المادي
وتدفعه في ذلك السبيل دفعا قهريا فيتجه بمجموع قواه الى الماديات لتحسين حياته اتجاها
جنونيا ، لا التفاتا كاليا ، فينال منها شأوا لا يستهان به « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها
نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » ذلك لأن الله سبحانه خلق الانسان وقذف
به الى الأرض وركب فيه من القوى والمواهب ما يسيطر على قوى الطبيعة وتصلح لما
فوق ذلك من تسخير القوى الروحانية ايضاً او بالأقل لاستثمارها والاستفادة منها . فهو
ان طلب الدين وحده ناله وان طلب الدين والدنيا معا حصلها ووجد من قواه ما يساعده
على ذلك ، وان لم يرد الا الدنيا وحدها بلغ منهاه منها فان منح الله معروضة لكل من طلب
كما قال سبحانه : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . »

✽ أثره في الحياة ✽

تصنع ساعة من الساعات حال الذي يئس من وجود الآخرة ، وهب انك ممن
لا يرى في الوجود الا ما يحسه بمشاعره القاصرة ، وادفع بنفسك في معمعان الحياة
وويلاتها واستورد على فكرك اليوم الذي يلتف فيه الساق بالساق ، وتبلغ النفس التراق
وتخيل مضاضة تلك اللحظة التي يخمد فيها الحس والشعور ، ويدس فيها الانسان الى اعماق

القبور ، بعد سكنى القصور ، تاركاً مالا جمعه بعد طول التعب ، وافلاذ كبده رباهم بالجهد والنصب ، واخوانا شاطرهم الحزن والطرب ، ومعهده اوطار نال فيها الأرب... قلنا تصنع ان تكون في هذه الحالة الحرجة ساعة من الساعات ثم انظر ما يلم بفؤادك من الم ووجع ، وما يحيط بمعناك من ظلمة وكرب ، ولكن لا تعجل بالخلاص مما أوقعت نفسك فيه بل انتظر قليلا . وتأمل في ثورة عواطفك تأملا طويلا . تر أن اليأس الذي خيم بفؤادك استحال الى حمى تدفعك لتلمس عن الآخرة عوضا . وترعجك لترتاد عن الخلود بدلا . وتراك اندفعت اندفاعا قهريا لأن تحصل من لذائذ هذا العالم اقصى ما يصل اليه الأمكان وابعده ما يناله الجهد والعرفان . تراك تستسهل خوض الصعاب والعقاب . وتستهن اقتحام المخاوف والأخطار . جريا وراء المطالب الكبار . والراغب الجسام . ولسان حالك يقول :
(واذا لم يكن من الموت بد • فمن العجز ان تكون جباناً)

وترى ان هذا اليأس نفسه قد البسك نفس الصفات التي تكسبها العقيدة للمعتقد من حيث الجدل لاستثمار الطبيعة ولكن مع هذا الفارق الجسيم : وهو ان صفات المعتقديكون سابقها اداء واجبات خلافة الله ، وتنمى نظام الوجود في اكمل معناه ، وتجليته في عالم الامكان باجل مجلده ، والجري وراء الكمال الروحي باستعمال سائر قواه فيما خلقت له : فيكون بذلك ساكن الفؤاد مطمئن الجاش ، هادي الضمير ، غير محاب بمحى الطلب ولا رعونة الحاجة ، خالصا من نهم الحس وثورة المشاعر ، ناجيا من وخزات الشهوات وطعنات الالهواء ، واما غير المعتقد فيكون مسوقا الى العمل والاقدام باغراض سافلة ، ومغفوزا الى الهمة ولكن بعوامل هائلة ، لا يفكر الا في ايتاء جسده غاية لذاته ، واقصى امنياته ، فيلازمه الشره اينما سار ، وينقصه النهم حيثما دار ، يطلب فلا يجمع ، ويأخذ فلا يشبع ، له في كل نظرة وخزة من شهوة ، وفي كل لحة طعنة من رغبة ، يريد ان يحصل ما يؤمله ، فان ناله كان نيله سببا لزيادة همه وتفاقم غمه

من هنا ترى انه ليس بعجيب ان ينال غير المعتقدين مدينة زاهرة . وحضارة باهرة ولكن لا تنس ان بواعثها هو ما اصف لك ولذلك لا ترى فيها نصيبا للروح . ولا قسطا لكرائم العواطف . ترى ان الحق فيها مع القوة . والحكم للسيف والقوة للضعفاء

فيها اسرى الاغنياء ، وعبيد الاقوياء ، يستغيثون فلا يغاثون ، ويحسرون فلا يجابون ،
 ويتعصبون فيهنز مون ، ويضربون عن العمل ثم يرغمون ، فلا يكون لهم من حيلة بعد ذلك
 الا العمل بمبادئ القوضى : يترصدون لقتل الملوك ، ويعملون على تل العروش ، وينابذون
 الأديان ، ويهزأون بالمعابد والكهان ، وينتظرون بالأثم الدوائر الجسام ، والخطوب العظام ؛
 يشكو عقلام هذه الامم من سوء الاحوال ، ومن ضياع العواطف القوال ، ويذكرونهم
 بواجبات الكمال والاعتدال ، وينذرونهم بسوء المآل ، ولكن من يسمع ومن يجب !
 القوم سكرى ، من حمى الشره والنهم ، وصرعى من دن الشهوات والفتن ، فلا يفيقون حتى
 تنزل بهم القوارع تلوها القوارع ، وتوقظهم الحوادث تتبعها الحوادث : « لنذيقهم بعض
 الذي عملوا لعلهم يرجعون » والا فقد عرضوا أنفسهم لما حاق بالاولين من المكذبين :
 « فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم »

✽ المعتمد بالوراثة ✽

هو رجل وجد أبويه على ملة من المال فدرج عليها ثم كبر ولم يحكم فيها نظراً ولم يعمل
 فيها فكراً بل قنع من الحياة ونعيم الوجود بما حصله له آباؤه من الرقي المادي فجعل هذا
 الميراث حفظه من الدنيا ورام ان يبق في يديه كما ورثه ثم ينتقل الى اولاده وأحفاده لا ينقص
 شيئاً فاشبه في ذلك من يرث عن أبويه مالا فيجتزئ به غير طامع في سواه ولم يدر ان
 حفظ المال يحتاج لعلم وعمل ، ويلزم لاستبقائه او اتمامه حالة من الحالتين : اما عقيدة تعرفه
 انه هو وماله لله ، وان كليهما مخلوق لتنظيم ملك الله ، فيسعى له اقامة لامر الله ، وردعاً عن
 مناهي الله ، فيكون كالمسلمين الاولين حيث انصبت الى خزائنها ماليات الامم بمحض
 قيامهم بخلافة الله . وأما ان يكون بلا عقيدة فيظن ان اموال قوام الحياة ، وقيمة الانسان في
 الوجود ، ودستور الامم والشعوب ، ومفتاح السعادة والنعيم . . . فيسعى لطلبه بكل الوسائل
 والحيل كما هو حال اكثر أمم هذا العصر . هذان هما السبيلان لاستغلال المال واستبقائه .
 كما انهما السبيلان لايجاد كل مدينة واستمرارها . أما الذي هو لا الى هؤلاء ولا الى
 هؤلاء فلا يصلح ان يكون مستقلاً في نفسه لان الارض لاحد رجلين : اما الرجل المعتمد

ان الارض لله فيأخذها صيانة لامانة الله وأداء لخلافته واما هي ارجل يعتقد انها جتته
ومأواه . وليس له غيرها اله ، يتكأب عليها تكأب الضواري على فرائسها . وينذل في
سبيلها كل ما يملك من حول ومن حيلة

أما صاحبنا الذي يعتقد بالوراثة فليس واحداً من هذين الرجلين : انه ليس بمعتقد
لانه غير عامل بعقيدته ولا جاحد لانه مقر بقبح الجحود وبشاعته . فهو وسط بين الاثنين
وليس له الاتحمل أحد النيرين : فأما ان يرضخ لسلطان صاحب العقيدة فيحبيه بحياته .
ويصرفه بحركته ؛ وأما ان يقع تحت ضرس غير المعتقد فيعزقه ثم يزدرد مع ما يزدرد .
نعم العقيدة بالوراثة ما لم يعزها الذوق الذاتي لا تقيده صاحبها في الدنيا شيئاً ولا أدري
ماذا يكون نصيبه في الآخرة . لا تقيده في الدنيا لانه محروم من دافع العقيدة ودافع
الجحود معاً . لان المعتقد له من شعوره بأنه خليفة الله في الارض اكبر باعث على استغلال
الطبيعة و احياء مواتها والذهاب في الابداع فيها كل مذهب . وتاريخ آباءنا الاولين اكبر
شاهد ، وغير المعتقد له من يأسه من الآخرة اكبر سائق على التكأب على الدنيا والتتم
فيها بكل الوسائل الممكنة . أما الذي اكتفى من العقيدة بمحض تذكره ان أبويه كانا
مؤمنين . فلا يحس بأثر دافع من ذينك الدافعين . فلا جرم لا يجد في نفسه لذة العقيدة
ونورها الذي يضيء عليه مسالك الحياة . ولا حتى الجحود ويأسه الذي يسوقه لكل ما
ينعمه في دنياه . وبناء عليه فلا يكون نصيبه من الحياة الا التمتع المؤقت بمراث آبائه فلا
يلبث ان تفشاه غاشية من صولة الامم الطامحة فتجعله لقمة سائغة وتذهب به الى حيث
ذهب الغافلون من كل الامم .

❦ الفضائل والذائل ❦

قد أكثر الناس في هذا العصر خصوصاً من ذكر هاتين اللفظتين وجلوا بهما في
كل مجال فنشأت بأزائهما شبهة قوية في الدين يكثر ترددتها على السنة المشككين . فيقولون
مثلاً : « انكم تدعون ان الفضائل قوام الامم وملاك الحياة . وان عدمها نذير التلاشي
ومقدمة الدمار فما بالكم ترون الامم التي ترعمون انهم أحط منكم في الفضائل او انهم

مغبورون في الرذائل قد سبقوكم الى باحات الرفعة والعظمة وأخضعوكم لنيرهم ؟ » ليس حل هذه الشبهة بالامر الهين الا اذا استسناه على قاعدتها الطبيعية وذلك لا يتأتى الا بما قررناه آتيا من ان الناس ثلاثة أقسام قسم يعتقد بالعالم الروحاني ، وقسم لا يعتقد به ، وقسم يعتقد بالوراثة فهو وسط بينهما . وقد قررنا بواسطة التحليلات الفلسفية ان لكل من المعتقد وغير المعتقد دافعا يدفعه الى الرقي والتقدم ، وان رقي الاول يشمل الرقي الروحي والجسدي وأما الثاني ففرقه محدود في عالم المادة فقط ، وقلنا ان المعتقد بالوراثة لا حظ له من أحد هذين الدافعين . وانه لا يليق الا أن يكون تبعا لاحد هذين الصنفين . والآن نقول ان ذلك الدافع القاهر الذي يدفع المعتقد للتقدم للامام هو (طلب الكمال) بمعناه الحقيقي . هذا الدافع هو مبدأ الذي يسير على مقتضاه ، ويجعله دستور في كل أمر من أمور ديناه . وأما غير المعتقد الذي يرى نفسه مدفوعا لتكميل بدنه واشباع حواسه فببدأه (تنازع الحياة) لانه لا يرى سعادته الا في نيل أقصى ما يستطيعه من المال والجاه فتراه يتنازع الناس فيهما منازعة اليأس المستعيت بما يراه أحسن الوسائل .

هذان الدافعان دافع طلب الكمال ودافع تنازع الحياة دافعان عظيمان للحياة ودستوران كبيران للبقاء فهما من هذه الجهة فضيلتان طبيعيتان ، ولكنهما لعالمين مختلفين . أما فضيلة طلب الكمال فهي فضيلة العالم الانساني لانها تلائم سمو فطرته وتوافق جوهر عنصره كما أريناك ذلك في الفصول السابقة . وأما فضيلة تنازع الحياة فهي فضيلة العالم الحيواني بأسره لانهم عائشون بهذا الدستور وهي بالنسبة لهم فضيلة طبيعية مقيمة لحياتهم ولا يصح أن نعتبر عنها برذيلة الا باضافتها للنوع الانساني لانها لا تليق به ولا تؤديه الى غايته التي خلق لاجلها . ومن هنا ترى ان اللامم الخيار في القيام على أحد هذين الدستورين لانها نجما بكل منهما حياة طبيعية ولكن مع هذا الفارق الجسمي وهو ان الامة التي يكون مبدأها (طلب الكمال) تنال كمال الروح وكمال الجسد معا كما حصل لاتباع الرسل الذين يقول الله تعالى فيهم : « فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسْنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ » . وأما الامة التي يكون مبدأها تنازع الحياة فلا تنال الا كمال الجسد وحده كما قال تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون »

بيان طبيعة هذين المبدأين

مبدأ (طلب الكمال) الذي هو دستور المؤمن مرتكز مباشرة على الاعتقاد بأن الانسان جسد وروح . وان روحه هذه هبطت اليه من عالم التقديس والجمال لتبلى في الدنيا الى حين ، ولتم بهذا التدلي ابداعا قدره الخالق لا يعلم سره الا هو ، وانها بعد أداء وظيفتها في العالم تخرج الى عالمها على جناح جهادها الحيوي الى حظائر النور الاقدس في عالم فيه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتنضم هنالك الى أرواح عالية سبقتها بالكمال والايمان فتبقى معها بقاء أبديا سرمديا في نعيم مقيم ، وراحة لا يشوبها ألم . ولا يخفى على الناظر ان هذا ارتقاء في الشعور ارتفع به الانسان عن عالم الحيوان الذي لا حظ له من الوجود الا التكالب على أشباع كرشه وايفاء حاجة حواسه .

أما مبدأ الذي لا يعتقد بعالم الروح فهو (تنازع الحياة) لا طلب الكمال . وهو مبدأ مؤسس على الزعم بأن الانسان لم يخرج عن كونه أرقى الحيوانات ولا فرق بينه وبينها في شيء على الاطلاق الا في كونه أرقى منها عقلا وأوسع ادراكا وأقدر على استثمار الطبيعة بما وهب من الآلات الجسمية : وانه ليس له من الحياة الا ما قدر لجسمه من البقاء سنوات معدودة ، ثم اذا مات تحللت عناصره في الارض وذهب كل عنصر الى ما يشبهه من عناصرها ، وفنى عقله وادراكه وذهب الى هوة العدم كما تذهب الدجاجة والهريرة سواء بسواء : وان الانسان لا مناص له من أن يكون مع معاشريه في حرب مستمرة ينازعهم الحياة وينازعونه اياها والغلبة في هذه الحرب تابعة للقوة العضلية والفكرية . فمن كان أقوى بدأ وعقلا كان أحق بشرة الحياة دون غيره أما الضعيف في الجسم والفكر فلا يكون نصيبه من المعيشة الا النكد الواصب والهم الناصب ، ولا بأس عليه بعد ذلك ان سئم الحياة وأرسل نفسه الى عالم العدم . أما الصفات الحمودة والخصال الشريفة فليست مطلوبة الا لما تجر اليه من المنافع المادية والادبية في دائرة هذه الحياة وحدها .

أصحاب هذا المبدأ لا يوجبون البشاشة مثلا لكونها خلة من خلال الكمال التي لا يشا كل بها الانسان سكان عالم التقديس ونهيشه لجوارحه متى فارقت روحه الجسد ، ولكنهم يوجبونها

استجلا بالرضى المعاشرين الذين يتعاملون معهم واستدرا لالربح منهم ومزاحمة لمن يؤدي مثل وظائفهم .

وبناء على هذا فالفضائل والذائل لدى أصحاب هذا المبدأ دائرة حول حطام الدنيا ونعيمها ، وهو بعينه مبدأ العالم الحيواني تقوم عليه طوائفه برمتها . ولها العذر في ذلك فإنها محدودة القوى والمواهب محصورة العقول والملكات ، لا تشعر بغير ما تحس به ولا تتخيل مرمى وراء ما تنظره . أما الانسان الذي لا يقف عقله عند حد ، ولا ينتهي تصويره عند غاية . فأشد ما يظلم به نفسه أن يحشرها الى أدنى من عالمها . ويسلبها أشرف خصائصها .

هذا المبدأ الحيواني أى مبدأ (تنازع البقاء) يصلح لأقامة أمر الطوائف الانسانية ، بل ويبعثها للرقى والفلاح في السعادة الجسدية ، لانه لم يخرج عن كونه مبدأ طبيعيا تقوم به أشخاص لا يحصى لهم عدد من الكائنات الحيوانية ، ولكن فيه غيب فاحش على الانسان ، لانه بقيامه على هذا المبدأ لا يحصل الا الحياة الدنيا ثم لا يزيله الهم والكدر طرفة عين ، ولا يدعه الكمد والوحشة يطمئن الى شيء ، وكثرة المتحيرين في الامم القائمة بهذا المبدأ دليل محسوس على ما نقول .

أما مبدأ (طلب الكمال) فهو المبدأ الكامل الذي يليق بالانسان ويجدر به لانه يكسبه الحيوانين معا كسبا طبيعيا لان الكمال في ذاته الغاية القصوى التي ينتهي اليها كل شيء ويخضع لها كل شيء . فما من شيء الا وله كمال خاص خلق مسوقا اليه فاما أن يحصله فيعيش على اكمل صفة من وجوده الخاص ، واما أن تصرفه عنه الصوارف فلا يزال يتخبط في كيانه حتى يلفظه الوجود الى تيهور العدم . ولما كان الانسان أكمل الكائنات وجب أن يكون كماله أكمل الكمالات ، فلا جرم انه متى تكمل امتلك سر نواميس الكائنات التي في عالمه فتخضع له خضوعا اضطراريا ، فتأتيه الدنيا بخذافيرها صاغرة تقبل قدميه وتقف بين يديه ، ألم تر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نهض هو وأصحابه يؤدون واجب الطاعة لله في طلب الكمال خضع لهم كل شيء وخافهم كل شيء ، وانحدرت اليهم سائر خيرات الارض انحدرا لم ير مثله في تاريخ الفاحسين . فانظر كيف أنهم قاموا لمحض طلب الآخرة ، فجاءتهم الدنيا صاغرة ، والاعجب من ذلك أنها هربت اليهم من أولئك الشعوب

الذين كانوا يعبدونها ويسجدون لها، ولا يعرفون لهم كالا سواها، ورضيت أن تكون الخادمة الخاضعة لأولئك الفضلاء الذين كانوا يمجونها وينكرونها ولا يحفلون بالنظر إليها في حسناتها وبهاياتها.

أما تلك الأمم التي تجعل مبادئها في الحياة كمبادئ الحيوانات العجباء فلا يكون لها حظ إلا في الحياة الدنيا ولا تسكاد تنالها إلا باتخاذها الها من دون الله، وصنما لا ترى لها ملجأ سواه، وناهيك بما في هذا من الإذلال لتلك الجبهة الانسانية الشماء التي لم تخلق إلا لتحاذي السماء.

أما لو علم الناس أن مفتاح السعادة الحقة هو طلب الكمال وأن سبيله سبيل الله لما أذلوا أنفسهم هذا الذل الفاضح ولطلبوه من صميم أقدسهم فنالوا سعادتي الحياتين معاً، وإلى هذا السر العمراني الكبير يشير الله تعالى بقوله: «من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة».

﴿ المدنية الاسلامية والمدنية الحديثة ﴾

الاسلام دين الله وهو الحقيقة المطلقة التي استودعها من عهد نشأة الانسان قلوب سائر الانبياء والرسل الكرام « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا الخ الآية » ولكن كانت أبدي تلك الأمم الجائرة تمتد إلى تلك التعاليم بالتحريف والتبديل رجاء أن يطبقوها على ما يناسب مقتضيات النقص الذي هم فيه، ودام هذا الحال آماداً حتى اقتضت الحكمة الالهية ايداع هذا السر الاقدس لخاتم أنبيائه ونخبة أصفياؤه محمد صلى الله عليه وسلم في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد حماه الله من امتداد الابدى المحرفة اليه، وصانه من عدوان العادين عليه، وهو إلى اليوم كما أنزل يقيم الحجة على العالي والمقصر. ويشير المعتدل وينذر المعذر، ويشير إلى الطريق الذي لا يضل سالكه ولا يخاف طارقه، وهو طريق العدل المستقيم « وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

الغرض الاصل من الاسلام تخليص الانسان من قدر الترية الفاسدة، وأثر الوسط

الرديء ، ووضر الوراثة الساقطة التي تلم بمجموعها بفؤاد الانسان فتحرمه من سبحات نور مبدعه ، وتعميه عن رؤية الطريق الذي دفعه فيه مولاه وهو الطريق الذي يقول عنه عز وجل : « انا هديناه السبيل اما شاكرآ واما كفورآ . » هذا السبيل هو سبيل الكمال ، هو سبيل الجمال ، هو سبيل الرحمة ، هو سبيل الهدى ، وان شئت التعبير باللهجة الجديدة فقل هو سبيل التقدم ، هو سبيل التمدين ، وهو السبيل الذي سار به خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم بوحي من مولاه فكان من شأنه ما كان ، وسار أصحابه من بعده فأصبحوا ملوك الارض وملوك السماء .

أنا لا أريد بالمدينة الاسلامية والمدينة الحديثة مبلغ الرقي الصناعي في كليهما ، ولا ولكني أريد الروح التي ساقط اليهما وأقامتهما على قطبيهما . والسبب الذي يجعلني أفضل روح الاولى على روح الثانية ، هو لكون تلك مبدأها طلب الكمال بأخص معانيه وهو المبدأ الجدير بالانسان ، المناسب لما وهب من المنح الجسام . لدفعه الانسان الى طريق الحق والعدل واكسابه حظ الحياتين معا ، أما هذه (أى المدينة الحديثة) فمبدأها تنازع الحياة وهو المبدأ الذي بسطنا أثره في الفصول المتقدمة وقلنا انه لا يناسب الكمال القطري للانسان ، وان فيه غبنا عليه لعدم صلاحيته الا لنيل الحياة الفانية دون الباقية . على اننا لسنا أول الناعين على هذه المدينة نقص مبدئها فان عقلاءها أنفسهم يشاركوننا في هذا النظر وقد نقلنا كثيراً من أقوالهم في ذلك في الصحف السابقة .

وربما يقول قائل : « ان كنت تنقم على من يدعون الى الاخذ بأسباب المدينة الجديدة والسير على قوانينها فهل أنت ممن يسهل عليه أن نبقى كما نحن تتناولنا الحوادث وتتقاذفنا المشكلات ونحن بين ذلك في حال لا يرضى به من له مسكة من شعور ؟ ألا تخضع لقول القائل من اننا في عصر لا مناص لنا فيه من تقليد المتمدنين في جميع شؤونهم بدون شرط لنستطيع مجاراتهم في الحياة وحفظ شخصيتنا بازاتهم ؟ » نقول اننا ممن يرى ان دون التمسك بأصول المدينة الحديثة على علائها وبمحض الدعوة الاجمالية اليها عقبات اجتماعية وحوائل أدبية ومادية شديدة المراس . بحيث اننا لو أضعنا وقتنا في محاولتها ومعالجتها لذهب انما بنا ادراج الرياح ولم نجن من وراء ذلك الا تجربيء أصحاب الاهواء الى الجرى

وراء شهواتهم بغير مبالاة تحت ستار الفكر الجديد وحجاب الاخذ بأسباب الحضارة . ألم تر أنه من يوم ظهور الدعوة فينا الى لزوم التمسك بآداب المدنية الجديدة لم نحصل من ورائها غير الخسران والبوار ولم تفعل فينا الا تشجيع الشبان والكهول على الانطلاق في ميدان الاباحة والحرية البهيمية . بحجة أنهم طليعة النشأة الشرقية .. والسابقون الغيورون في طريق المدنية وماذا تنتظر لنا من النجاح والفلاح لو تبعتهم البقية الباقية .

إذا تقرر هذا فمندی أن نداعينا الى الرجوع الى مبادئنا الاصلية القويمة أضمن لحياتنا وأقرب لاصلاح أحوالنا من تلك الثرثرة باسم المدنية الحديثة التي رأيت من أثرها مارأيت . فان قيل : هب أنك غير واهم في قضيتك من امكان الرجوع الى الفضائل الاسلامية الطاهرة وهب اننا أصبحنا كلنا فضلاء أتقياء . فماذا يفيدنا ذلك امام قوة هذه المدنية الجديدة من حيث الصناعة وأساليب الاستعمار .

نقول أما كوننا غير واهمين في أن الدعوة الى الفضائل الاسلامية تفيد فائدة عظيمة في الرجوع اليها مهما قاومتها الاحوال السافلة التي وقعنا فيها ، فذلك أمر ليس بمجيب ولا هو بدع في تاريخ الطوائف الانسانية . فانا من المضانك الاجتماعية والارتباكات المادية والادبية في الحال التي تصلح لتدفعنا رغما عنا الى طلب المخلص وارتياح الملجأ بكل الوسائل ولو درس الناس سر التناف الشعب بحذافيرها حول المصلحين لرأوا ان من أكبر أسبابها ما هم فيه من الاخطار التي تهددهم بالزوال والتلاشي ، فان الطبيعة الانسانية مجبولة على عدم الاستسلام للفناء الا بعد نضوب مادة ما أودع فيها من المقاومة والمقاومة . ونحن بما نرانا فيه اليوم من الشعور بلزوم المخلص ، لا نظن ان بيننا وبين الاخذ بالفضائل الحقبة الا دعوة داع متعظ ، وارشاد هاد مهتد ، وليس يبعد أن يتسلا فانا الله بنبوغ ارواح كبيرة تنشر الحياة حولها وتكشف عن الاعين والعقول تلك النعم التي انسدت عليها من غاشيات الغرور والغفلة . أما الشك في أثر الفضائل أمام قوة هذه المدنية فهو غمط لحق الفضيلة ، وجهل لأثرها على نفوس الآخذين بها . أنا لا أعني بالفضيلة تلك الظواهر التي تبدو على بعض ضعفاء النفوس كاللين والبشاشة والانعطاف والخلق الخ من الاخلاق التي يظنها الناس فضائل وقيسون الفضلاء على أصحابها فيشكون في آثارهم في بناء صروح مجد

الامة واعادة شرفها . وان لهم العذر في هذا الشك ما داموا لا يميزون بين الضعف الذي يؤدي للحشمة والوقار واللين والهشاشة والسخافة وبين الفضيلة التي لا حد لسلطانها على النفوس .

انا ان قلت فضيلة فانما اعنى بها تلك الروح السامية التي تهبط على النفوس فزعج أصحابها عن الوقوف في قدر النقص ، والخوض في حمأة الدنابا وتهيب بهم الى مسابقة الامم في مزايا الحياة ، ونعمة البقاء ، وليس بعظيم على أمة تهبط عليها هذه الروح أن ترقى في السنة الواحدة مالا يرقاه غيرها في قرن من الزمان

ليس ما أقوله بالشعر ولا بالخيال فقد هبطت هذه الروح العالية على أصحاب المصلح الاعظم بواسطته صلى الله عليه وسلم وهم من القلة بحيث لا يتجاوزون عقود العشرات وحواليهم من الاعداء الالداء والصناديد الاقوياء والاضداد العتاة ما كان يكفي أن يزرع البأس في قلوب أضعاف أضعافهم ممن ليسوا على منهاجهم فلا يعودون يذكرون النهوض ولا نمنا ، ولكن روح الفضيلة قوة الهية لا يعرفها الا الفضلاء ، فلم تزل تفعل فيهم فعلها حتى رأينا تلك الشرزمة القليلة جذبت اليها العواطف والقلوب وانضمت الى أمثالها بسرعة مذهشة ثم تحركت حركة صارت بها صاحبة السلطان الاقوى على أكثر المعمور .

ان تعجب من هذا فأعجب منه رجل يرى هذا الاثر المدهش وينكر معه أثر الفضيلة أو يشك في أنها قوة لا تقف أمامها القوى ولا تمنع انتشارها الحوائل « أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم الغالبون »

﴿ رجوع للمقصد الاصل ﴾

يقول قائل لقد طقت بنا من شعب المباحث في مناح شتى ومطارج بعيدة وجعلتنا بذلك كما قلت في دائرة محدودة يحيط بها البصر من أول نظرة ويستطيع قارئك أن يشطح معك الى حيث أردت ثم يعود الى مركزه على طريق مستقيم لا يتعداه ، الا أنك قسمت الناس الى ثلاثة رجال وقلت أن أحدهم رجل يعتقد بوجود العالم الروحاني وعامل بما يقتضيه اعتقاده ، والثاني جاحد به ، والثالث يعتقد ورائة عن آباءه وقومه فهو لا الى هؤلاء

ولا الى هؤلاء ثم فصلت المبادئ الحيوية التي تنتج من عقيدة كل رجل من هؤلاء الرجال الثلاثة فقلت : ان مبدأ الاول (طلب الكمال) ومبدأ الثاني (تنازع البقاء) والثالث لا مبدأ له بالكلية ، ثم سرت في تفصيل هذه التقسيمات ما شاء الله ان تسير ولكن بقي عليك أمر أعظم خطراً وأشدّ مراساً من كل ما سبق وهو اقامة الحجّة اليقينية على وجود ذلك العالم الروحاني ونصب الدليل الواضح المحسوس على أن الذي يعتقد به ليس يضرب في بيداء الخيال ولا يسبح في آل الوهم خلافاً لما يزعم أعداء العقائد ، وسامسة الاحاد ، نقول نعم بقي علينا ذلك وهو المفتاح الوحيد لمغالي كل الشبه المتقدمة ولكن سلوكنا ذلك السبيل يستدعي توجيه نظر قارئنا الى حقيقة رئيسية وهي أن نكران عالم الروح ليس بنتيجة علم من العلوم ، أو زبدة فلسفة من الفلسفات نشأت في قرن من القرون ووقفت حيث هي بحيث أن ذلك العلم أو شارف تلك الفلسفة انكر الروح والخلود . كلا وانما ذلك الانكار حال يترى النفوس المستعدة له فيسلب عنها أجل صفاتها وهي الطمأنينة للحق ويجعلها مسرحة لشياطين الشكوك والريب حتى أن الواحد من المصابين بهذا المرض يشك في وجود ذاته ووجود الكون المحيط به من كل مكان وقد حكى الله لنا الوصف المميز لهذا المرض فقال تعالى « ولو أنا فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »

ذلك الحال الذي يحل بالنفوس وينشب فيها ، فيلقتها عن ذاتها ، ويطوح بها في متاهات الشك ، ومحارات الشبه ، ويحول بينها وبين انوار الحق الواضحة ، لا يحصل من قراءة علم مخصوص كما قدمنا وانما يحصل كما تحصل كل حال من الاحوال الانسانية بواسطة اسباب كثيرة منشأها التربية والمعاشر وروح المدنية التي فيها الامة ، ومقام دينها السابق من الضغط على العقول والافكار . او من الحرية والاطلاق الخلل من الأسباب التي تشكل الطباع والاميل ، ونصب الرجال في قوالب لا يقدر على بعضها أي علم من العلوم ومن ينتقد حال الأوربيين في القرن الماضي والقرن الحالي كان ولم يزل يرى ان الاحاد في بعض طبقات العامة اكثر منه لدى العلماء انفسهم مما يدل تمام الدلالة على ان الانكار لا يأتي من صفة العلوم وحدها بل من الأسباب الاجتماعية والأدبية التي تعيش

الامة في وسطها أيضاً.

وربما يظهر لنا بواسطة الاستقراء والتحليل ان تلك الاسباب الاجتماعية والادبية أشد
فعلا في احداث تلك الحال الالحادية من العلوم التي يقصدها بث الالحاد والجمود
﴿ كيف كان العالم ﴾

(قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم)

نحن لانستطيع أن نخلى مقدمة هذا التفسير من الالماس بطرف من ذلك الحادث
الوجودى الجلل وهو بعثة خاتم النبيين محمد صل الله عليه وسلم الى الامم كافة : انسها
وجنها . أبيضها وأسودها . ونقدم لذلك هذه المقدمة عن لسان أجنبي عنا
كتب المسيو (جول لا بوم) في مقدمة فهرسته الذى جمع فيه الآيات القرآنية
الشريفة المتماثلة تحت عنوان محمد ما يأتى :

« لاجل أن يفهم الانسان تمام الفهم أى دعوة من الدعوات الدينية يلزمه أولا الالماس بحال
الداعى فى ذاته . ولاجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التى وجه
همته للتأثير عليها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التى خصصناها للمشرع العربى
مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الاسلامية .

« حوالى ميلاد محمد (صلى الله عليه وسلم) فى القرن السادس الميلادى كان جو العالم
متبدلاً بغيوم الاضطرابات والفتن . فكان شعب (الوزيرغو) الآريين فى اسبانيا وفرنسا
الجنوبية يصاولون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكين فكانوا من أجل ذلك يطلبون
مساعدة امبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستينيان) ثم جبروا الى الدخول معه
فى حرب جديدة تخلصا من سلطة القواد الذين جاؤهم بتلك المساعدة فقد كانوا يزعمون ان
لهم حق الفاتحين لا مجرد ولاء المساعدين المحامين

« أما فى فرنسا نفسها فكان أولاد (كلوفيس) هذا متغادرين متسافكين وكانت
الحروب التى شبت نيرانها بين الملكة الوزيرغوتية (برونهو) والملكة الفرنكية (فيريديجوند)
تهبى للتاريخ أشد الصحائف اثارة للاسى والكد .

« أما فى انجلترا فكان (الانجاء) ينازعون (السكسونيين) الارض التى احتلوها

واستعبدوا فيها ذرية (كيمريس) وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التي تتطلع اليوم للوقوف في مقدمة الأمم علما وصناعة وقوة ، وهي التي كانت في ذلك الوقت مجالا للقوة الوحشية السائدة في تلك الغياهب الخالكة .

« أما في إيطاليا فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد أهميته القديمة وكانت رومة وهي الشظية الأخيرة أو رأس ذلك النمل الكبير المتشتم (يعني مملكة الرومان) في حالة تعلمها من استحالة أمرها إلى مركز ديني بسيط ، ترجح وتضطرب كلما ألم بها طائف من ذكرى عظمتها القديمة أيام كانت مركزا دينيا أصليا ، فكانت تهيب نفسها لأن تكون مركز البابوية وهي تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة (شارلمان) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان ؟ ولكنها مع ذلك لم يسعها حمل نير (الهيرولين) و (الاستروغوتين) وأمبراطورة المملكة الرومانية (واللومباردين) الذين تداولوا السلطة عليها تداولا .

« أما مملكة اليونان التي كانت قد نسيت مجدها القديم فكانت تابعة لمملكة الرومان الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء . وكان شرق أوروبا مقلقا جنوبها من أول مصاب نهر (الران) من جهة الغرب لغاية مصاب نهر (الدانوب) من جهة الشرق . فكان (الاسكندنافيون) و (النورفيجيون) و (الدانيباركيون) يتزاحمون في الطريق الذي سلكه (الجوتيون) و (لهونيون) الذين احتلوا (فارس) و (مقدونيا) و (لومبارديا) و (إيطاليا) سواء بالقوة أو بالخديعة .

« في ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من اعماق آسيا الصغرى وهي تلك الأمة التي قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية .

« التصوير البديع الذي جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الامبراطورية الرومانية في القرن الاول من التاريخ المسيحي لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عملة لتجلية حال أوروبا في القرن السادس : تلك كانت مفاسد قيصرية مخمرة ، أما هذه فوحشية حربية تلعب بالارواح وتمتدح في الأحوال {١}

« أما آسيا فلم تكن أهذا بالاً من أوروبا في شيء : فمملكة (تيبث) و (الهند) التي

اقتبست منها الامم السائدة في أوروبا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها ، والصين التي تمد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية ، وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية ، كانت هذه الممالك كلها متنزعة الاحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

« أما السفح الشمالى من الهضبة الاسيوية العالية التي هي في حوزة روسيا الآن ، فكانت غير معروفة على الاطلاق . أما مملكة الفرس التي كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب خصوصا من لدن تجريدة الاسكندر المقدونى فكانت مشتبكة في حرب مع اليونان الرومانيين في القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية .

« أما في أفريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم اخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة ، دائئين على امتصاص دم القطر المصرى وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجنة المصبرة عديمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم أيضا في الاقاليم الخصبية وتحت الواقعة في الجهات الشمالية من أفريقيا التي انتزعوها من أيدي (الفندالين)

« والخلاصة كان جو العالم الارضى متلبداً بسحب الاضطرابات الوحشية في كل جهة ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في اصلاء نيران الحروب والمعارك . ولم يكن يأخذ بمواطن القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرا حادا وان كان وقتيا الاشياء واحد وهو الغنمة وسلب الامم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحرائين وبسطاء المتسولين . ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة وبعض الجرائم الفلسفية التي كانت بمنزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح الى روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الرقى في المستقبل لكانت البربرية أسرع في خطاها مقودة بغير منة زعماء البهيمية واستحالت الى وحشية محضة .

« مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الارض لم يصبه لفة من هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن

مضطرب الامم التي كان يقال أنها متمدينة. ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع اتجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في أوروبا الا عن بعد وما كان يصلها ذلك اللفظ الا في غاية الضعف والضوالة. وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تكن تتعدى علاقاتها مع اسيا حدود بلاد الفرس، ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة أخبار الانتصارات او الهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سورية الى تبعية امبراطورة القسطنطينية تبعية اسمية، أو رفع نير تلك التبعية الاسمية عنها، على أن ذلك الوادي الاخير كان بهم بلاد العرب جدا لان أبناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطئ الغربي من نهر الفرات وصعدوا رويداً رويداً الى بحر قزوين. ومما يشبه المسابير الدينية أنها بقيت منفصلة عن القطر المصري الذي أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماماً الا بعد أن انجلى عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون الساطة وعاملوهم معاملة البهائم

«أما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهي بلاد الحبشة. أما الجهة الشمالية من أفريقيا التي أغاروا عليها مرتين والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجنيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لا يحلمون بوجودها

ثم قال: قال المسيو (كوسان دوبر سوفال) في كتابه تاريخ العرب: «ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين أما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة أحراراً لا سلطة عليهم. وكان عرب سورية دائئين للرومان. أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بني حمرسيادة وقتية فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه»

ثم قال (جول لا بوم): «ولم يكن العرب أحسن استعداداً من غيرهم لقبول أي دين من الأديان قال المسيو «دوزي» في كتابه «تاريخ عرب اسبانيا»: «كان يوجد على عهد محمد «صلى الله عليه وسلم» في بلاد العرب ثلاث ديانات: الموسوية والعيسوية والوثنية، فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكاً بدينهم وأكثرهم حقداً على مخالفين ملتهم. نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الاقدمين ولكن ما وجد

فنسب إلى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها اتباع كثيرون ، وكان المتذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية ... وكانت هذه الديانة تحتوي على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسي كثير الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة الذين كان لكل قبيلة أو أسرة منهم آلهة خاصة والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعا لهم لديه فقد كانوا يحترمونها كهمهم وأصنامهم بعض الاحترام . ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق أخبارهم بالمغيبات أو لو عولوا على فضحهم عند الأصنام أن قربوا لها ضحية بعد أن نذروا لها منجعة . وكانوا يسبون أصنامهم إذا لم تلهم مطالبهم ولم تسفهم آمالهم . قال المسيو (كوسان دوبرسوفال) : « من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصا الشمس ، فكنعان كانت تدين للقمر وللديران وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشتري ، وكان الأطفال من بني عقيد يذبحون لمطارده ، وكان بنو طي يدعون سهيلا وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعري البمانية » . وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة أفكارهم الدينية : قال (كوسان دوبرسوفال) في كتابه تاريخ العرب : « كان من العرب من يعتقد بفناء الإنسان إذا خلعت المنون من هذا العالم ، ومنهم من كان يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة ، فكان هؤلاء الآخرون إذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تشكل هيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى وهي نوع من البوم لا ترح طير بجانب قبر الميت نائمة ساجدة تأتيه بأخبار أولاده فإذا كان الفقيد قتيلا تصيح صداه قائلة « اسقوني ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه . »

قال المسيو لا بوم بعد إirاده هاتين الجملتين عن الاستاذين السابقين : وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقيدة الأولى من عقبات الاجتماع لو لم تكن الاسرة عندهم بل القبيلة أيضا - وهي نقطة تستلفت النظر - تهتم اهتماما عظيما بحفظ سلسلة نسبها ولو لم يكن - وهو أمر أغرب من سابقه - ادراكهم للقوانين وسمة لغتهم من جهة أخرى داعيا إلى الانتفات بنوع أخص : ثم قال مباشرة « قال المؤلف المحقق الذي اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة : كان العرب

مفرمين يترب الراح

ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا يفرحون ويمجبون بلعب الميسر. وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية، وكان له أن يطلقهن متى شاء هو، وكانت الارملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها، ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الاب وقد حرم ذلك الاسلام وعده زواجا ممقوتا وكان هنالك عادة أقطع من كل ما مر وأشد معارضة للطبيعة وهي وأد الاهل لبناتهم . (أى دفنن أحياء)

« هذا كله لا يشير الى أن العرب لم تكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها، فقد كانوا يحبون الحرية جاجا ويمارسون فئات الكرم وبذل القرى .

« الافراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الامة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلي العدد جدا ولا يظهر أنهم كفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة الى ملهم. فاليهود الذين كانوا متشبعين بالاثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم الا بالخضوع لقوانين الامة التى يشتغلون تحت ظل حمايتها بالامور المالية . ولئن شوهدهم أدخلوا الى ملتهم بعض العرب، فلم يكن ذلك الا نتيجة بسيطة لا شترا كههم فى الاساطير التاريخية، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين، تلك القرابة يستدل عليها أيضا بقساويهم فى حب الكسب، وتأزيهم فى الاستعداد لعدم الانفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر لنيل كسب أو حطام. ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ررق أدبى. أما المسيحيون فكانوا يقدون شيئا فشيئا الى بلاد العرب هربا من الاضطهادات الدينية التى كانت فى مملكة الرومانيين ولكن لم يكن فى حالهم نور يستلقت نور البصر تألقه، وفى حالة مسيحي الحبشة اليوم نموذج لذلك، فانه لا يمكن أن يتحلى الانسان بمدرجات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم ببعض تلك العقائد

« فى عهد هذه الاحوال الخالكة، وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد

ابن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) فى ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ هـ انتهى

هذه هي الروح العمومية التي أرسل المصلح الاعظم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم
للاشياء وتخليص العالم من غوائلها، وقد رأيت بلسان الاجنبي عن الاسلام انها كانت محتاطة
بالامم الداخلة في نطاق المواصلات العامة احاطة السوار بالمعصم، وفاعلة فيهم الافاعيل
الحزنة بحيث تدل الرائي لاول وهلة أن بقاء الانسانية على تلك الحالة يؤدي بها الى التلاشي
العاجل، ويريه بطريقة جلية انه كان لا بد من صاخة كبرى تنزل على تلك الادمغة الجامدة،
والقلوب الصلدة فتردها عن غيها، وتكبحها عن جماحها، وهذا ما حصل على يد رسول الله
صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وامام المصلحين

في أبان استحكام هذه المضانك والتثام حلقات هذه النوازل أشرقت سماء الرحمت
الالهية بسبحات الديانة الاسلامية وعهد الله الى الامة العربية في قلة عددها تأديب الطاغين
وارجاع الامن والطمأنينة الى العالمين وحفظ ما كاد يتلاشى من نتائج المعقولات السامية
والمعارف العالية فقامت بهمة قد استمدتها من روح الرحمة العليا وأدت ما رسم اليها
فتشمت تلك الظلمات البيمية وأرجعت لهذا النوع بهجة الحياة المدنية التي ذهبت بها مزيجات
الفتن ومرهقات النوازل والمحن. فهي اذاً مخلص العالم من أنياب تلك الداهية الدهماء.
والطامة الصماء وهذا أمر لا ينكره علينا من عند مسكة من المعرفة بالاحوال الاجتماعية
وان كان لا بد من الاستشهاد بأنوال فلاسفة التاريخ ممن لا يهتمون بالمحاربة للاسلام فاليكم:
قال العلامة (دروى) أحد وزراء معارف فرنسا السابقين في كلامه عن الامة العربية:
« وبعد ظهور (النبي صلى الله عليه وسلم) الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة تقصد مقصدا
واحدا ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر تاج في اسبانيا الى نهر الجانح
في الهند ورفعت على منار الاشادة اعلام التمدن في أقطار الارض أيام كانت أوروبا مظلمة
بجهالات أهلها في القرون المتوسطة » ثم قال « انهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم
من بين سائر الامم وانشعت بسببهم (تأمل) سحائب البربرية التي امتدت على أوروبا حين
اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ورجعوا الى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة ولم يكفهم
الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها بل اجتهدوا في توسيع دواثرها وفتحوا طرقا جديدة
لتأمل العقول في عجائبها »

هذه هي الوظيفة التي أداها رسول الله صلى الله عليه وسلم للعالم بشهادة الناس أجمع
فقل لي بأبيك بماذا تصف تلك الروح الطاهرة وبأي نعمت تعرف ذلك القواد العظيم ؟ إذا
كانت الآثار تدل دائماً وبغاية الأمانة على مكانة المؤثر ومركزه في الوجود وكانت النتائج
تشير بالضبط إلى قيمة المقدمات ففي أي زمرة تحشر تلك الروح المحمدية الطاهرة التي
منها انبعث ذلك النور الأعظم وبها وحدها حدث ذلك الحادث الجلل ؟ هل هي روح خطيب
مصقع ... ؟ كم ظهر في الوجود من يبلغ إذا قال خلب الالباب وإذا خطب أسر الاسماع
مثل « سيسرون » في الرومان و « ديموستين » في اليونان وسحبان واثل وقس بن ساعدة
في العرب وغيرهم وغيرهم . فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم ؟

هل هي روح شاعر ... ؟ كم اعتلا هامة هذا الكوكب من شاعر مطبوع إذا شعر
جسم الخيال وجسد خطرات الوجدان ونال سراير النفوس مثل « هوميرو » في اليونان
« وفيرجيل » في الرومان وامري القيس وزهير في العرب وكلهم كان له شعر أعذب من
السلسيل وأقل في العقول من الرحيق . فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم ؟
هل هي روح فيلسوف ... ؟ كم نشأ في العالم من فيلسوف فتح بفكره غلف المسابير
وسبر بعقله أغوار القلوب مثل سقراط وأبيقور وزيتون وغيرهم وغيرهم فما هي آثارهم
وما هي نتائج أعمالهم ؟

هل هي روح شجاع ... ؟ كم عاش في الأرض من اقبال إذا اعتلوا صهوات الجياد
الصافئات اعدوا فرائص الكتائب وأوقموا الرعب في سكان المدائن . فما هي آثارهم وما
هي نتائج أعمالهم ؟

هل هي روح قائد محنك ... ؟ كم نبغ في الامم من قواد وكم أنجبت الشعوب من
انجاد قادوا الرعال والمقارب وقطعوا الصحارى والسباسب وأتوا من الحيل الحرية بما تعجز
عنه المدارك الهبرزية . فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم ؟

هل هي روح عابد ناسك ... ؟ كم نجم في الامم من زهاد وكزوا عروش الملك
بأرجلهم وقنعوا من العيش بكلاً الأرض وقطرات السحاب وكم ظهر فيها من عباد نصبوا
أنفسهم ليلاً ونهاراً لترتيل الدعوات واستنزال العبرات فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم ؟

تتجسّد أعمال النبي صلى الله عليه وسلم في أربع حوادث مهمة لم تتم في الأمم كل واحدة منها إلا في قرون وهي (١) إبداله الوثنية بالتروحيد في أمة العرب بأسرها (٢) وتهذيبه لأخلاقهم (٣) وربط قبائلهم برابط الأخاء وجمالهم أمة وثيقة العرى (٤) وتكوينه لقانون كامل أدام للمدينة الفاضلة

هذه حوادث اجتماعية تحتاج إلى تعليل مقبول تطمئن إليه النفس وليس أمامنا إلا أحد فرضين وهما إما التسليم بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله حقيقة أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقد أنجز وعده ونصر عبده وأعز جنده . وإما فرض أنه ليس برسول وأنه وصل إلى ما وصل إليه بالتدبير وحسن السياسة .

إن مال مائل إلى الفرض الثاني نافقنا المسألة وقلنا : ينبغي على أنه ليس برسول جملة أمور (أولاً) أنه مدعي النبوة كذباً (ثانياً) أنه تظاهر بما كان متصفاً به من الأخلاق والعبادة رياءً وأنه استطاع أن يثبت على هذا الرياء طول حياته (ثالثاً) أنه استطاع أن يخفي حاله ذلك على كل أحد حتى أخص أصحابه وأخص نسائه (رابعاً) أن الله أيدته ونصره وجعل كلمته العليا مع انصافه بهذا الحال (خامساً) أنه مع انصافه بهذا الحال أتى بعمل فاق به كل المرسلين فإنه ليس في تاريخ الانبياء انقلاب نشأ من بعثة رسول كالانقلاب الذي أحدثته البعثة المحمدية (سادساً) أن الأمة العربية من الغباوة بالمسكان الأسفل (سابعاً) أنه مدع ولكنه أتى بما أتى به المرسلون من الكلمات

لنفحص هذه الوجوه السبعة وجهاً وجهاً فنقول :

أما فرض ادعائه النبوة كذباً فلا يثبت أمام النقد . لأن النبوة أمر خطير وشأن جليل لا يقدم على ادعائه زوراً وبهتاناً إلا رجل مطبوع القلب فاسد الفطرة سيء النية جرى على الله . ومن كان كذلك كانت حياته كلها سلسلة جرائم وشبكة مآثم ، بعيدة عن الخير في كافة وجوهها مصروفة عن الفضيلة بسائر ضروبها فهل كان محمد صلى الله عليه وسلم في باكورة حياته من هذا الصنف من الناس ؟ أما شهد تاريخه بأنه كان من مكارم الأخلاق وطهارة الخلال قبل النبوة بحيث سماه معاصروه بالأمين لم تحفظ عليه جريمة ولم تعرف عنه خصلة ذميمة ؟ ومن كانت حياته الأولى كلها طهراً وصفاته غراً فكيف ينقلب بعد الأربعين إلى

ضدها او تركس طبيعته الى تقيضها؟ هل تبدلت سنة الخليفة؟ هل تحولت نوااميس الطبيعة؟
 اما فرض انه كان متظاهرا بتلك الخلال الكريمة والصفات القويمة رياء فاوهى امام
 الامتناع من الفرض الاول . لان الرياء صفة النفوس المنحطة وديدن اصحاب القلوب
 الخوارة وهي خصلة عارية وصيغة ظاهرية انت استترت حينما تكشفت بعده لا محالة
 بطبيعتها لان الرياء لما كان حيلة لصيد او وسيلة لتكيد فهو ثوب . مستعار تفعل له النفس
 انفعالا مادام فيها امل للوصول اليه ويكون شأنه كشان سائر الصفات العارية من الثلاثي
 امام العوارض العجائية والزوال امام المخاوف الطارئة . فصاحب هذا الحال يكون دائما
 مضطربا مذبذبا يكاد يظن ان نفسه تنم عليه . ثم ان حوادث الحياة وطوارق الحدثنان
 وما جريات الاحوال كاشفات للغش فاضحات للتدليس فلا تجرد مرآيا بالزهد او بالشجاعة
 او بالكرم الا وقد فضح اشنع فضيحة امام الناس لا سيما ان كان متعرضا للحوادث يعالجها
 او متصديا للخلائق يكاظمها . ومن ابعد الفروض عن العقل ان يدعي مدع امكان الثبات
 على مثل هذا الرياء حياة بأكملها لان المراءة لا تكون الا لنيل غرض فان حصل ذلك
 الفرض عاجلا أو آجلا ضعفت المراءة وشفت عما وراها من التوبة لان نفس المرائي
 لا تكون عادة الا نفسا منحطة سافلة يستطيرها بارق الامل ويزدهيها ظاهر النجاح فتفتضح
 سنة الله في خلقه لتمييز الحق من الباطل

اما الفرض الثالث وهو انه استطاع ان يكتم رياءه على اخص اصحابه ونسائه فهذا
 الفرض اضعف امام التحجيس من سابقه لان التاريخ دلنا ان كل صاحب مبدل له اصحاب
 مثله فمن كانوا من اصحاب التدليس يكون لهم اخفاء على شاكتهم يعاونونهم على نيل بغيتهم
 ويشاطرونهم المغنم من فضلاتهم . وقد دل تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان اخص
 اصحابه ابا بكر وعمر وعثمان وعلياً كانوا على شاكتهم من الزهد في الدنيا والبعث عن زخارفها
 وقد تولوا الخلافة بعده بانتخاب الامة لهم فلم تقتنهم السلطة ولم تستخفهم ابهة الملك وما
 كانوا الا خدما لمن تولوا شأنهم يلبسون اقل مما يلبسون وياكلون أدنى مما ياكلون يبيتون
 ركعا سجدا يتغنون فضلا من ربهم ورضوانا . وهاهن ازواجه صلى الله عليه وسلم أمهات
 المؤمنين كن امثلة كمال وفضيلة وعلى غاية من الزهد والصلاح حتي لحقن به طاهرات ثقيات

فما هذا الرب الذي يبلغ هذا المبلغ وما هي اذن الفضيلة بعد ذلك ؟

اما فرض ان الله ايده ونصره مع اتصافه بهذه الصفات فهو او هن من كل الوجوه التي مرت . ومتى عهد ان الله يؤيد المرائين المفتريين ويمكنهم من التسلط على قلوب العالم عامتهم وخاصتهم لاسيما وهم منتحلون لقب النبوة وواسعون انفسهم بسمي الرسالة وهي أكبر حوادث الوجود الانساني خطارة . اذا ساع لانسان ان يفرض هذا الفرض فقد اتهم عدالة الله تهمة يستوجب عليها التعذير الكبير واساء النظر في النوااميس الاجتماعية كل الاساءة ودل على مقدار غفلته عن نظام الكون ونظام الهيئات الاجتماعية . واذا ساع لاحدان يفرض هذا الفرض فقد شك في سائر الديانات لان الخالق ان ايد الباطل لهذه الدرجة فلا يمدان تكون سائر الديانات السابقة باطلة وليكن المعروف من رحمة الله ومن احوال الكون بما لا شبهة معه ان الله عدو المبطلين المفتريين وان ملائكتهم والوجرد وما فيه اعداء الداء لهم بل ان نظام الكون وما أودع الخالق فيه من علائق مرتبة بين العال والمعلولات وبين الاسباب والمسببات يأبى ان ينجح المبطلون او يفوز المفترون المدلسون . ذلك لان التدليس والافتراء وما شاكلهما صفات منحلة لا تناسب الا النفوس الساقطة ولا يمكن ان تكون النفوس الساقطة طليمة للانقلابات المرقية بوجه من الوجوه . وقد نقل المسيحيون فيما نقلوه من اقوال عيسى عليه السلام في الانجيل انه لما قال لهم سيظهر بمدي انبياء كذبة فاحذروهم ان بعضهم سأل به باى علامة يميزهم فقال علامتهم ان الله لا يؤيدهم فافولك فيمن ايده الله ونصره واعلى كلمته وأظهر دينه على الدين كله

اما فرض انه مع اتصافه بذلك ياتى باعمال تفوق ما عمله المرسلون فعجيب جدا . لانه لو تجاسر انسان وفرض ان الله ربما ساعد المفتريين المدلسين فهل بعقل ان يساعدهم حتى يأتوا بما يفوقون به سائر الانبياء والمرسلين ؟ هذا هو التاريخ اما منا ناطق بأن مات محمد أصلى الله عليه وسلم في مدي ثلاث وعشرين سنة من اول رسالته الى يوم وفاته من هدم الوثنية من جزيرة العرب بأسرها وتأسيس امة حية ركنية الرابطة قامت باجل عمل في العالم مما لم يتسن مثله لاي رسول سابق فهل يتصور ان الله يأخذ بيد المفتريين حتى يعاود بهم على الانبياء والمرسلين ؟ متى عهدنا ان الله يملأ شأن الرذيلة ويحيط بقدر الفضيلة ؟ بل متى عهدنا ان الله يرفع

التدليس على النبوة؟

أما فرض أن الأمة كانت من الغباوة بالمكان الأسفل حتي راج فيها كل هذا التدليس فمن الفروض الساذجة فإن التاريخ دلنا على أن رسول الله لبث بين ظهري أهل مكة نحو من ثلاث عشرة سنة وهو يدعوهم إلى الله فلم يقبل الدعوة منهم إلا نفر قليلون وكان الباقيون من تسلط الشك عليهم بحيث يقولون كما حكى الله عنهم (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه... الآية) وقد كانوا من شدة الشكيمة والبدع عن العقيدة وتمكن الشك من قلوبهم بحيث قال الله عنهم (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)

أما الفرض السادس وهو أنه مدع وجاء بما جاء به النبيين من الكمالات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة العبادات فمن الفروض التي لا تثبت أمام النقد فإنه قلب لسنة الكون. إذ كيف يفرض أنه مفتر ثم ينتظر منه الاتيان بشريعة تعدل شريعة ظهرت في الوجود لاشتمالها على أصول العدالة واحترائها على روح القسط. متى عهدنا القلوب السافلة والنفوس المنحطة مصدرا لآمال الشرائع الكالحة والفوائين الفاضلة التي ترقى الأمم وتحفظ كيانهما؟

هذه فروض يتضيقها زعم من يتجاسر فيزعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس برسول وقد أريناه مكانها من العلم فلم يبق أمامنا إلا الفرض الأول وهو أنه رسول رب العالمين، وإمام الأنبياء والصالحين، وخاتم رسل الله المخلصين، وأنه أرسل رحمة للعالمين، بكتاب من عند الله مبين، سيكون كتاب الناس أجمعين، ولتعلمن نبأه بعد حين

مقاصد القرآن

القرآن وحى الهى نزل به الروح الامين على قلب رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيرا وبشيرا. وعقيدتنا معشر المسلمين انه الكتاب الجامع لاشتات الحكم

ومتفرقات الاصول ، وان فيه خلاصة سائر الكتب السماوية المتقدمة ، وانه جاء بالناموس
 الاعظم لكمال الحياتين الدنيوية والاخروية ، وانه آخى بين طبيعتي الانسان الجسدية
 والروحية ، وانه نزل للعالمين اجمعين ، ورعى فيه مصالحهم على قسطاس مستقيم . وقد ربيت
 على اسلوب هذا الكتاب امة قبل بضعة عشر قرنا فنالت به في مدى سنين قليلة ما لم يصل
 اليه غيرها في القرون العديدة وبلغت من بسطني العلم والملك ما لم ينهيا لغيرها في مثل ذلك
 الزمن القصير الامد .

لا جرم ان كتابا هذا شأنه لا بد من ان يكون راميا الى مقاصد ، ومتوخيا في تعاليمه
 دستورا ، ولا بد من ان يكون قد وعد واوعد ، وبشر وانذر ، ورغب ، وقر ، وبني وهدم ،
 وقوى ووهن ، ووصل وقطع ، وسلك لكل ذلك مسالك خاصة ادته الى المسكنة التي بلغتها
 من نفوس الآخذين به قديما وحديثا . فما هو المقصد الاول الذي رمى اليه القرآن ثم ما هي
 تلك الاصول التي هدمها او بناها ، والامور التي وهنها او قواها ، وما هو ذلك الدستور
 الذي توخاه للوصول الى ذلك ؟

القرآن كتاب لا كالكتب ، وكذلك قد احدث من التأثير ما لم يحده كتاب . فان
 نظرت الى نظامه واسلوبه وديباجته فهو نسيج وحده . ليس بالشعر المفتى ، ولا بالنثر المرسل ،
 ولا بالجمع المبتذل ، فهو نوع من الكلام لا ضريب له حتى ان الفارسي ليرى الآية القصيرة
 في الصحيفة الكبيرة فيميزها عن سائر الكلام بديباجتها الخاصة .

وان شارفته من جهة ترتيبه وجدته مخالفا للكتب ايضا ، فلمصطلح عليه في امر الكتب
 ان يكون للكتاب مقدمة ومباحث متسلسلة ذات مقاصد محدودة في فصول معدودة
 والقرآن الكريم ليس كذلك ، فهو آيات مجتمعة ذات مرام متنوعة ومقاصد شتى ، فينبغي ان تلو
 آية وعظ اذا انت بآية جهاد تليها آية فقه تتبعها قصة رسول ، وهكذا حتى عد هذا بعض
 مؤلفي الفرنج مثل (دوزي) الهولاندي و (كارليل) الانجليزي وغيرهما عيا وغاب عنهم
 ان القرآن ليس بكتاب منشيء او بحث فيلسوف ، فيحسب عليه تعديده لقانون الكتابة
 البشرية ، وانما هو وحي الهى نزل بحسب الواداث على صدر رسول لا اثر له في تأليفه ولا دخل
 لقوته في وضعه . ولو كان هذا الكتاب على مثال الكتب الوضعية في الترتيب والنويب

لكن كتابا وضعيا وهو ليس كذلك . ولما كان حفظه مثل حفظ كل كتاب فيطالع مرة او مرتين ثم يسأم بخلاف القرآن فانه قد يطالع مئات من المرات ولا يزال يحلو مع تكراره حتى لا يكاد يسلوه تاليه طرفه عين . ولونهل دوزي وكارليل ومن نما نحوهما من مؤلفي الفرنج من فرات اللغة العربية لعرفوا ان القرآن الكريم كتاب لا كالكتب فيه كلام لا كاللغات ، لا يستطيع تاليه ان يزعم ان لا ترتيب فيه بل يرى ان الترتيب هما كان فساطانه قاصر على الكلام البشري ، يحل عنه هذا الكلام الالهي كما يحل البحر عن ان يحمد بما تحمد به الجداول ، وكما ان كمال البحر في ان يكون رهوا متلاطم الامواج متقابل النيارات فكذلك هذا الكلام العالي كماله وجماله ان يتزه عن قبول القيود وان يكون هو محيط معان عالية تعب عابها وتراوح اواذيتها لا تنتهي الى غاية ، ولا تقف عند نهاية ، ان واجهته واجهت اوقيانوسا معنويا ، لا يشبه كلاما انسانيا ، ولا يشاكل كتابا وضعيا ، يفرق بين المرء واهوائه ، ويجمع بين القاب وشفائه ، ويسرى بين اطواء الفؤاد ، واحشاء السرائر كما تسرى الكهرباء بين ذرات المعادن فيفعل بالنفس فعلا لا يغني وصفه له عن ان تراه في نفسك .

هذا الكتاب الكريم نهج في تربية الانسان مناهج يجب تمييزها جملة ثم مشارقتها تفصيلا : فقد خاطب العقل ، وناجى المواقف ، وحاسب السرائر ، واخذ الضمائر ، وادب الحواس ، وهذب الملكات ، وعدل القوي ، وقرر العقائد ، ودعمها بما يناسب كلامها من براهين ، وحكى حال العالمين من حيث الدين وارى مواقع البطلان من معتقدات سائرهم ، وقاد الكتائب ودوخ الممالك ، ومصر الامصار وشيد المدنية الفاضلة وسن النرائع الكاملة ، ووضع دستور الحكومة ، وصب الامة على قلبه الحكم ، ووضع للمعاملات ناسها ، وشرع للبصيرة شرعتها ، وركب للافتدة علاجها ، وخاطب كل نفس على قدر وسعها ، واتى بذلك كله منشورا في السور على النحو الذي اراده عز وجل بحيث ان بعضه يكمل بعضه الآخر ويوضحه او يرى وجهها آخر منه . وقد تولنا في هذه الصفائف الموجزة على ان نأتي على مقاصد القرآن واحد بعد الآخر ناهجين نفس الاسلوب الذي نهجه وامرنا بانتهاجه ليتجلى للقارئ كنه المتقصد السامي الذي انزل القرآن من اجله فاصابه وهو تربية الانسان تربية صحيحة وبارزه امام الوجود بشرا سويا ، حاصلا على كمال طبيعته الجسدية

والروحانية، متمتعاً بجمال حالته الصورية والمعنوية . وهو لاجل ابلاغ الانسان هذه المسكاة
 العليا عملياً فعملياً لم يتوجه اليها من قبيل النصائح المجردة ، والمواعظ العارية بل حارلها من
 كل مظانها العمالية بادخال الانسان في مقتضياتها ولوازمها وتوريطه في متعلقاتها واسبابها
 ليندفع الانسان اليها اندفاعاً طبيعياً قسرياً ليكون في كماله الديني سائر اعلى منهاج كماله الجسدي
 اي سوقاً بنواميس طبيعية لا يستطيع ان يتخلص من سلطانها .

معنى هذا الكلام ان القرآن في امره لنا بان تدين بالدين الحق لم يتركنا عند هذا
 الامر تؤوله كما نشاء . بل علمنا كيف نبحث عنه وهدانا للاعلام التي نستدل بها عليه ، وعين
 لنا القسط الذي نستطيعه . من ادراكه ، ونصب لنا ميزاناً نزن بها محصول الفكر والنظر في جميع
 ما ذكر . فكشف لنا من اسرار اللاهوت بقدر ما تحتمله فطرتنا ، وبين لنا من وظائف
 الرسل واحوالهم ما هدانا الي حقيقة الدين في ذاته والاسلام بمعناه الخاص . وسرد امام
 اعيننا ما اخترعه الناس وسموه ديناً ، وتقد لنا تلك الكتب الموجودة التي يدعي اصحابها انها
 غير محرفة ووقفنا على ما ادخل اليها مما ليس منها . كلمنا على العالم في جمته وما هو . نقاداليه
 من النواميس الاجتماعية وقسمه لنا على حسب وجهاته الى مسلم وغير مسلم واعطانا على كل
 قسم القسط اللازم الالمام به من العلم من جهته . ووضح لنا خلقه الانسان في ذاته وما اودع
 فيه من قوى متعارضة ، وما ركب في طبيعته من عوامل متباينة اترقيه او تدليه ، وكشف
 لنا وجه التوفيق بينها وقيام الانسان منها على حال الاعتدال ، وما يناله بذلك من كمال دونه
 كل كمال . وبين لنا الوجود في ذاته وما ينبغي ان نعرفه من الجهة التي تربطنا به ، وذكر لنا
 الطبيعة ونواميسها ودلنا على ما يجب ان نعلمه عنها . من الوجهة التي تمسنا منها تأثيراتها وتأثيراتها
 وصور لنا حال الدنيا تصويراً لا يمكن لمن اراد ان يعيش فيها ان ينفك عنه . ورسم لنا
 الحياة بصورتها الصحيحة ودلنا على كنه الروح التي يجب ان نتوجه بها اليها . وخاطبنا على
 المدنية وبين لنا اصولها الثابتة وعرفنا بحقيقتها ، وما يجب ان يكون حظ الانسان منها ، وكلمنا
 على اللذات البدنية وما ينبغي ان يكتفي الانسان به منها وعين القدر الذي يحسن التوقف
 عنده فيها ، ودلنا على ناموس الارتقاء الذي يبعث العالم الى الامام في المدركات والمكتشفات
 وأرانا ما يجب ان نكون عليه بين يدي ذلك الناموس من استسلام او مقاومة ، وسرد لنا

أصول العادات وبين لنا الحسن والقيح منها ، ثم نهج لنا أصول الشريعة ودعّمها على قواعد الطبيعة بحيث تدور عليها الادوار وهي كما هي لا يخل لها نظام ولا يمتريها انقصاص ، وقرر لنا شكل الحكومة التي يجب ان يرضخ لها المسلمون لافامة معالم البدل وتشبيد دعائم الامن ، ثم بين لنا ما يجب لدوام نظام الاجتماع من جهاد في سبيل اعلاء كلمة الله واستمارة في تحقيق مرضيه وذكر لنا العبادات وما يجب ان نأخذ منها هداية لانفسنا وعلاجاً لقلوبنا حتى نستقيم على جادة الرحمن ونكون من حزبه قولاً وعملاً ، وشفع ذلك ببيان مانحن مرتبطون به من العالم الذي وراء هذا العالم ودلنا على ما لانواع العبادات من العمل لتلك الدار وبين وجه علاقتها بها ، وما ينبغي على أعمالنا في هذه الدار من الجزاء العادل في تلك المستقبلية . كشف لنا سبحانه وتعالى كل ذلك في آيات متعددة اوردها على صور شتى وفي قوالب مختلفة مودعاً كل صورة وجهاً من وجوه الحقيقة وجاعلاً في كل قالب رسماً من رسوماتها . كل ذلك في مناسبات تقتضيها ومقتضيات تستدعيها ، ضبطاً لقوى الانسان ، وحيطة لمواهبه ، وابقاء عليه من ان تشذر مواهبه في اعقاب المطالب وتنوزع مكانه في أذيال الحوائج فيعيش الانسان عمراً مديداً ، لم يعيشه رشيداً . ثم ينبجلى عن هذه الحياة وقد حمل قدر الاوزار الى عالم القرار .

سنعقد لكل شعبة من شعب هذا الادب الالهي فصلاً نودعه زبدة ما يرمي اليه العلم المصري تتبعه بما قررره فيه الكلام الالهي مع الدلالة على أسرار تلك الاصول واباب تلك المفاهيم لتتجلى للقاريء ماهية ووظيفة هذا القرآن والغرض الذي أنزله الله من أجله ، وما ينبغي على العمل بما فيه من كمال للانسان وحياته له ليكون هذا العمل بمثابة دليل يستدل به على اغراض القرآن الاولى ومرايمه الرئيسية

كيف نبحت عن الحقائق

على الاسلوب القرآني

الانسان من هذا العالم المدهش في بحر من مجاهيل لا ساحل له . وقد دفع اليه ضعيفاً قاصراً وحكم عليه بان يعيش فيه بل بان يستخذه فاحتاج للعلم بما يتعاق به منه ، والعلم لا يسمى علماً الا اذا كان حقاً ، فاضطر الانسان بحكم فطرته أن يبحث عن الحقائق التي تمس حياته

الجسدية اولا ليتمكن من حفظ شخصه . فلما أمن على جثمانه وتيقظت فيه قواه الروحية رأى ان محض الطمأنينة على جثمانه من عوادي الجوع والجو ليس بشيء امام ما يهدده من عوادي الهرم والشيخوخة والموت فاختار يبحث عما عسى ان يكون له بعد الموت من حياة وعدم فاداه ذلك الى البحث عن خالقه وصانعه وأوصله ذلك الى كل ما يسمى عند أهل المال ديناً من البحث عن صفات الخالق والرسول والوحي والفضائل والرياضات النفسية الخ وهو يرى نفسه في حاجة كبيرة الى ادراك وجه الحقيقة من كل ذلك . فوالى البحث واعمل الفكر فاختلعت الاحزاب وتفرقت المال لان لكل أمة مرابي ترمي اليها لا تتفق مع ما ترمي اليه جاراتها ولكل طائفة من طوائف الامة مصالح توحى اليها متوماتها فقويت طوائف الرؤساء الدينيين ووسموا انفسهم بحفظة الحقائق وورثه المعارف وقام الانسان على هديهم عمراً مديداً من حياته الاجتماعية الطويلة . ولم يزل كذلك حتى جاء دور الفلاسفة اليونانية وسادت مذاهب قادتها واحد بعد واحد من سقراط وأفلاطون فأرسطو فأبيقور فذينيون ولكل منهم مقالات واسفار اودعوها مباحثهم لاستجلاء الحقائق ودام الحال كذلك حتى جاء ييروز رئيس الشاكين ومؤسس دولة اللادريين فقرر بطلان كل تلك الاصول التي دعم عليها أولئك الفلاسفة مذاهبهم واقام الشاك قاعدة لمذهبه . وزعم انه لا يمكن الوصول الى الحقيقة بهذا العقل القاصر ، وان الانسان في حكمه على الاشياء انما يحكم باهوائه ، ولولا ذلك لانحد الناس كلهم على حقائق اولية ثابتة . فكان ان سئل عن شيء قرر ما يعلمه عنه مبتدئاً تقريره بقوله يظهر لي غير جازم بصحة شيء أو بطلانه . ولكن هذه الحركة الفلسفية الكبرى ركزت ربحها حين سقطت دولة الشعب اليوناني وعادت الظلمة الاولى للعقول . وزاد تلك الظلمة اغراق الرومانيين في البذخ والترف عقب فتوحاتهم الواسعة فارسل الله تعالى عيسى بالزهد في الدنيا والهرب من علائقها ليحدث رد فعل اجتماعي في مصلحة الجمعية البشرية التي تجذبها الامة الرومانية الى طرف اللذات البدنية والعلائق الدنيوية غير حاسبة لما يستتبع ذلك التطرف من هلاك الطبقة المحرومة من المال . فاتبع عيسى عليه الصلاة والسلام نفر معدودون ثم اجتهد خلفاؤه من بعده في نشره رغما عن الاضطهادات التي قامت في سبيلهم حتى ساعدتهم الجذبان تولى مملكة الرومان الملك كونسنتان الذي تولى بعد عيسى بثلاثة قرون وكان مسيحياً فامر بهدم الهياكل الوثنية واجبار الناس بالسيف

على النصر فدخل الناس في النصرانية افواجا حاملين معهم عقائدهم الوثنية التي جددوا عليها وكانت ممزجة بهمجهم فدخل في النصرانية ما ليس منها فانعكست الامور الى اضدادها وحل البذخ محل التقشف والعظمة مكان الاستكانة حتى صار رئيس الكنيسة الذي كان يجب ان يكون كميسي شظفا وزهدا لا يفترق عن الملوك المترفين في المأكل والملبس والمسكن فتشعبت الاحزاب وتوالى المتكلمون في الدين ممن عدوا مبتدعين وابعدوا وقتلوا كالمجرمين وما كان اكثرهم الا من المصالحين المريدين تطهير الدين . فماد الحال ظلما حالكا لا ترى فيه للحقيقة وجهها حتى ارسل خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ناهجا للناس في وسط هذا الخاطئ المرتبك والضلال المشتبك شرعة للبحث عن الحقيقة لا يضل سالكها ولا يهتدى تاركها وجعل لها قسطا حكيما لا يختل توازنه ما دامت الحقائق موجودة .

فطر الانسان على ان يبحث على امرين : امر دينه وامر دنياه . فهو يبحث في امر دينه يريد ان يهتدى نفسه لحقيقة روحانية تطمئن اليها . ويبحث في امر دنياه يود ان يعيش على اكمل وجوه المعيشة بالاستفادة من خيرات الوجود وقواه . وقد سعى الاوروبيون اليوم الامر الاول بالفلسفة والامر الثاني بالعلم الطبيعي . وقد سمر الاول فلسفة ولم يسموه بالدين لانهم حكموا على الاديان بانها لا توصل الى حقيقة وانها ليست الاحشوا من افكار المتقدمين قدست تقديسا وهميا لا تفيد اليوم في قيادة النفس المصرية اقل فائدة . ثم قالوا ان الفلسفة يجب ان تكون حسية عملية بمعنى ان كل معقول لا يؤيده الحس يجب ان لا يعد حقيقة بل يلفظ الى عالم الظنون . وقالوا في العلم الطبيعي ان كل نظرية لا تعد من العلم الا اذا اسعفتها التجربة وقواها الاختبار وكان لها اثر في مصلحة الانسان على هذين الاصلين قام الفكر المصري فسقطت امامه كل مدركات الاديان المحرفة فان منهاج تلك الاديان في تقرير الحقائق الاولى الاعتماد على قول الرؤساء الدينيين واعتبار آرائهم مقررات لا يجوز التردد في حقيقتها . ومثل هذه الاصول يستحيل حياتها في هذا العصر . فتوهمت الفلاسفة المصرية بالنظر لهذه الاصول انها اول من خلص العالم من اصر التقاليد والظنون ، ولم ندر ان هذا القرآن قد سبقها بثلاثة عشر قرنا في تقرير تلك المبادئ واليك التفصيل :

تقول الفلسفة العصرية : الحق لا يتعدد ولا يتعاقب بزمان دون زمان وقال الله تعالى
(وماذا بعد الحق الا الضلال)

تقول الفلسفة العصرية : الحقائق بحر لا ساحل له والانسان لم ينل منه الا نذرا
يسيرا وقال الله تعالى (وما اوتيتم من العلم الا قليلا)

تقول الفلسفة العصرية : العلم رأس مال الحياة البشرية فيجب على الانسان ان لا
يقصر في طلب العلم وقال الله تعالى (وقل رب زدني علما)

تقول الفلسفة العصرية : ان الانسان خالق قادرا على استخدام الطبيعة في مصالحة
فيجب عليه ان لا يني في ذلك لان به ترتبط رفاهيته وراحته وقال الله تعالى (سخر لكم
ما في السموات وما في الارض جميعا منه)

تقول الفلسفة العصرية : العلم قوة لا تملأها قوة اخرى وسلاح دونه كل سلاح فن
علم وعمل فاز على من لم يعمل سواء علم او لم يعلم وقال الله تعالى (هل يستعزى الذين يعلمون
والذين لا يعلمون)

تقول الفلسفة العصرية : الكتاب العمل الذي يجب ان يستقي منه الانسان سائر
معلوماته هو كتاب الطبيعة ففيه من آثار العلم الالهي ما يصلح لان يهتدى اليه الخلق بالحقس
والمشاهدة على ان الطبيعة مصدر حياة الانسان ومستودع مرافقه العيشية وقال الله تعالى
(قل انظروا ماذا في السموات والارض) و (قل سيروا في الارض فانظروا)

تقول الفلسفة العصرية : ماضى الانسان عن الحقائق وهي قوام حياته ومهب سماعته
الا الاستراحة للخيالات واعطاء الظنون حق الحكم على الاشياء . وقال تعالى (وانك ان
تطع اكثر من في الارض بضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون)
تقول الفلسفة العصرية : ان محصول الفكر والنظر يجب ان يعرض على النقد الدقيق
فما وافق منه الواقع فهو من الحقائق وما جافاها لفظ الى عالم الظنون والاهام . وقال تعالى
(قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) وقال (ولا تقف ما ليس لك به علم)

هذه خطة الفلسفة العصرية في البحث عن الحقيقة وفي الاعلام التي يجب على الانسان
ان يهتدى اليها ، وفي ميزان الحكم على محمولات الفكر والنظر ، وقد رأيت ان كل

ذلك قد سبقها القرآن اليه بالنص لا بالتأويل ، فلننظر الآن في محصول الفلاسفة المصرية
الذي تأدت هي اليه بالجري على أسلوبها هذا في كل بحث من الابحاث التي تعنى الانسان
في معاشه ومعااده ثم لنقارنه بما كشفه القرآن لذويه قبل نحو اربعة عشر قرنا فنقول :

﴿ مسألة اللاهوت في نظر القرآن ﴾

مسألة اللاهوت اول اغراض الانسان الروحية كما انها اول مرامي الفلاسفة العقلية . وقد
وقفت الفلسفة المصرية بأزائها . ووقف التحفظ خشية من الارتطام في مثل ما ارتطمت فيه
الفلسفات السابقة من ايراد المقالات الطنانة التي مصدرها الخيال المحض حتي عاش الانسان
معها عمرا مديدا وهو يعبد الها خياليا قدره . بفكره القاصر وحكم عليه بمقله الناقص

تقول الفلسفة المصرية : ان مسألة وجود الخالق هي من المسائل التي لا تحتمل كثرة
الاخذ والرد ولا يتسع فيها المجال للتعقق والثرثرة على النحو الذي عليه اصحاب الملل . لانه
ليس في المسئلة الا امر واحد وهوان مجرد التأمل في الكون يضطر الانسان للاعتقاد بان
نواميس الخليفة عملت ما عملته مقودة بعقل وحكمة ولا يستطيع العقل مهما جمحت به
الكبرياء ان يدعي ان هذا الكون تنوعت ممالكه وتشككت عوالمه اتفاقا ومصادفة . هذا كل
ما تسمح به لفلسفة المصرية من العقيدة بالخالق وهو ما يمكن اخذ اجماع الامم عليه
كافة . وماعدا هذا فهو لدى الفلاسفة المصرية من الكلام فيما ليس من وظيفة العقل ولا من
اختصاص النظر ، وهو مدعاة لاحداث التفریق بين الامم لان لكل أمة عقلا يخصها ، فتي
أطلق للعقل حرية البحث في هذه المسئلة الكبيرة وهي ليست من اختصاصه الا في الحد الذي
ذكرناه أدى ذلك لان يكون لكل أمة عقيدة خاصة في حق الخالق ويتبع ذلك ان تظهر
الامم بازاء بعضها العداء بسبب العقائد فتدعي كل منها ان الحق في جانبها دون سواها
وليس الحق الا لمن وقف بتلك العقيدة عند حدها الطبيعي الذي ذكرناه آنفا ، وهو اخذ
الذي يمكن اخذ اجماع الامم عليه .

هذا ما نقوله الفلاسفة المصرية المعتدلة وقال تعالى (افى الله شك فاطر السموات

والارض) (ليس كمثله شيء) (يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما)

قرر الله تعالى اولا ان ليس في وجوده تعالى شك بمجرد النظر الى السموات والارض والى ما فيها

من الاعلام . ثم سد على العقول طريق الخوض فيما لا يعنيه من النطفل على علم ما حجب عنهم
 فقال (ليس كمثل شئ) ثم قرر بالنص انه محيط بهم علما وهم لا يحيطون به علما . اراد بذلك ان
 يقف الانسان عند حده قائما بما تهديه اليه البديهة من وجود المبدع الحكيم حيا قادرا عليما
 مختارا كما تدل على ذلك مخلوقاته جملة وتفصيلا . اما ما عدا ذلك من المقالات المستفيضة
 فليس من اختصاص العقل ولا من شغل المؤمنين . وكفى بالمؤمنين شغلا ان يتدبروا في صنائعه
 ومبدعاته ليستدلوا بها على لانهاية حكمته وقدرته . الى هنا لا تصادف اثرا من دواعي الفارقة
 بين الامم متمدنها ومتوحشها ، اما الخلاف فيأتي بعد ذلك اي بعد تحويل الخيال لنفسه حق
 بناء العقائد فيجوس خلال العقوليات ويجول في احشاء الممكنات ويركب مما يؤثر على اهوائه
 شكلا خاصا . من الدين يطبعه بطابع امته ويؤرجه بعقبة عشيرته ، فتصبح الامم وقد تخالفت
 وافترقت . هل تخالفت على الفطرة والحقيقة ؟ لا ولكن على محصول عقولها وخيالها . فلا
 تزال الامم منشقة مفترقة مادامت راضخة لمحصلات خيالها ، ولورجعت للفطرة الاولى
 لا تحدت وتآخت . وسيكون ذلك الاتحاد والتآخي يوما من الايام على يد دين الفطرة وهو
 الاسلام كما ستراه (ولتعلمن نبأه بعد حين)

الرسالة في نظر القرآن

(بحث تمهيدي في علم ما وراء المادة)

« ان جمعيات المباحث النفسية في لوندرة ونيويورك والمانيا وايطاليا وروسيا مؤلفة من
 طبيعيين وأطباء وكماويين وعمرانيين وفلاسفة والكل مهتمون غاية الاهتمام بهذه المسائل الجذابة
 التي طالما هزأ بها الهازئون . وقد تأسست في باريس نواد مخصصة للمباحث النفسية حصلت
 من علماء النفس الرسميين على مساعدتين مثل دارسو قال وبوشار وميزير وبويسورف
 ومتسكينوف وبيرييه وجيار وسللي برودوم الخ وبذلك فقد أصبح مستقبل هذه المباحث
 بملاحظة هذه القول الكبيرة سائرا على دستور علمي ومأونا عليه من الخطأ »

جريدة الطان ٢١ يونيو سنة ١٩٠٥

قررنا في بعض كتاباتنا ان العقيدة بالرسالة تستلزم حل مسألة ما وراء المادة وقننا ان مجموع

فما ظهر من الابحاث في جميع فروع ذلك العلم في أوربا يكتفي للدلالة على وجود الروح وخلودها والملائكة وعالمهم والوحي والنبوة ونحن اليوم متكلمون على موجز تاريخ تلك الفروع العلمية الهامة معزوة لفادتها ليحصل لمطالعنا فكرة عامة على هذه المباحث الهادمة للإلحاد. ومما يبعثنا لزيادة العناية بهذا الباب ان بعض المجلات المصرية كانت كلما سئلت عنه حقرت من قدره وادعت ان الباحثين فيه جماعة من مختلي الشعور والمدارك. وهذه جرأة ينقبض لها صدر العلم وما حدا بأمثال تلك المجلة الى اصدار أمثال هذه الاحكام القاسية بلا محاكمة ولا بحث الا عدم شعورها بالمسؤولية امام العالم القارىء المصرى فان المصريين لم يصابوا بعد الى تعقب الكاتبين ومطالبهم بنصب الأدلة على ما يكتبون

نحن هنا سنلم بتاريخ سائر فروع علم ما وراء المسادة التجريبي في جملته ثم ندع لقارئنا الحكم على مقدار تأثيرها على تقوية الاعتقاد بالروح والخلود والوحي والرسالة الخ فنقول .

كل العلوم التي سنذكرها كانت معروفة عند كنهة جميع الامم القديمة وكاوا يمارسونها في معابدهم تحت صبغة تناسب مداركهم الدينية. وهى لازمة موجودة في الهند وفي أكثر بلاد الشرق الاقصى وانما جهتها اوربا وحقرت من شأنها في القرن الماضي لانها كانت خارجة عن حرب دينية هائلة وحاملة على الاديان والروحانيات في صدرها غمراً لا تطأ ناره فلما هذأت تلك الزعازع وشعرت الافئدة بنقص مطلوبها من الروحانيات جاشت لطلبها فنشأت تلك العلوم في اوربا ولكن على شكل راق مؤسس على الاسلوب العلمى الدقيق. وقد كتب الاستاذ كرومويل فارلى رئيس مهندسي شركات التلغرافات الانجليزية الى العلامة الانجليزى الطبيعى «تندل» يقول له: «انا لندرس الآن ما كان قبل النى عام الشغل الشاغل للفلاسفة. ولو ترجم رجل من العارفين باللسانين اليونانى واللاتينى والواقفين على حقيقة المشاهدات الروحية ما كتبه رجال الماضي لرأينا ان الذى يحصل الآن ليس هو الا طرفاً قديماً من التاريخ يدرسه رجال جريثون لدرجة تلى مقام أولئك العقلاء الاقدمين لكونهم استطاعوا ان يرتفعوا عن الاوهام الضيقة التي كانت سائدة في زمانهم ويظهر لنا انهم درسوا هذه المسئلة بتوسع يفوق في اشكاله الكثيرة معلومتنا الحالية فيها»

هذا الالتفات من قادة العلوم الأوروبية للمباحث الروحانية يعده الاخلافيون تلافياً لما كان يهدد الجمعيات المتمدنة من الانحلال تحت تأثير العلوم المادية . كتب الفيلسوف الفرنسي شارل فوفتي في كتابه « الوحي الجديد - الحياة » يقول « لما فقد الفكر قدرته على التصديق بوجود الروح صارت منابع الاخلاق مهددة بالنضوب وأحست الجمعية الانسانية من نفسها بأنها قد دخلت في دور الفتن والانحلال الذي يعقبه عادة التلاشي والفناء . ولكن لما أشرقت في الاذهان هذه الفكرة الجديدة (فكرة المباحث الروحانية) وان لم تكن بينة الحدود إلا أن أحست النفوس بقرب حدوث تغير جديد في الافكار »

هذه المباحث لا يعتبرها قادة العلوم في اوروبا مثبتة للروح والخلود فقط بل مرقية للعلوم الطبيعية جملة وتفصيلاً وفتحة للمدارك باباً جديداً لزيادة العلم بالوجود . فقد قام العلامة «لودج» الرياضي الانجليزى الشهير في مؤتمر تقدم العلوم الذى انعقد في سنة «١٨٩١» وتلا مقالة كان لها دوى كبير جاء منها مشيراً للمباحث الروحانية : «ان الحد الفاصل بين العالمين المادى والروحانى قد قرب ان ينهار كما انهارت فواصل كثيرة غيره . وبهذا فسنصل الى ادراك سام على وحدة الطبيعة . وان الاشياء الممكنة لاحد لها كما ان الوجود نفسه لا غاية له ولا نهاية . وان الذى نعلمه الآن منه لا يساوي شيئاً بالنسبة لما غاب عنا علمه . ولوا كفتينا بما اكتشفناه الآن واقتنعنا به نكون قد خنأنا قدس الواجبات العلمية »

من هنا يتضح للقراء مقام هذه المباحث في نظر العلماء أثبتنا بها «ولدينا منها مثات» لنُدفع عن علوم ما وراء المادة تلك السمعة السيئة التى ألصقها بها في هذه البلاد بعض كتاب المجلات تسرعاً منهم في الحكم ودفاعاً عن المذاهب المادية التى يشخصونها في هذه الامة . وليعلم قراؤنا أننا ننقل اليهم علماً كما هو نافع لتأييد الدين نافع ايضاً لايقافهم على حركة العلوم الاوروبية فليس من العقل أن نكون مقلدين اوروبا في مادياتها دون سواها . فن أقبح ما نراه ان ينادى خول العلوم في اوروبا بان المذاهب المادية قد لاقت حتفها على يد المذاهب الروحانية التجريبية ثم لا تزال نسمع في بلادنا من يعظم من شأن الماديين ومذاهبهم لحد يصورونهم فيه ملوك الافكار وقادة مرامي الافئدة

لنبداً بسر تاريخ هذه العلوم الروحانية مبتدئين بها في ايسر أشكالها ثم مرتقين بها

رويدا رويدا الي أرقى مظاهرها معتمدين في كل ذلك على شهادات اكبر علماء القارة المتقدمة
 ممن لا يخاف في فضاءهم اثنان فنقول :

اول ما ظهر من هذه العلوم في اوروبا مسألة السيل المغناطيسي الحيواني الذي
 اكتشفه « مسمر » الالماني فانه قرر سنة ١٧٧٥ ان في الانسان سيالا مغناطيسيا لا يعرف
 كنهه ينبعث منه بالارادة ويؤثر على الاشياء والاشخاص تأثيرا خاصا وأخبر انه عالج به
 الامراض العصبية فنجح . فلم يلتفت اليه أحد من كبار العلماء بل اكتفوا بتكذيبه رسميا
 فثبت هو وتلاميذه حتى ظهر الطبيب الانجليزي « جيمس بريد » سنة « ١٨٤٠ » فبرهن على
 امكان معالجة كثير من الامراض بالتنويم المغناطيسى ثم لما والى المشتغلون به البحث فيه
 ظهر لهم ان له فوق خصائصه الطبية خصائص روحانية تعد خارقة للعادة لمضادتها للقوانين
 الفيزيوجية قال (ج . د ولان) في كتابه (المذهب الروحي امام العلم) : « ان النوشادر المركز
 اذا أشعته للمنوم لا يحدث لديه اقل تأثير مع ان هذا المحلول اذا شمه الانسان في الحالة
 الاعتيادية سبب له الموت حالا » وروي هذا المؤلف ان الطبييين الشهيرين « مارج »
 و« اسكيروول » من مستشفى سلبترير في فرنسا أتيا باربع أوقيات من محلول النوشادر المركز
 واشماه للمنوم بضعة دقائق متوالية وجربا ذلك جملة مرار فلم يشاهدا أدنى أثر من ألم
 أوضجر عنده فشك أحد الاطباء الموجودين في وجود محلول النوشادر المركز فشمه هو نفسه
 ثمان لوقته

هذه المشاهدات ليست مقتصرة على عدم الحس بل على امور أخرى هامة كالاخبار
 بالمغيبات ورؤية الاشياء البعيدة والنفوذ الى ضمائر الحاضرين والبعيدين مما لا يكاد يعقل
 لولا انه من المشاهدات المحسوسة الثابتة بالتواتر العلمى

روى الاستاذ « اكزاكوف » مستشار قيصر روسيا ان امرأة العلامة الانجليزي
 « دومرجان » اعتادت على تنويم امرأة وارسال روحها الى الحل الذي تعينه لها فقالت لها
 يوما وهي نائمة « اذهبي الى منزلي الذي كنت اسكنه قديما . فقالت النائمة - قد فعلت
 وطرقت الباب بشدة » فقالت امرأة الاستاذ فذهبت بنفسى في اليوم التالى لاتأكد . من
 صدقها في تلك المسئلة وسألت عما حصل في تلك اللحظة فاجابني السكان بانهم سمعوا طرقا

شديدا على الباب فذهبوا اليه فلم يجدوا احدا
يقول الاستاذ «أكراكوف» عن هذه الحادثة وامثالها انها تثبت بطريقة لا تقبل
الشك بان للروح وجودا متميزا عن المادة .

❦ العقيدة بالرسول ❦

اتضح لقارئنا مما استعرضناه أمامه . من تاريخ علوم ما وراء المادة وبمجموع ما حصله العالم
من تلك المشاهدات الروحانية الخارقة للعادة أمر لا يستهان به يوجب على أعصى الناس على
العقائد ان يعترف بوجود العالم الروحاني وشؤنه وكيف لا يعترف بهذه العقيدة وقد اعترف
بها أئمة الشكوك في اوروبا واميركا

مجرد هذا الاعتراف بالعالم الروحاني بصرف النظر عن أن تلك المدهشات الروحية
منسوبة لأرواح الموتى او غيرهم يكفي لاعداد الفؤاد لقبول العقيدة بالرسول . فان الرسول
رجل بينه وبين ذلك العالم اتصال على نحو ارق مما يجربه المحربون في اوروبا بما لا يقدر .
ووجه الفرق ظاهر فان الاوروبيين انما يباشرون هذه التجارب باحثين مجريين تقودهم
الشهوة العقلية . فلم يصفوا نفسا ولم يرضوا قلبا ولم يجمعوا لهم كيدا مما عليه الانبياء من
السمو الخلقى والرياضات التعبدية فلم يصلوا من الاشراف على العالم الروحاني الا الى ما يناسب
درجتهم الدانية بخلاف المرسلين فانهم قد انكشف لهم هذا العالم باستعداد فطرتهم وبتخصيص
الله تعالى اياهم للرسالة وكانوا مع ذلك على رياضة دائمة وطهارة ملازمة وتوجه بالقلب
لا ينقطع الى من بيده الامر كله . فلا جرم كانوا يشرفون من عالم التقديس على مالا عين
رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وكانوا يتصلون من عمار ذلك العالم على
الارواح العالية والنفوس الزاكية بقدر درجاتهم من الصفاء النبوى

هذه العلوم الروحانية كانت تتبعها في اوروبا ارجاع العقيدة بالرسول بعد ان زالت من
اوروبا بتأثير التعاليم الاوروبية . وهذا فيكتور هو جو شاعر الفلاسفة المصريين الذى
كان يعتقد بمذهب استحضر الارواح قال في بعض كتبه كما نقلته عنه المجلة الروحية
الفرنسية في مجلد سنة (١٩٠٣) م « ان الفطرة المودعة في صميم الانسان بوجود الله تعالى
أتت اليه من تلك الشمس مباشرة (يعنى بالشمس الله جل جلاله) أما الديانة اليهودية

والصابئية والبوذية والمعددة والمائوية والمحمدية والمسيحية فهي من نور القمر لان موسى وبوذا وزردشت واروفيه وكونفوشيوس وماني ومحمد وعيسى هم انواع من الكواكب دائرة حول تلك الشمس يستشرقون نورها ويكسونه على من دونهم من العالمين فالديانات التي هي اثار الشمس الالهية وظيفتها افاضة النور على الانسان في غياهب حياته وظلمات بقائه « انتهى »

ليست هذه العقيدة برسالة الرسل خاصة بأفراد معدودين فان عموم الروحانيين اصبحوا يعترفون بها ويعترفون ضمنا برسالة خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم . من ذلك ما نقلته المجلة الروحية في مجلد سنة ١٩٠٣ من ملخص خطبة خطبها فيلسوف الاسبرترزم المفوه (ليون دونيس) في غرفة الزراعة بباريس تكلم الخطيب في اثناء الخطبة على وظيفة رجال القرائح الكبرى في العالم الانساني وعلى مكانتهم في هداية الخلق ثم قالت المجلة : « المسيويون دونيس استعرض امام سامعيه كبار الوسطاء بين الملائكة والاعلى والعالم الادنى وهم من خلد لنا التاريخ اسماءهم وسرد من اولئك الرجال المسيح ومحمد الخ »

ونقلت المجلة الروحية ذاتها مقالة لـ «سيو (سنكس) تحت عنوان (محمد) تقتطف منها ما يأتي : « ان الديانة الاسلامية احدثت رقيا كبيرا جدا في الماطفة الدينية في العالم وخلصت العقل الانساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهان ذوى الصبغ الدينية المختلفة » الي ان قال : « أما الاسلام في ذاته فهو في نظرنا (على شرط تخليصه من كل المذاهب التي ألصقتها به الشموخ الطفلة ومن كل الشروح الباطلة التي شرحت بها أقوال النبي محمد) أكبر وأعظم ما يدركه الانسان من معنى الدين . وتعاليمه في العلاقات التي يجب أن تكون بين الانسان وخالقه هي اكثر التعاليم انطباقا على نوااميس الطبيعة وقوانين العقل الانساني » الخ

هذه النتائج في اوروبا مما لا يستهان به فان اوروبا هذه كانت قبل قرن من الزمان من اشد اضداد الرسل وأشياءهم . وقد توالفت في القرن الماضي والذي قبله كتابات جارية ضد هذه العقيدة وكثير منها خارج عن حدود الادب فرجوع هذه العقيدة ثانيا عجب جدا وأعجب منه السبب الذي أرجعها وهو علم ما وراء المادة الحلي الذي ذكرنا لك طرفا

لأنه هنا وأعجب من كل ما برأ أن تكون نتيجة ذلك العلم هداية تلك العقول السامية إلى
الايان برسول الله صلى الله عليه وسلم

أما كيفية أوتيتهم إلى هذه العقائد فهي أنهم لما رأوا من مجموع التجارب الروحية أن
وراء هذه المادة المحسوسة عالما عجيب الشأن بينه وبين الانسان علاقة ما وأن فيه عوالم
مدركة عاقلة مجردة عن المادة الكثيفة لكن هي أرواح الموتى والجن اوعالما آخر - لكن
كيف كانت فان النتيجة واحدة وهي وجود عالم روحاني فيه ذوات روحانية مجردة عن
المادة - لما رأوا ذلك راجعوا تاريخ العالم الانساني فوجدوا حوادثه الكبرى مختلطة بحوادث
ما وراء المادة فاما من امة الا ولها أساطير وعقائد تقاسمت شؤونها الحيوية ورأوا الكتب السماوية
كافة جماعة تلك العقائد التي من هذا القبيل معتمداها في الدين فتعقروا من هذه
النظرات أنهم كانوا ضالين في دحض الوحي والنبوات والمجرات . قالوا : اذا كان أحد
الناس من ذوي الازجة الحساسة اذا وقع في خدر على حالة خاصة طلع من العلم الروحاني
على المدهشات فكيف ينكر على المرسلين وهم اولئك الافراد الظاهرون المكمولون الذين
اعدهم الله بطبيعتهم للرسالة ان يطردوا على ذلك العالم بشكل أرقى بما لا يقدر فيأثروا من العلم
بما ينز على العالمين

هذه النظرية التي جمعوا فيها بين الواقع المتبد والتاريخ الماضي دفنتهم دفعا قويا إلى
الاعتراف بنبوات سائر الانبياء ومن ضمنهم خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم وهي نتيجة
كانت غير متوقعة وستحدث من النتائج ما لا يتخيل الآن تخيلا والله في خلقه شؤون
من هنا يرى قارئنا اننا في قولنا ان مجموع هذه الحوادث تؤدي بالانسان إلى العقيدة
بالرسل لم نكل لهم القول جزافا وانما أتيناكم به من طريق القياس وهو قياس طبيعي بمبدأ
عن كل ظنة فانه لا يقال ان الاوربيين كانوا يالين للعقيدة بالرسل فقادتهم هذه الحوادث
إلى تلك العقيدة من قريب . بل الذي عرف عن قادتهم في القرون الاخيرة أنهم كانوا
اشد الناس اباة عن قبولها وأبعدهم عن الاعتراف بالوحي والعالم الرحاني
اذا تقرر ذلك فقد أصبح الاعتقاد بالرسل والكتب والملائكة والروح والخالود والثواب
والعقاب الاخرين مما يمكن الاستدلال عليه في هذا العصر بالحس الذي هو اسلوب

المصريين وبناء عليه فقد قامت من الله الحجة على الناس وتحقق وعدة تعالى في قوله « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي أن الله قوي عزيز »

هنا يمكن أن يسأل سائل فيقول كيف كان ينكشف للرساين ذلك العالم وكيف كان ينزل الوحي عليهم وما هي الروح وكيف يكون الخلود والثواب والحساب الخ مما يدخل في هذا الباب . فنقول كل ذلك لا ندرجه ولا يدرجه سوانا الا من طريق الكشف ومن ذاقه بالكشف فلا يستطيع أن يعبر عنه بأوضح مما عبر به الله عنه في كتابه فالمذهب الحق هو الاكتفاء بما ورد في القرآن من تلك الشؤون أما السعي في فهمها بهذا العقل الدنيوي الناقص فهو خروج عن دائرة العلم الانساني وضرب في متهاتات الظنون والاهوام

الاسلام

ما هو الدين الذي اتحد جميع الرسل على نشره وتخليصه من شوائب ما وضعه الواضعون فيه ، وما شرحه الشارحون له ، عند كل الامم وفي جميع الاجيال ؟ هو الاسلام ؟
هنا يجمل بنا ان نأتي على نص ما كتبناه باللغة الفرنسية ومؤتمر الاديان الذي قبل انه انعقد فيها سنة (١٩٠٦) في موضوع الاسلام فانه أبين لما نقصده من الكلام على الاسلام من كل ما كتبناه عنه واليك تلك المقالة :

لم اجعل غرضي من مقال هذا الا امرا واحدا اذا فهم حق الفهم كان أشد في جذب الناس الى هذا الدين من كل البراهين المفصلة والحجج الملزمة ، ذلك الامر هو ان الاسلام ليس بدين جديد جاء لأمة معينة وانما هو الدين الذي اوحاه الله الى جميع رسله له خرفة اتباعهم ثم انزل الى محمد صلى الله عليه وسلم اخيرا لاحداث اصلاح ديني عام لسائر الملل شرقها وغربها بعث الله به رسوله حين تعارف الامم واتصالها ليكون دينها العام الذي عليه يتم اتحادها ويصفر لديه تعارفها . ولذلك جعل قاعدته الايمان بسائر رسل الله من نعرف اسماءهم ومن لا نعرف اسماءهم ويجمع كتب الله بأي لغة كانت كما سيمر بك تفصيلا . فهم هذا الامر الخطير يفيد المسلم وغير المسلم . يفيد المسلم لانه يربيه انه تابع لا لدين من ضمن الاديان المنزلة المتعادية ، ولكن للدين الاصلى الجامع لسائر الاديان . فهو بهذا الاعتبار يحدد

في نفسه قيمة لم يحس بها من قبل لانه يرى نفسه رجلا عاما لا خاصا متبعا ديننا هو في نفسه
دين الكل وجامع ارواح الكل في اكل شكل واجمل حال . فمن كان كذلك فلا يتحمل
على الاديان لانه امر بان يؤمن بها كلها وان يكون منها بالمرکز الاوسط مكفيا بما في كتابه
من خلاصاتها ومن أدرك من الناس مقامه في هذا المركز الاوسط العام وشمرانه في مجتمع
أميال الامم وفي نقطة نلا في مراميتها واتحاد أفتدتها في يوم من الايام فلا يهون على نفسه ان
يميل عنه الي نقطة متطرفة ولو سيق اليها بقوة قاهرة

اما فائدة غير المسلم من فهم هذا الامر الجلل فهو لانه يسهل عليه المخرج من ورطته
والخلاص من شكوكه وشبهه فانه ما من عاقل من عتلاء الملل الاخرى الا وشعر بان أيدي
الخرافات قد امتدت الى اصول عقائده فيجد نفسه مضطرا للتأفف منها راجيا اصلاحها على
اي حال كان فلو علم ان الاسلام انما جاء بالاصلاح العام لسائر الاديان البشرية لانه دين
منزل مثل سائرها لسكان التفاته اليه يشبه الامر الاضطراري . لانه كلما آلمه أمر
مما يكرهه في دينه وظنه محرما من أعماله نزع الى ذلك الدين الاصلاحى مضطرا لا مختارا
ولا يزال يدفع ويدفع حتى يقع في دائرته

لهذا جعلنا غرضا من هذه الرسالة هذا الامر الخطير في أظهر أشكالة تاركين
الدلالة على فضائل الاسلام لغيرنا ممن في المؤتمر خوفا من ان لا يلتفت لهذه النقطة
أحد منهم

هذه النقطة التي حاوت تجلياتها في هذه الرسالة هي أظهر ما في القرآن من خصائص
الاسلام وهي السبب الاكبر في نهالك الامم على هذا الدين في كل جيل . لان الامم وان
لم تدرك هذا السر علميا الا انها تحس به وتلمسه في الاسلام فتري فيه صورة عنائدها
الصحيحة منقحة خالصة مما يثير الشكوك والشبه فتميل اليها بارواحها وتنقلب أشد تعصبا
لها من أهلها . ولا توجد هذه الخصيصة في اى دين من الاديان لان هذا المركز الاوسط
ليس لواحد منها ولم يشرع واحد منها لان يكون ديننا عاما اصلا فتراها كلها بما طرأ عليها من
التحريف على اطراف متناقضة لا محل للتوفيق بينها بوجه من الوجوه مثال ذلك : البوذي
لا يهون عليه ان يكون نصرانيا (ولا حكم للنادر) لانه لا محل للصالح بين البوذية والنصرانية

وجهه . ١٠ فالنصراني يقول ان عيسى كلمة الله وهو الاقنوم الثاني بعد الآب تجسد وعاش بين
الناس وصلب ليفتدي العالم كله من خطيئة ارتكبها آدم في اول الخليقة ، ويمتد البوذي
ان الاله فيشنو وهو احد اركان الثلاث الهندى قد تجسد مراراً لتخليص العالم من الشرور
وقد تجسد اخيراً في بوذا للمرة التاسعة . فكيف يمكن التوفيق بين صاحبي هاتين
العقيدتين وبأي مرجح يقبل احدهما عقيدة الآخر ويترك عقيدته التي جسد عليها
طول عمره .

ثم لا يمكن ان يكون البوذي يهودياً لان التوراة وجهة الخطاب الى بني اسرائيل
ورافعة اياهم على سائر الامم وليس في نصوصها . ايسمح بوضع بوذا الذي يحمله ثلاث الملايين
من الاسيويين منذ اكثر من الف سنة في وضع اجلال واحترام فيعز على البوذي ان يركب
في نفسه رأى اسلافه كلهم هذا المركب . ثم لا يستطيع النصراني ان يكون بوذاً ولا يهودياً
لعدم وجود محل للصالح في واحد من هذين الدينين بالنسبة له ولكن جميعهم يستطيعون
ان يسموا بلا حرج لان قاعدة دين الاسلام هي الايمان بسائر الانبياء ومؤسسي الاديان
ممن نعلمهم ومن لانعلمهم قال تعالى عن الانبياء (وان من امة الا خلا فيها نذير) وقال تعالى
(منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) فيرى البوذي ان الاسلام لا ينكر
عليه فضل بوذا بصفته مؤسس ديانة كبيرة وفي نصوصه ما يحسبانه من الرسل العظام
ويرى النصراني ان الاسلام يذكر عيسى بالتبجيل والاحترام ويضعه في مصاف الرسل
الكرام وكذلك يرى اليهودي فيما يختص بنوسي عليه السلام . فيسهل على الجميع الاجتماع
حول هذا الدين بلا كبير حرج لا سيما ان ادركوا انه جمع العقائد كلها بعد تنقيحها . وجعلها
كلها ديناً واحداً لانها كانت كذلك في مبدئها (وماتفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بدما
جاءهم العلم بغيا بينهم)

لهذا السبب تم الکت الامم على الاسلام لرؤيتها فيه صورة عقائدها منقحة . ووجهة
من هنا رأينا ان تجلينا هذه النقطة الخطيرة علمياً نظرياً يفيد المسلمين والباحثين في
الاسلام أكثر مما لو كتبنا في فضائله سفيراً كبيراً
قلت في تلك المقالة ما ترجمته بتصرف قليل :

لتمنح شخوصي الى بلاد اليابان للتشرف بالانضمام الى اعضاء هذا المؤتمر المبجل ولحبي الشديد في معاضدة حضرات اعضائه فيما هم بصدد رؤيت ان أبعث بمقالى هذا الى حضرة رئيس المؤتمر لينتقل على ترجمته الى اللغة اليابانية ، وبقراءته على حضرات الاعضاء وجعله موضوعاً من المواضيع التي يتناقش فيها المؤتمر فاقول :

ان هناك امراً خطيراً يضع الدين الاسلامي في مستوى يعلو به عن سائر الاديان ، ويستلقت اليه النظرات نفاقاً خاصاً ، ويجعله ديناً عامائماً الى النفوس لاقوة البرهان ومضاء الحاجة وسلامة اصوله من الخلل فقط ، ولكن بقوة النواميس الاجتماعية القائدة للانسانية الى كمالها وبتأثير الحركة الفكرية العامة التي تسوقها الى باحات النور والمدنية

هذا الامر الخطير الذي يستلقت الانظار وينبه الغافلين الى هذا الدين هو ان الاسلام كما نص عليه القرآن ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الاولي الذي اوحاه الله الى المرسلين الاولين رحمة للعالمين . قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعهم اليه ، الله ينجي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب . وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بنيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لفضي بينهم ، وان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وامرت لاعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا اعمالنا واولكم اعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير »

نص الله كما نرى بان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرسل ليؤسس ديناً جديداً في امة معينة ولكن ليصلح سائر الاديان مما طرأ عليها بهداية الامم للدين الاصل الذي ارسل الله به سائر المرسلين « قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

بناء على ما تقدم فقاعدة الديانة الاسلامية هي قوله تعالى : « وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا . قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آتينا بالله وما انزل

﴿١﴾ والينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتى موسى وعيسى
وما اوتى النبيون (١) من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل
ما آمنتم به فقد امنوا . وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم .
صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل اتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم
ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم ونحن له مخلصون »

هذه هي القاعدة التي بنى عليها دين الاسلام وهي ان الاسلام ليس بدين جديد ولكنه
الدين الذي ارسل الله به كل رسول ثم حرفه المحرفون من بعدهم ، وان الديانة الحققة هي
ان يؤمن الانسان بجميع رسل الله من اولهم الى آخرهم لا فرق بين من ارسل لأمته
ومن ارسل لغيرها ، وان يؤمن بسائر كتب الله اجمالا مما اوحاه الله الى رسوله بأي لغة
كانت وفي اي زمان اوحيت

هذه الديانة العامة فضلا عن انها لا تثير في أية أمة من الامم حب الذات ولا الحقد
ستكون في يوم من الايام الديانة العامة اضطرارا لا اختيارا . لانه لماذا يكون الانسان
يهوديا ولا يكون بوذيا ؟ او لماذا يكون مسيحيا ولا يكون برهميا ؟ وبأي مرجع يعتقد
الانسان ان موسى كان رسولا من الله الى بني اسرائيل وقد جاء بكتاب مبين ونور عميم
الى أمته ولا يعتقد مثل هذه العقيدة في بوذا وزرادشت وبراها ومحمد وكل المرسلين الذين
تقدموا هؤلاء وجاءوا الى امهم بكتب هادية الى الخيرات ونهجوا لهم سبلا موصلة الى
الكمالات ؟ هل يعتقد ان الله يرسل موسى اماما ورحمة الى بضعة آلاف نفس من بني
اسرائيل ويترك مئات الملايين من الصينيين واليابانيين وسائر الاسيويين والافريقيين
والاستراليين وغيرهم بلا علم ولا هدي ولا كتاب منير ، يهيمون في الظلمات ويعممون في
الضلالات بلا مرشد ولا رسول كريم ؟ هل يتصور ان الله وهو الخالق العادل المنزه عن
المحاباة والمصانعة يوحى حقائق الدين الى بضعة آلاف من الناس ويترك ربوات الملايين في الظلام
البهيم والفساد العميم ؟

(١) اي من نعلمهم ومن لا نعلمهم لان لكل أمة بعث الله رسولا كما قال تعالى « وان من أمة الا

﴿٢﴾ خلا فيها نذير »

كلا ! بل قال تعالى « واز من امة الا خلا فيها نذير » وقال تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك . من هنا يتضح ان الله أرسل لكل أمة رسولا وكتاباً وجمعهم على دينه قروناً وأحقاباً . وهانحن في زمان أخذت فيه الامم تعارف لتبادل الافكار والعلوم والمرافق الحيوية ، وأخذت نواويس الحياة تسوقها سوقاً الى وحدة العقائد كما وحدتها في المدرجات العلمية والعملية . من هنا حدث شعور عام بضرورة وجود دين عام . وكيف يمكن ان يكون للانسانية دين عام وجميع الاديان التي امامنا تكلف تلك الامم بالانحلال من شخصيتها التي اكتسبتها في عشرات من القرون والتقصص بشخصية جديدة تعادى معها دينها السابق وتكفر بسائر أنبيائها وتعدم كذايين مزورين ، وتحتقر جميع مقدسيها وأقدميها . لا جرم ان أمثال هذه الاديان المحرفة لا يستطيع احدها ان يكون ديناً عاماً مطلقاً . مادام لم ينظر لمجموع الانسانية كلها بنظر الملم بأحوالها المراعي للحكمة في تكليفها . على ان في محاولة هذه الاديان خلع من يتمسك بها من كل ما كان يعتقده قبلاً ودفعه للكفر بجميع ما كان فيه يعد جوراً وميلاً عن الحق الظاهر . لانه ما الذي يرجع للانسان ان يعتقد بعيسى ويكفر يهوذا مع العلم بأن الاثنين اساساً ديناً وجاءا باصلاح كبير واتباعهما خلق كثير وكانا سواء في الصلاح والتقوى وحب الانسانية ؟ وما الذي يرجع له ان يحترم الانجيل والقديسين النصارى ويحتقر كل ماله علاقة بديانة يهوذا مثلاً ؟

لا شك انه لا مرجح يحمل الانسان لأن يعتقد برسول دون رسول وبكتاب سماوى دون كتاب آخر كون أمة وأحيائها الا الجور في الحكم والميل مع الورثة والتقليد . فالعدل كل العدل ان يعتقد الانسان بكل رسول أرسله الله للامم مستدلاً على رسالته بآثاره وأعماله وتاريخ حياته ، فيؤمن بجميع رسل الله اجمالاً وبجميع كتبه جملة تاركاً المصعب الذميمة والانصار لاحد المراسلين دون الآخرين ، جاءلاً دينه قوله تعالى « آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون »

هذا هو الدين الحق العادل العام الصالح لان يجمع كافة الشعوب والامم وبؤاخي

بينهم ويرضيهم جميعاً وينزع من قلوبهم العداوة والبغضاء والسخائم القديمة الموروثة بسبب

كفر بعضهم بأنبياء بعض واحتقار بعضهم لكتب بعض

هنا تنجم مشكلة تعوز حلا مقبولا وهي ان جميع الكتب الدينية التي بأيدي الامم
معرفة مبدلة وقد تولاه رجال بالشروح والتأويلات حتي خرجت بها الاديان عن أصولها
وصارت كلها متناقضة متعاكسة لا يمكن للملحد أن يقول: اذا كانت الاديان كما تزعمون وحيا من الله
فلماذا تجدوها متناقضة متعاكسة، فاما انكم حرفتموها عن أصولها واما انكم كذبتهم على
الله بنسبتها اليه لانه لا يقال ان الله ينزل على قوم ديننا يعلمهم فيه انه واحد في ذاته وصفاته
وأفعاله منزّه عن الجسم والجسمانيات لا تحيط به الافكار ولا الظنون، ثم يوحى الى آخرين
ديننا يقرر لهم فيه ان له ثلاثة اقانيم وانه ارسل ولده ليفتدي العالمين، ثم يوحى الى امة اخرى
بانه تجسد في جسد فلان وحل في جسم فلان الخ مما لا يمكن التوفيق بينه بأي وجه
من الوجوه

هذه معضلة لا يحلها الا أحد أمرين: اما الاعتقاد بأن هذه الاديان معرفة أو بانها
ليست وحيا من الله ولكنها من افكار من وضعها من الاقدمين. أما القول بأنها من
موضوعات الافقيين فلا ينهض به دليل لان أولئك الرجال الفضلاء الكاملين الذين دلت
حياتهم على فضل وتقوى وزهد وعبادة، الذين قالوا نحن رسل الله جئنا بدين الله يبعده
ان يكونوا من الكاذبين المزورين، لان التزوير لا يولد فضيلة ولا ينتج كمالا ولا تقوى.
(انظر ما قلناه عن محمد صلى الله عليه وسلم) اذن لم يبق امامنا الا الفرض الثاني وهو
ان هذه الاديان حرفت عن أصولها وان أصلها كلها واحد

ان وصلنا الى هذا الحد قلنا: ها هو رسول كريم أرسله الله رحمة للعالمين دلنا بتاريخ
حياته من أولها الى آخرها في زهده وعبادته وتواضعه وبعده عن زخارف الدنيا على انه
واحد من أولئك المرسلين جاءنا يقول عن الله تعالى «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من
ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه
وفضل ويبهدهم اليه صراطا مستقيما»

جاء هذا الرسول يقول عن ربه: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا
اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين

لما تدعوم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من يذيق . وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسخى لقضى بينهم وان الذين أتوا الكتاب لفي شك منه مررب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لاعدل بينكم . الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير »

هذا الرسول الكريم امرنا بالايمان بجميع الانبياء والمرسلين وبكتب الله اجمعين ، وجعل ذلك قاعدة ديننا وعمدة ايماننا ، ثم امرنا بالخير كله ونهانا عن الشر كله وعرفنا سبل الكمال وأمانات فينا نزرعة الحق والتمصب المموت وشرع لنا ناس الاخلاق ونهج لنا طريق الكمالات . فاي ديانة غير هذه الديانة يمكن اتباعها والعمل بها في هذا العصر الذي كثرت فيه الشكوك على الاديان واصبح فيه علم اللاهوت عدواً لتلك الممالات التي يوردها اصحاب المال في الله جهلاً وتقليداً لا فكار السابقين ؟

• •

بعد ما أشرنا الى هذا كله في : «التنا الى مؤتمر الاديان في اليابان اشرنا الى نقط أخرى اشارات موجزة وكلها نقط تستلقت الى الاسلام نظراً خاصاً وتوجه اليه الافئدة توجهها غطط اربا وذلك انا قلنا :

(اولاً) الاسلام آخر الاديان الموحدة وهو بهذا الاعتبار اصبح له امتياز على سائر الديانات لان للاخير من كل شي : «ميزة ليست لما تقدمه

(ثانياً) صرح الكتاب بان محمداً رسول الاسلام آخر المرسلين وانه ارسل للناس اجمعين قال تعالى « ما كان محمد اباً احسد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وقال تعالى « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً » وهذا ما لم يصرح به كتاب منزل حتى الموجودة بين أيدينا الآن . فقد يؤخذ من كتاب بوذا انه ارسل لاصلاح ديانة البراهمة . وصرح كتاب موسي انه ارسل لابي اسرائيل . وكذلك كتاب عيسى صرح بانه ارسل الى بني اسرائيل ايضاً . وهذا ايضاً مما يجب ان يستلقت النظار لدين الاسلام ونبي الاسلام ويجعل له ميزة على غيره من الاديان

(ثالثاً) لا كان الاسلام ديناً ماثراً على الخلق لربط الشعوب بآبائها واصفرها واحمرها واسودها محاً الله امتيازات الاجناس والعناصر وقضى على العصبية ، وقرر مبدأ المساواة العام وصرح بان الانسانية كلها عائلة واحدة ابوها آدم وأمها حواء وأنها ما صارت شعوباً وقبائل للتنازع والتقاتل ولكن للتعارف وتبادل المنافع . قال تعالى مخاطباً النوع الانساني كله « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم »

(رابعاً) كتاب الاسلام لا يقصد بالنصح والارشاد أمة خاصة ولا شعباً معيناً وإنما يخاطب النوع الانساني بأسره لأنه دين عام كقوله تعالى : « يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبيناً » وقوله تعالى « يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم »

(خامساً) القرآن الكريم فيما يخص بالتشريع والاخلاق وهيئة الاجتماع لا يحتوي الا على أصول اولية وقوانين كلية تاركاً الجزئيات لاجتهاد اهلها يستنبطونها على حسب الزمان والمكان من كتاب الله وسنة رسوله . مثال ذلك قد آتانا الله فيما يخص بالشريعة مبدأي العدل المطلق والمساواة فقال تعالى : « ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذ احكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » وقال تعالى عن مبدأ المساواة « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ثم على المسلمين ان يكونوا لانفسهم شريعة عادلة مستمدة من هذين الاصلين وما مائلهما من أصول الاخلاق من الكتاب والسنة مراعين في تكوين شريعتهم احوال الزمان والمكان والاحتياجات . وقد قام المسلمون الاولون بذلك في القرن الثاني والثالث من الاسلام وما وقفت حركة الاجتهاد الا للضعف الذي طرأ على الامة . على ان باب الاجتهاد مفتوح الى يوم القياسة لمن تتوفر فيهم شروطه من العلماء العامةين والائمة المطلقين

(سادساً) التسامح الديني من اصول هذا الدين الخفيف وقد شيده الله على قواعد علمية عالية لا تدع لاحد الدين محلاً في نفس المؤمن . تلك التواعد العلمية هي تعليمه لنا بأن الحكمة الالهية قضت بأن النوع الانساني يكون مختلفاً في عقائده على حسب نقله ونظره .

قال تعالى «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك»
ولذلك خلقهم «وان الانسان لا يستطيع ان يهدي الى مذهبه احدا الا باذن الله حتى ان
الله قال لنبيه : انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء» وقال تعالى «أفأنت
تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس
على قلوب الذين لا يعقلون» وان لا احد له السيطرة على غيره في عقيدته قال تعالى «لست
عليهم بمسيطر» «لست عليهم بحبصار» «لست عليهم بوكيل» فمتى علم المسلم ان اختلاف
الامم في الاديان شيء يريد به الله لحكمة عالية وانه تابع لدرجة العقول والمدارك وان الانسان
لا يستطيع ان يهدي احدا الا باذن الله وان لا احد بمسيطر على غيره وليس له ان يكره
احدا على الايمان انمضى اثر الحق الديني من صدره وحلت محله رحمة عالية مستمدة من
الرحمة الالهية فينساق الي معاملة اهل الاديان الاخرى الذين لم يقتلوه ليخرجوه من دينه
او دياره واهله بالعدل والقسط كما قال الله تعالى : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين
ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرؤم (اي تكونوا بارين بهم) وتقسطوا اليهم (اي تعدلوا
مهم) ان الله يحب المفسطين» انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من
دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم (اي ان تتخذوهم اولياء او احبابا) ومن يتولهم
فأولئك هم الظالمون . هذه الآية تمنع المسلمين من ان يتخذوا الذين يقتلونهم ليخرجوهم
من دينهم احبابا ولكن لا تأمرهم بان يظلموهم او يسبوا اليهم ضد العدل بوجه من
الوجوه قال تعالى «ولا يجز منكم شئان قوم على ان لا تعدلوا ، عدلوا هو اقرب للتقوى»
اي ولا تحملنكم عداوتكم لقوم على ظلمهم بل اعدلوا معهم هو اقرب للتقوى . ووصى
الله المسلم بالعدل حتى في مواطن القتال فقال تعالى «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقتلونكم
ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين»

تقول هذا عدل الهى ونور رباني وحكمة عالية افاضها الله على هذه الامة لم تسبق بها
امة من امم الارض غابرها وحاضرها ومن كابر فليثبت .

(سابعاً) قرر الاسلام حرية الاعتقاد وهو اصل مدنى لم يظهر فى أوروبا الا فى

القرن الماضى بواسطة الثورة الفرنسية قال تعالى «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن

« ومن شاء فليكنفر » فكل انسان حر في ان يتخذ لنفسه الدين الذي يختاره بعقله وارادته .
 (ثامنا) ليس في الاسلام هيئة رئاسة دينية يسدها الحل والعقد في أصول
 الدين وفروعه وحمل الناس على اتباع ما تقرره على نحو ما عليه الحال في الايمان الاخرى
 (تاسعا) الاسلام هو ان تبرأ الى الله من علمك وحولك وموروثاتك وما
 علمت وما تخيلات وما املت ، مسلما وجهك اليه ، مجردا روحك له . تاركا العلم وأصوله
 والفلسفة وما شاكلها والعادات وما أخذها والاديان وتخالقها والامم وتباذها وأهوائك
 ومواطنها والوجود وما فيه ثم تتوجه بقلب خاشع وضمير صاف ونفس نقية الى قيوم
 السموات والارض ، فارا اليه من الاغيار ملتجئا الى جنبه من دعوي الانانية والاستقلال .
 معتصما بحضريته . من التلونات البشرية والاحوال ، راغبا اليه ان يوفقك ويهديك ارشده
 ومراضيه في دنياك وأخرأك . هذا هو معنى الاسلام الذي قال الله عنه « ومن أحسن
 ديننا من اسلم وجهه لله وهو محسن » وهو دين سائر الانبياء والمرسلين

هذا هو الدين الذي أرسل الله به سائر الانبياء والمرسلين وقد رأيت انه تطهير للنفس
 من سائر تقاليدها واوهامها وموروثاتها والفرار الى الله تقييا خالصا من التقليدات والجلود .
 وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام (كل مولود يولد على الفطرة وانما ابواه يهودانه او
 ينصرانه او يمجسانه) اي ان كل مولود يولد خالي الذهن من كل عقيدة وراثية ومن التقليد
 لمذهب . من المذاهب ليس فيه أثر للتعصب لشيء دون شيء وهذه الحالة هي التي يريد بها
 الله لاهل دينه ليتأهلوا بها لقبول النور ولكيلا يكون بينهم وبين الله حجاب من التقاليد
 والموروثات الباطلة ومن هنا سمي الاسلام بدين الفطرة وقد امر الله الانسان به فقال
 (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله الذي فطر الناس عليها) اي ان هذه الحالة النقية الخالصة
 من كل الخرافات والتعصبات هي مبدأ الدين الفطري الذي فطر الله الناس عليه . ومعنى
 بقية الحديث المتقدم ان الآباء هم الذين يتولون الطفل الصغير فيجعلونه يهوديا انت كانوا
 يهودا ونصرانيا انت كانوا نصارى ومجوسيا انت كانوا مجوسا وليس المطلوب ان يكون
 الانسان يهوديا ولا نصرانيا ولا مجوسيا ولا مقيدا نفسه بقيد لان الترتي يكسر كل قيد
 بفك الانسان . من كل تقليد بل المراد ان يبقى الانسان نفسه من شوائب التقاليد كلها

على طريقة الاسلام التي مرت بك هنا، ثم يجعل دينه ديناً عاماً شاملاً لدين الانسانية كلها من غير تعصب ولا جود ولا انتصار لرسول دون رسول ولا لكتاب دون كتاب قال تعالى : « وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » اي ان ديننا هو ما قاله ابراهيم « إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين » ثم ارانا الله كيف تتدين بدين الانسانية العام الذي ينمحي فيه كل تعصب ويلين معه كل جود ويتآخي الناس عليه اخاء ليس بعده عداؤه وهو « قولوا آمنا بالله وما انزل اليه وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » هذا هو الاسلام الذي جعله الله دين رسوله وأصفيائه ومقدمة لافاضة انوار علمه عليهم . وهذا هو الاصل الذي نرجو ان يرجع اليه العالم كله لان الفطرة السليمة تأدّي اليه من تلقاء نفسها ويرضاه العقل بمجرد تصوره بلا تردد فالاسلام بهذا المعنى غير قابل للخلاف ولا للتأويل ولا للتعريف فلا يمكن ان تنفرق عليه امة الا اذا خرجت منه الى غيره وزعمت أن ما هي فيه هو الاسلام ظلماً وزوراً

(عاشرا) الاسلام عدو التقليد والجمود والتعصب للورثة قال تعالى « وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . قال اولو جئناكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم . قالوا انا بما ارسلتم به كافرون »

قضي الاسلام على التقليد والمقلدين وسلبهم العقل والروية ، وحكم عليهم بما هم اهلهم من الاحكام المزرية ونصحهم بالنظر في الكون وتعرف اسرار الخليقة والطبيعة ليخرجوا من الجمود الذي هم فيه ويفكوا انفسهم من الأسر لرجال مثلهم او لكتب ألغها جهال الاقدمين قال تعالى « قل سيروا في الارض فانظروا » وقال تعالى « افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تسمع الابصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور »

(حادى عشر) جاء الاسلام والناس في اهواء متفرقة وملل متشاكسة وعصبية قوية

فاتبع الرسول افراد يعدون على الاصابع كانوا يخافون ان يخطفهم الناس حتى قال قائلهم : اترى يحىء علينا حين نعبد الله فيه لا نخشي غيره فانزل الله على رسوله قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلكم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بي شياً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » وقد تحقق هذا الوعد الالهى وانتشر ملك الاسلام الى اقصى الارض ثم وعدهم بعد ذلك بان هذا الدين سيطر في يوم من الايام على سائر الاديان وسيكون له شأن بين بنى الانسان قال تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد »

هأنحن فى انتظار ذلك الوعد وقد بدت بوادره وظهرت اشراطه وجاء العلم فاستل من الصدور السخائم القديمة واغرى الانسان بتلمس الحقيقة ولو من ثم اعدى اعدائه. وهذا دين ان لم يدع اليه الداعي تحمسا له دعا اليه حبا فى الانسانية ورحمة بعباد الله لان به وحده تزول احقادهم وتتأخى آحادهم وتزول من بينهم تلك التعصبات المذهبية الباطلة وينكسر ذلك الحائل الشيطاني الذى فصل اصحاب الملل وجعلهم اعداء متناكرين . هذا هو الحق المبين « ولتعلمن نبأه بعد حين »

❦ الاديان فى نظر القرآن ❦

الاديان كما هى عليه اليوم بكتبها واساطيرها هي مجموع أقوال رؤساء المعبدين وعلوها شرحا على الوحي الالهى او كتبها بأيديهم وزعموا انها وحي من عند الله . . ولو كانت حيا كما يقولون لاتحدت جميع الاديان فى اصولها وفروعها لأنزاله السجل واحد . ولا يعقل انه يوحى الى أمة خلاف ما يوحى الى الأخرى . ومما يدل ان تلك الاديان المتنابهة قد دخلها من التعريف ما فسد بها انك تجد كل أمة اتبعت عوائدها وموروثاتها وطبعت دينها بطايعها وزعمت ان اولياء الله واهل كرامته ممن تدعى انهم حفظة الوجود وحملة الانتقال ومصرفة الامور هم من اهل ملتها دون غيرهم كأن كل العالم لا يمد بجانها شيئا يذكر . وكأن

الفضيلة والدين خلقا وقفها لها . هذا كله . من اقطع الادلة على ان كل أمة لاتدين بالاسلام وهو الدين العام الذي رأيت في الفصل المتقدم تصوغ دينها على قالب أهوائها وتفسر كتبه على ما تقتضيه أهوامها . وقد علمت الفلسفة المصرية ذلك كله فقامت تدحضها كلها ونثبت بالادلة تحريف كتبها وتعي على اهلها سوء حالتها وجمود قاداتها وتنتقل بهم الى الخلاص من آصارها واطراح اوزارها والهرب بالنفس والعقل الى عالم الحرية لتتشق النفس نسيم الحياة بمعانيها المختلفة لتستقيم على الجادة المثلى وقد سبق القرآن الحكيم العلم الى نشر هذه الحقائق فقرر ان ايدي الرؤساء قد عبثت باصول الاديان خرقها وان اقلام المؤولين قد عدت على قواعدها فبدلتها فقال تعالى عنهم : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله »

فان قال قائل : قد صرح الله عز وجل في القرآن بان القرآن جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب ووصفها بانها انزلت هدى ورحمة ونورا في غير آية . بل دعا الله اهل الكتابين ليقبوا التوراة والانجيل ويسيروا على ما جاء فيهما . فكيف يتفق ان يكونا محرفين مع الامر باقامتهما ووصفهما بان فيهما هدى ونورا ورحمة ؟

تقول ان الله امر اهل هذين الكتابين باقامتهما ويريد بالكتابين الوحي الذي انزل على رسوله موسى وعيسى . اما الكتاب الذي يقول عنه اليهود انه التوراة فليس هو محض الوحي الذي انزل الى موسى لانه اشتمل على ذكر وفاته وذلك يدل على انه كتب بعده وقد اشتمل فيما اشتمل عليه على تاريخ المصريين والبابليين والاشوريين والفينيقيين والكلدانيين فهو ليس بالتوراة التي يعينها الله تعالى وان كان لا يخلو من آيات منها منشورة في اطوار تلك الاقاصيص المختلفة .

وكذلك الكتاب الذي يسميه الله بالانجيل ليس هو الانجيل الاربعة الموجودة بين ايدي النصارى اليوم لان الذي يريد الله تعالى هو الوحي الذي الفاه الى عيسى لارجمة حياته مكتوبة بايدي بعض تلامذته وان كانت تلك الكتب لا يخلو من آيات مما جاء به عيسى من عند الله

فاذا رأيت القرآن يقول انها انزلت رحمة ونورا فقد كانت كذلك ولكنه رجع خفي

ثم يخبر فيها في كثير من الآيات وهل تريد دليلا على انها معرفة من ان تورا اليهود تخالف
تورا النصراني وانجيل يوحنا يخالف انجيل متى وكلاهما يخالفان الآخرين في أكثر
من موضع؟ وهذا لا ينافي ما جاء من الامر باقامتهما فان ما جاء في اثناء عبارات ذينك
الكتابين من بقايا الوحي يكفي لو اقيم في هداية الآخذين بهما الى الاسلام والتصديق
بالنبي عليه الصلاة والسلام

اما كون القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتب فهو مجرد اثباته ان الانجيل والتورا
وسائر ما نزل قبلهما كتب إلهية اوحيت الى رسله الكرام وان كانوا حرفوا وخرجوا
عن اصولهم

ولكن هل امرنا الله بازاء هذا العلم ان نحقر لهم أدبهم او نسب كهانهم او نحكم
عليهم بالعذاب في الآخرة؟ كلا بل أمرنا الله ان نحسن اليهم وان نعدل معهم وان نجادلهم
(اذا جادلناهم) بالنبي هي أحسن قال تعالى: « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين
ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظاھروا على اخراجكم ان تبرؤم وتسقطوا اليهم ان الله
يحب المفسطين »

الناس في نظر القرآن

الناس في نظر القرآن ثلاثة اقسام: (١) مسامون وهم المؤمنون بجميع رسل الله وكتبه
وقائمون من الدين على طريق الفطرة والاعتدال (انظر فصل الاسلام) (٢) وأهل الكتاب
كاليهود والنصارى وهم الذين لهم كتاب سماوى (٣) والمشركون وهم الوثنيون والملحدة من
سائر الامم . وقد جاء القرآن بأحكام عامة تشمل كل هذه الاقسام، واحكام خاصة تخص
كلا منها على حدة

اما تلك الاحكام العامة فهي انه تعالى رب العالمين كلهم اى مريهم ومتوليهم بالتهذيب
والتكميل فهو ان ارسل رسولا لامة فانما يرسله لافرادها كافة لا لأسرة دون اسرة . ولا
لبطن دون بطن . وقد خاطب الله الناس كافة طائعتهم وعاصيتهم فقال: « يا أيها الناس قد
جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا » وقال تعالى: « قل يا أيها الناس انما بنيتكم

« على انفسكم » وقال تعالى : « يا ايها الناس ان زلزلة الساعة شيء عظيم » الخ الخ فن أجاب داعي الله خصه بالكرامة ومهد له أسباب السلامة كاثنا من كان عبدا او حرا فقيرا او غنيا شريفا او وضيعا . ومن عاصاه وشافه ابلغ له في الملامة وانذره بالندامة يوم القيامة كاثنا من كان كذلك . ومما يدل على شدة عناية المولى بجميع عبادہ على السواء ان اكثر الكلام الالهي موجه الى الكافرين والعصاة ترغيبا وترهيبا ووعدا ووعيدا الي غير ذلك من اساليب الاستمالة والتقريب

فالمسلم المطلوب منه التخلق باخلاق الله يجب عليه ان ينهج هذا المنهاج في معاملته للخلق فلا يألوم نصيحة ولا يدخر عنهم موعظة ولا يقصر لهم في التربية والتكميل بالوسائل الممكنة على حسب الاحوال المناسبة قال تعالى « وادع الي سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمعتدين » ومن تلك الاحكام العامة (العدل) فان الله شامل لجميع عبادہ في ظلال عدله فلا يظلم احدا لا فرق في ذلك بين مسلم وكافر . فن عمل صالحة للدنيا وجدها فيها ومن عمل صالحة للآخرة وكان مصيبا في الوجهة انتهى اليها وتمتع بشواها : « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » لذلك نرى من الناس من يكفر بالله وهو متمتع بخير الدنيا منعمور في نعيمها ومنهم من هو مؤمن به ولا يكاد يجد قوت يومه ، كل ذلك أثر من آثار العدل الالهي . فان الاول وان كفر في عقيدته فقد أحسن في ادارة أعماله واتقان أسلوبها قائما به الله على قدر اجتهاده . واما الثاني فانه وان آمن بالله حتى وصل الى مرتبة الصديقين الا انه أهمل اتقان عمله فلا يجني من وراء ذلك الا العدم والقافة قال تعالى « وكلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا »

هذا العدل الالهي سار بين الامم في مجموعها كما هو سار بين الاشخاص على انفرادها . فان الامة الكافرة ان جدت واجتهدت ونهجت نهج النظام والاعتدال في امورها وصات من الرفعة والسؤدد الي أعلى مقام ولا يمنعا الله بسبب كفرها ان تسود على امة مؤمنة اذا كانت لا تساويها في النظام لان الله نهزه عن المحاباة قال تعالى للمؤمنين « ليس بامانيكم ولا امانى أهل الكتاب من يفعل سوا ما يجز به »

المسلمون في نظر القرآن

المسلمون هم افراد الجماعة الاسلامية اوجب الله عليهم ان يكونوا اخوانا متراحين متساعدين متحدين ، يألم كل منهم لآلم أخيه وان كان في اقصى مكان من الارض ويفرح لفرحه وان لم تكن بينهما علاقة ، يدا واحدة على الاعداء لا يهدأ لشعب من شعوبهم بال ولا يطيب لهم عيش حتى يأخذوا بيد اخوانهم ان اصابهم حيف او نزلت بهم نازلة ، معتبرين انفسهم ابناء اسرة واحدة وان كانوا متباينين في البلدان واللغات ليس لهم عزوة غير الدين فهو اصلهم الذي اليه يمتزون ، وعزم الذي به يمتزون ، لا يظلمون ولا يظلمون ، ولا يفسدون في الارض ولا يعشون .

الخلاصة ان القرآن يحتم على المسلمين ان يكونوا اخوانا تجمعهم وحدة الدين التي رباطها تقوى الله وتجنب محارمه بدليل قوله تعالى «الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين» لانه لا خير في اتحاد على باطل او في مناصرة على هوى . امرهم بالتواصي بالحق والصبر في مواطن الشدة فوصفهم بانهم «الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»

كتب عليهم ان يكونوا يداً واحدة على من عاداهم وان يماونوا على كبت من ناواهم ولكن اذا كان مرماهم غرضاً شريفاً او غاية حقة . قال تعالى : «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» وامرهم الله بعدم العدوان حتى في مواطن الحرب امام اعدى اعدائهم فقال تعالى «ولا تعمدوا ان الله لا يحب الممتدين» «فان انتموا فلا عدوان الا على الظالمين» «ولا يجز منكم شأن قوم (١) على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى»

فيجب ان يكون قوام وحدة المسلمين الكمال المطلق والفضيلة الصحيحة حتى مع اعدى اعدائهم الذين لا يراعون معهم عهداً ولا ذمة . فعليه ان يهدوا وعلى الله ان يكلمهم . قال تعالى : «لا يضركم من ضل اذا اهتديتم»

(١) لا تحملكم عدوانكم لقوم على ان لا تعدلوا معهم ، اعدلوا هو اقرب للتقوى

وعدهم الله على هذه الخلائق العليا خلافته على الارض والتمكين لهم في الامم واعزاز
الكلمة وحفظ الحوزة فقال تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم
في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ولنمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من
بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »
كل الله هذه الأمة بهذه الخلائق الكريمة وهيا لها السير على منهاج رسوله صلى الله
عليه وسلم فاستحقت منه هذه الشهادة العليا وهي « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون
بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وجدير بمن استحق هذه الكرامة ان
يكون علما يهتدى به غيره وشهيدا على انحراف سواه وقد أيد الله هذه الكرامة لهم بقوله
« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس »

ثم خولهم بعد ذلك حق تأديب العالم وارجاعه عن غيه وكبت الجبارين الذين ادعوا ان
لهم مقام فوق مقام العامة وتخليص الامم من آصار التقليد والجمود والعبودية وعسارية
الظلم اينما كان حتى لا يكون هناك دين اعلى كلمة من دين الله قال تعالى : « هو الذي أرسل
رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله »

هذا هو المطلوب من كل مسلم وقد تواعد الله صدر هذه الأمة بانهم ان لم يضطلموا
بهذه الوظيفة السامية ويحسنوا القيام بها استبدلهم بغيرهم ممن يقوون على تحمل هذه الاعباء
الجليلة فقال تعالى « فان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »

هكذا فهم المسلمون الاولون دينهم فمضوا نهضة رجل واحد يحققون امر الله حتى
كنت تسمع كلمة الاخلاص يقولها الرجل في اقصى بلاد المغرب فيرددوها اخوه باقصى بلاد
المشرق وعد العالم ظهور الاسلام حادنا من الحوادث الالهية الكبرى بل عد كل مسلم
نفسه حادنا جللا وعاملا قويا من عوامل القدرة الالهية وردت الى هذا العالم لتؤدي عملا
كبيراً ثم ترحل الى جانب التقديس في الرفيق الاعلى

— ❦ —

❦ الكافرون في نظر القرآن ❦

الكافرون هم الذين لم يقبلوا هدى الله المنزل على خاتم انبيائه محمد صلى الله عليه وسلم.

وهم بازاننا اصناف (١) داخلون في ذمتنا ومحكمون بحكومتنا وهؤلاء
 لهم علينا الحماية في العرض والنفس والمال والعدل امام القضاء قال تعالى : « لا
 ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظاهروا على
 اخراجكم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (٢) وخارجون
 عن ذمتنا ولكن بيننا وبينهم عهد فنحن امامهم على الوفاء ما داموا مراعين شروط
 العهد قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » « ووفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا »
 (٣) ومحاربون لنا وهؤلاء نعطيهم السيف مراعين في التنكيل بهم الرحمة وتقوى الله
 قال تعالى : « ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب »
 وان وقع في ايدينا اسرى منهم فيوجب علينا القرآن معاملتهم بالحسنى والرفق
 ومن كان ممن لا يدين بالاسلام من الناس عائشاً معنا في بلد واحد وهم لا تحت
 ذمتنا ولا مهادنين لنا ولا محاربين فنحن معهم على ما يقتضيه السلام من البر اليهم
 والعدل فيهم

ورد في القرآن ما يدل ظاهره على ان الله تعالى يكيد للكافرين ليوصلهم في الضلال ،
 ويستدرجهم بالخيرات والبركات ، ويفتنهم بالاموال والبنين ليقبهم في العذاب المبين ، وانه
 يعدم في النبي ، ويبارك لهم في البغي ، ليأخذهم اخذاً وبيلاً ، ويسكل بهم تنكيلاً ، ويذيقهم عذاباً
 ثقيلاً كقوله تعالى « نستدرجهم من حيث لا يعلمون » واملئ لهم ان كيدى متين »

كل هذه الآيات يدل ظاهرها على ان الله يريد ان يوقع الكفرة في المعاصي لينتقم منهم
 والله منزّه عن ذلك وعن كل ما يوهم الجور والمكر ، والتحقيق في هذا الموضوع انه ليس المراد
 بامثال هذه الآيات ما يدل عليه ظاهرها والا لما بالغ لهم في النصيحة ولما كشف للكافرين
 من عباده ما اعد له من عذابه من بلائه ، ومن كان الايقاع بمدوه من مراده ، لما فاتحه بما اعد
 له من عتاده ، والمشاهد ان الله لم يدع في كتابه اسلوباً من اساليب التذكير والموعظة الا اني به في
 ابلغ عبارة واشدها تأثيراً على النفس ، وبناء على هذا فيكون المراد من هذه الآيات تلوين الزواجر
 بالوان مؤثرة على النفوس وتنويع المواعظ في اساليب تأخذ باكظام الالهواء ، وتدفع الافئدة
 الى طريق النجاء ، وقد نجح القرآن فيما تصدى اليه ابلغ نجاح فهو اكبر الكتب تأثيراً على النفوس

واشدها اشارة لعوامل الخير في الافئدة وسيكون ذلك صفته الميزة حتى تقوم الساعة

الانسان في نظر القرآن

الانسان اكرم الكائنات على الله، خلقه في احسن تقويم، وتولاه بالالهام والتعليم وحلاه بالعقل الكريم، والقلب السليم فقال تعالى «انا خلقنا الانسان في احسن تقويم» واعده لشرف خلافته في الارض فقال تعالى (اذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) وهو وان كان مخلوقا من الطين الا انه منح من شرف الروح ما تقصر دونه الخواطر، وتعاين ادراكه المدارك، وناهيك بروح نسبها الله الى نفسه، واسجد لحاملها ملائكته، فقال تعالى (فاذا سويته وثقت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)

بهذه الروح امتاز الانسان عن سائر عوالم الطبيعة وصار عالما وحده، حاصل على القدرة في استخدام الوجود وتسخيره، وقد امده الله بما يناسب مطامحه من حول وقوة، ووطأ له اكناف الكائنات وذللها له. قال تعالى: «سخر لكم ما في الارض جميعا منه» ولكن مع هذه المنح كلها ضعيف الجسد تؤلمه السمات، واهن الجلد تستفزه الخطرات، شديد الهلع تستطيره الهواجس. قال تعالى: «وخلق الانسان ضعيفا» ثم هو بين احد امرين: اما ان ينجح الى مادته، ويقف مواهبه على عبادة شهوته، فيسلكه الله الى نفسه، ويأسره لبشريته، فتقلب مزايده شرا، وتنعكس خصائصه وبالا، فيصبح نهما بالمطالب، شرها بالارغائب، حشواها به مطامع، وملء جوانحه حوائج، يبيت اسير آماله، ويمسى عابد احلامه، فينسى ربه ويجهله ويتبع ذلك جهله لروحه وحبه لها في دائرة جسمانه، فينقلب حيوانا وليس بحيوان، ويكون امره على اقصى ما يبلغه العجب من التناقض والتذبذب فيتمتع بصفات متضاربة تجعله في دائرة بعضها وبال على جوهره فما بالك بمجموعها؟ فهو بين يأس لاحد له، يشوبه امل بقيمة ويقعده، وشح يضرب به المثل، بجانبه اسراف يعرض ماله للخطر، وحب للحياة يستعبده للجبن، بازائه اقدام يهجم به على التهلكة، وهو فوق ذلك بطر كفور كنود ساه لاه احمق نزع عنيد الخ من الصفات، السافلة واجدر بمثل هذا الانسان ان يصمم نفسه بانه في احط منازل الخلق، واذنى مراتب الكائنات قال

﴿ تعالي : « ان الانسان كفور » « انه كان ظلوما جهولا » « قتل الانسان ما اكفره »
 اما ان مال بجانب روحه ، والثفت الي سر ذاته ، وثقب عن قرارة انواره وعرف
 بجهات قوته وضعفه ، ضمه الحق الي حزبه ، ونصره على الشيطان وجنده ، واهده من
 قوته وحوله ، بما يجعله مظهرا من مظاهر سلطانه ، وعاملا من عوامل تصرفه ، قال تعالي :
 « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » « فان حزب الله هم الغالبون »
 « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون »

الوجود في نظر القرآن

من الاسباب التي ضللت الانسان في مدركاته ، واقتضت ان يصدر علي الكون
 والكائنات احكاما طائشة خفيفة ، جهله بعظمة الوجود ونخامته
 هذا الجهل كما كان سببا في ضلاله في اموره الدنيوية والعلوم الطبيعية ، كان كذلك مدعاة
 لنضيله في احكامه الدينية

ثم ان من زعم بان هذه الكرة الارضية هي العالم اوله وآخره ، وان تلك النجوم
 الزهر ، والكواكب المتلألئة في السماء ما هي الا نقط لماعة اقتضاها نظام الليل واستلزمها
 جمال المنظر وان الارض هي كل شيء في هذا الوجود ، كانت احكامه على دينها ودينه مناسبة
 لهذه الدرجة من العلم فيفضل عن وجوه النفع المادي والادبي على قدرها .

في هذه الدركة النازلة وقف كل اصحاب الاديان الناكبين عن روح القرآن . وهي
 دركة كان فيها العالم كله قبل قرون عديدة ، فجاءت عقائدهم بالخالق والرب والدين والنفس
 والاخلاق والشرعية مناسبة لها فلما بدا العلم الاوروبي قبل ثلاثة قرون انكر من الناس هذا
 الامر فوقع بين انصار القديم واعضاد الجديد نزاع قتل الديون بنصوص كتبهم واقوال
 شراحه ، وقابلهم العلميون بأساحة العلم وآلاته فانضمت الحكومات الى الاولين لانها كانت
 بيد المستبدن ، فوقعوا باهل العلم قتلا ومثيلا ، وما زالوا يضاولون العلم والعلماء حتي جاء
 الحق وزهق الباطل اذ الباطل كان زهوقا .

تأيد العلم وعزت انصاره وتقوضت دعائم الجهل وانهدت اركانه ، وأصبح الانسان

أخوف ما يكون إذا استشرف الوجود بعينه ، أو مر على عوالمه بخياله . هنالك يحول به الفكر في مجالات ان لم يتدارك نفسه بالرجعي المسرعة منها فجاء من رهبة الكون ما فجأه فغشى عليه أو تدله . « انما يخشى الله من عباده العلماء »

الى هذا القدر كبر الوجود في عين اهل العلم وتأديت امامه نفوسهم فكيف يكون مقدار الادب الذي اكتسبوه من وراء ذلك ولاحت آثاره في احكامهم على الخليفة والطبيعة والشرعية والخالق ؟

القرآن من اوله الى اخره يظلم من كبرياء الانسان ويقدع من انف الجبرية فيه ليريه نفسه كما هي ويهديه الى حقيقة ذاته ليتسنى له ان يدفعه الى ما اعده له من مقامات الكمال والرفعة

يعرف قراء القرآن انه مامن مريض ذكر فيه العلم الا وشفع بما يرى الانسان انه منه في دور الطفولية وان امامه باحات لا تحمد بالفكر ولا تدرك بالخيال قال تعالى « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدني علما » « فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » « وكأين من آية في السموات والارض يعمرون عليها وهم عنها معرضون » « وما يعلم جنود ربك الا هو »

مجموع هذه الآيات تكسب الانسان فكرة صحيحة على عظمة الوجود وعلى ان قد خبي عننا اشياء لو كشفت الينا لما احتمتها طبيعتنا . ولوثأمت قوله صلى الله عليه وسلم ان في الجنة . الا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لرأيت ان هذا الحديث من العوامل التي كان لها اكبر تأثير على توسيع نطاق عقول المسلمين . لان الانسان متى اعتقد ان هنالك اشياء لم ترها العين ولم تسمها الاذن ولا خطرت على قلب بشر ، فذلك الانسان يلقى في روعه حكم على الوجود يناسب عظمته فيردعه عن ان يحكم على عوالمه الخفية بقواه الناقص فيتأدب في اصدار الاحكام عليه وعلى ظواهره ويقف عند كل مجهول وقوف المعتق بأن فيه مجاهيل لم تخطر على باله

هذا الادب المكتسب من مطالعة القرآن هو الذي سعى العلم الاوروبي قرونا في اشراجه في نفوس الناس لانه أصل كبير من أصول الادب النفسى وباعث قوى يسوق

لأنسان للتكامل في العلم وعدم الوقوف منه عند حد . وقد أيد هذا القول حال المسلمين من
 نهافهم على طلب المجهولات ونهالكهم على اكتناء الاسرار . ولو كانوا على قدم اصحاب
 الاديان المحرفة الذين يزعمون ان الحقائق محدودة لتركوا كل اهتمام بالمجهولات وقنعوا بما
 عندهم وصرفوا كل همهم في فهم كلام مقدسيهم كما هو اليوم شأن الذين انحرفوا عن القرآن
 وهم يزعمون انهم من أهله

(الدنيا في نظر القرآن)

ما من فيلسوف او شاعر او متأمل في الوجود الا وحقر الدنيا واشتكى منها لتوالي
 آفاتها وتتابع حسراتها فلا لذة فيها الا وهي مشوبة بالمر ، ولا راحة الا وهي مصحوبة بتعب
 فلم تصف لملك ولا عالم ولا جاهل . ولكن الناس ما لكهم ومملوكهم وعالمهم وجاهلهم ومؤمنهم
 وكافرهم وان اتحدوا في هذا الذم الا ان طرائقهم فيها على غاية التناقض ، اتحدوا كلهم في
 المقدمة واختلفوا في النتيجة . فمنهم المتكالبون عليها المنفانون في جمع حطامها . فكان ذلك
 التكالب مؤديا الى التقاطع والتناهد وتعمد الشرور التي تزيد دنياهم نقصا وحياتهم تنغيصا . وهو
 حال شديد التناقض الواقعون فيه أشد الناس قدحا لانفسهم وعجبا من حالهم . ومن الناس
 من عرف للدنيا هذا الحال فانقطع عنها ونبتذها ولم يعبأ منها الا بما يسد الخلة ويقيم الاود .
 ولكن اذا كان القسم الاول شديد التناقض فالثاني مفسرط لا يلبث ان يقع تحت سيطرة
 القسم الاول لان الدنيا لمن غلب ولا غلب الا بمادة

جاء الاسلام والناس على هذين المبدئين فاتي الاولين من انواع العبر بما يقتلع حب
 الدنيا من انفس المنهولين في حبها ويربهم حقارتها ونقصها بمثل قوله تعالى « وما الحياة
 الدنيا الا متاع الفرور » « وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو » « حتي اذا اخذت الارض
 زخرفها وازينت وظن اهلها انا قادرون عليها اتاهها امرنا فاذا هم يبلسون » « واضرب لهم
 مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشما تذرؤه الرياح »
 اتى سبحانه وتعالى بمثل هذه الآيات ولكنه شفعها بما يجب على النبي ان يعمل في
 دنياه . من سعى وراء الحصول على المادة حتي لا يقع اهل هذا الدين تحت اسر الامم المادية

« فقال تعالى « ولا تنس نصيبك من الدنيا » وسمى المال خيرا ما دام المقصود منه طلب الحق فقال تعالى « فان ترك خيرا الوصية » وسماه فضلا فقال تعالى « فانتشروا في الارض وابتنوا من فضل الله » والمال لم يكن خيرا وفضلا من الله الا لانه مكتسب من حل لا مأخوذ بقطع رحم ولا بمنافسة تجر الى خراب.

بهذه الحكمة العالية اشرب القرآن نفوس اهله خصلتين سائيتين اولاهما ترك الدنيا لعشاقها وثانيتهما اخذ ما يقيمون به اود حياتهم منها ويحميهم من الوقوع في اسر عبادها . ولا نرى ديننا من الاديان حل هذه المسئلة على هذا النحو وقد ايد المسلمون هذا الحال فظهر على حركاتهم وسكناتهم واسسوا على قاعدته مدنية فاضلة قامت على اعدل صرط الفضيلة حتى قال الله فيهم « كنتم خيرا امة اخرجت للناس »

لم يحرم القرآن اللذات البدنية المعنوية المقيسة على قابلية الطبيعة والجسم ، ولم يحجر عليه تناول الطيبات من الرزق قال تعالى « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق »

بل حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقول الباطل واعتقاده في ذات الله وجميع ما يؤدي الى النقص وفساد المروءة قال تعالى « قل حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن » من هنا ترى ان القرآن لم يحجر الانسان عن نيل مدنية ارضية مادية ولكنه ارادها له مدنية كاملة فاضلة مراعي فيها شأن الروح والجسم معا وقد حصل آباؤنا مدنية لا استطاع ان اقول انها مدنية كاملة كما خطها القرآن ولكنها افضل من مدنية اهل اوروباء بما لا يقدر . واني لا اريد بالمدنية الرقي الصناعي بل اريد بها الروح العامة التي تسوق الأمة للحركة في مجالات الحياة وتضطررها بمواهبها الحيوية لسلوك هذه الجادة او تلك من جواد الوجود الانساني وتقيمها من الاخلاق والنزعات على حال من الاحوال

المدنية التي نالها المسلمون الاولون بهذا المعنى كانت افضل بما لا يقدر من مدنية اوروباء المادية التي قاذتهم الى اهمال حق الروح وصبغت اهلها بصبغة لا تتفق مع مرامي الحياة العالية وقد شهد بهذا فلاسفهم مما تقدم في بعض هذه الفصول

﴿ناموس الارتقاء في نظر القرآن﴾

اجمعت الاديان المحرفة على ان الانسان كان افضل مما هو عليه الآن ثم تدلي عن أوجه وسفل شيئاً فشيئاً ، وغالي أتباعها في ذلك حتى عدوا اهل القرون الماضية ارقى منا علما وصنائع ايضاً . وزادوا على ذلك بان العلم في حالة تدل وهبوط لا ترق وضمود . وقد فاجأهم العلم في الثلاثة القرون الاخيرة بصده هذه المزاعم المسقطة بنفس صدقها الى الخضم الاسفل . فثبت العلم للناس ان النوع البشري آخذ في التقدم والارتقاء ومتدرج في التكميل والملاء وان ذلك التقدم منه اثر ضروري لقانون طبيعي عام اسمه (ناموس الترقى) فاحتدمت الحرب بين الطرفين حينئذ انتهت بشيوع هذه الحقيقة الجلية وصار لا وزن لما يقابلها من النظريات

جاء الاسلام قبل العلم باكثر من الف عام فثبت للناس ناموس الترقى بقوله تعالى « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدني علما » دل بذلك اهله على ان العلم الذي لدى الانسان الآن قليل بجانب ماخبيء له في المستقبل مما يثيره له الطلب ودوام التحصيل وقد دل حال المسامين الاولين بانهم كانوا يفهمون ذلك لما رؤي من تهاقهم على العلوم والصنائع وسعيهم في ترقيتها والزيادة عليها وتغانيهم في اكتشاف علوم وصنائع بل واقطار جديدة لم تكن موجودة لزمانهم . ولو كانوا ينتقدون ان الانسان آخذ في الهبوط لكان حالهم كحال المتمسكين بالاديان الاخرى المحرفة . ويصعب على امة كالامة العربية ان تتقدم هذا التقدم الباهر في سنين معدودة الا اذا كانت مؤمنة بناموس الترقى .

﴿الشرعية في نظر القرآن﴾

اليونانيون والرومانيون والاعجم جاؤا بشرائع قامت عليها اديانهم وقرروا عديدة وجاء الاسلام بشرعية هي بين دفتي المصحف روحها القسط باخص معانيه « اعدلوا هو اقرب لتقوى » « اعدلوا ولو على انفسكم »

قرر القرآن اصول الشرعية الكبرى وهي المساواة والعدل والحرية

فأما في العدل فلا فرق فيه بين مسلم وكافر ولا بين عربي وعجمي ولا بين ابيض واسود

« اعدوا ولو على انفسكم »

واما ما اواة فقد قرر القرآن من وجه عام ان كل الناس -- واه -- يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » اما ما يتمايز فيه الناس عادة من الاخلاق والعقائد والعلوم والاصول والثروة فهي امتيازات ذاتية لاساطاف لها امام العدل الالهي

شرائع الرومان واليونان واليهود قررت عدلا وحقوقا ولكن هو عدل نسبي وحقوق وضعية قابلة للظمن . فقد كانت تميز الاغنياء عن الفقراء والاقوياء عن الضعفاء والعلماء عن الجهلاء في العقوبات المتشابهة .

كان قانون الصعابة هذا القرآن وما صحح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تدون الشريعة المستنبطة الا في القرن الثاني من طريق الاجتهاد وهي المعروفة بالفقه . وكان اولئك المجتهدون في الصدر الاول كثيرين وانما لم يبق منهم الا هؤلاء الاربعة ابو حنيفة ومالك والشافعي واحمد الا لكثرة اتباعهم ووفرة من نقل عنهم على ان واحدا منهم لم يلزم احدا بانتخاب رأيه مقدسا بل امره بطلب الدليل ما امكنه لان الدين قد نص على ان كل انسان مسؤول عن نفسه

فقال ابو حنيفة « حرام على من لم يعرف دليلى ان يفتي بكلامي » وكان اذا افتي يقول « هذا رأى ابي حنيفة وهو احسن ما قدرنا عليه فن جاءنا باحسن منه فهو اولى بالصواب » وكان مالك اذا استنبط حكما قال لاصحابه « انظروا فيه فانه دين وما من احد الا وماخوذ من كلامه ومردود عليه الا صاحب هذه الروضة » يعنى النبي صلى الله عليه وسلم وقال الشافعي للربيع « يا ابا اسحق لا تقلدني في كل ما أقول وانظر في ذلك لنفسك فانه دين »

وقال احمد بن حنبل « انظروا في امر دينكم فان التقليد لغير المعصوم مذموم وفيه عي للبعيرة »

يتضح للقارىء مما مر كله ان باب الاجتهاد ليس بمقفول وانا لنترجو الله ان ينشأ فينا من العلماء المطلقين من يعيدون لنا ايام هؤلاء الائمة والله ولى المؤمنين

(الحكومة في نظر القرآن)

شأن القرآن بأزاء الحكومة كشأنه بأزاء كل الاحوال الانسانية لم يأت عليها الا بقوانين عامة صالحة لان تقوم عليها حكومة عادلة وترك للامة الخيار في الشكل الذي تختاره، وقد اتمل رسول الله الى جوار ربه ولم يشر بكلمة عن الشكل الذي يجب ان تكون عليه الحكومة بعده وذلك لحكمة عالية فان لكل زمان وحال عوامل تضطر الامة للخضوع لاشكال من الحكومة تناسبها . وهؤلاء فلاسفة اليونان جعلوا الحكومة جمهورية وبذلوا وسعهم في تأييدها ولكنهم لم يستطيعوا ان يمنعوا انقلابها الى ملكية بعد زمان قليل . وكذلك كان حال الرومانيين وغيرهم

فكان من الحكمة ان يكتفي القرآن بالتنويه بالقانون العام الذي يجب ان يكون قاعدة للحكومة العادلة وان يدع لذويه حرية انتخاب الشكل الذي يرونه صالحاً لزمانيهم . ذلك القانون العام هو الشورى فقال تعالى « وامرهم شورى بينهم » فكل حكومة لا تقوم على هذا المبدأ الاقدس فهي حكومة مخالفة لسنة القرآن

(الجهاد في نظر القرآن)

التنازع سنة الكائنات الارضية ولولاه لما كمل نظام الوجود وقد تكفل علم العمران ببيان ذلك بالادلة الحاسمة وقال تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » وانت ترى بعينيك ان ارقى الامم هي اكثرها حروباً مما يدل على ان الحياة الراقية لا تتم الا بالتنازع والغلب وما نسمعه من مؤتمرات السلام في مدينة (لاهي) فهو خيال ويقصد به ابطال الحرب بين الاوربيين دون غيرهم من العالمين لاعتبار بعضهم بعضاً اخوة . فمدنية اوروبا ان كانت تحرم الحرب فهي انما تحرمها بين ابنائها لا بينهم وبين الشرقيين لانها ترى ان اغتيال الاوربيين لبلاد المسلمين من الحقوق الطبيعية الذي يجب ان تقسده وتحترم ويعمل عليها العاملون بالحيلة ودعوي الاصلاح أولاً فان لم تنجح الحيلة عمدوا الى الحرب

من هنا ترى ان الحرب ضرورة لانوع البشرى وان الامة لا تكون امة بل لا تستطيع

ان تعيش الا اذا هاجمت او دافعت لذلك جاء ذكر الحرب في القرآن كثيراً . والمقصود من الحرب عند المسلمين غرض أرقى من الاستعمار وهو تمكين الحق في الأرض واعزازه بين الأمم

اباحها الاسلام بل اوجبها في بعض الاحوال ولكنه حاطها من القوانين بما لا يوجد مثله في العالم الوضعي . فقرر (اولاً) ان تكون لغرض شريف كالدفاع عن الحوزة او عن الدين لاهوى للملك ولا متابعة لاطماع رئيس (ثانياً) ان يكون العدل مع الاعداء حتى في مواطن الطعن من شعار المؤمن فلا يقتل طفلاً ولا شيخاً ولا مستسماً (ثالثاً) عدم الاسراف في استثمار الا تنصر فلا يجرد المغلوبون من حقوقهم ولا تؤخذ أموالهم غصباً ولا تصدر دياتهم وعوائدهم ولا يطلب منهم الا الجزية وهي قيمة كما قال العلامة دوزي الهولاندي في كتابه تاريخ الفرق الاسلامية تقل بكثير عما كانت تأخذه حكومات الأمم التي غلبها الاسلام

فان قال قائل ان ناموس الارتقاء لا بد من ان يؤدى الانسان في يوم من الايام بما يكشفه له من اسرار العلم الى حالة من المدنية تزول . مما اسباب الحرب فلا توجد الحرب اصلاً فهل يبطل اذ ذاك حكم الحرب من القرآن ؟

فقول ان القرآن لم يتكلم عن الحرب الا لا عطائها المنظمات المادلة وحياتها بالقوانين الملازمة للكرامة الانسانية شأنه في ذلك كشأنه في سائر المحاولات البشرية التي تساق اليها الأمم بحكم نواويس الاجتماع ، فاذا حدث كما يقال ما يستدعى ان تبطل الأمم الحروب مضطرة بدواعي الحياة الراقية مددنا ايدينا الى ايدي مسلمينا تالين عليهم قوله تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، وان ارادوا ان يخدعوك فان حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين »

(العبادات في نظر القرآن)

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

يتخذ الذين لا حظ لهم من الاسلام الا التعميد بظاهر الالفاظ آية « وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون » دليلاً على صحة طريقهم في التحول والكسل والابتعاد عن الجد والعمل .

ونحن هنا لا نحتاج في الدلالة على بطلان مزاعمهم الى صرف الآية عن ظاهرها ولكننا فقط نطرح عليهم سؤالاً واحداً ونأخذ جوابه حجة عليهم فنقول : اليس العبادات هي طاعة الله فيما امر والانهاء عما نهى عنه وزجر ؟ ان قالوا نعم . قلنا وما معنى قوله تعالى : « ولا تأس نصيبك من الدنيا » ؟ يقولون ليس في هذه الآية ما يدل على لزوم الخروج عن حد الحاجة الضرورية من مأكل ومشرب وسكن وملبس . نقول نعم ونحن لا ننصح بالافراط في شيء من ذلك ولكن هل الضروريات الانسانية تقتصر فقط على حفظ الجثمان من العطش ؟ اليس من ضروريات الحياة الانسانية نشر العلوم والقضاء ؟ الامر الذي هو اول فرض من فروض الاسلام . اليس منها تهيل المواصلة بين البلاد الاسلامية لتوثيق عرى التواصل والتحاب للذين همأُس من اسس الايمان ؟ هل من علو الهمة وابعاد النفس ان يقتصر الانسان على حفظ شخصه بالملأ كل والملبس تاركاً أمته في أخريات الامم علماً وصناعة وعمراً ؟ ان الله تعالى يقول « وانتم الاعلمون ان كنتم مؤمنين »

ان الذين يزعمون ان تلك الآية تدل على محض العبادة الجسمية اضالون مضلون اقدم شيطان الكسل عن العمل فظنوا انهم ينجون بعبادتهم من عقوبة تقربهم في جنب خصائصهم الفطرية وملكاتهم العلوية التي وأدوها في تراب الخالة .

كتاب الله بحمته وتفصيله يشهد بان الاسلام انزل لسادة الحياتين والاعتدال في مطالب الطبيعتين الانسانيتين فوق وأخى بين حاجات الجثمان والنفس وفي مثل قوله تعالى « ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » أكبر حجة على صدق هذه الدعوى البديهة . وعلى هذا فيكون كل مغلب مطالب أحد جوهرية على مطالب الآخر غير متبع الاشقا واحداً من شق الاسلام ويكون محشوراً في زمرة الذين يسكتهم الله في هذه الآية الكريمة « أفؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » ؟

لم يبع لنا الاسلام فقط السمي في اصلاح دنيانا بل صرح لنا كتابنا الكريم بان الله سخر لنا كل هذه الطبيعة لاستغل خيراتها ونستخدم قواها ونأخذ منها كل طيباتها على شرط الاعتدال والتوسط (وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً . الآية)

هل يليق بأنسان بعد هذا التصريح البين أن يعمط حق الاسلام في السوق التي السعادة
المادية في هذه الحياة الدنيا؟ ثم هل يليق بأمة يخولها كتابها هذه السلطة الواسعة ان تكون
أقل أهم الارض استفادة من خيرات الطبيعة؟

رحم الله تلك الارواح الطاهرة التي تلقت روح هذا الدين من سماء الحكمة الالهية
فتشربتها بلا تأويل فنالت من المعالي الحقيقية ما لو وصفها امر الشعراء تخيلا لرأى عباراته
دون الحقيقة بمراحل. لم يعض على تلك النفوس العزيزة بعض قرن بعد انعاشها بهذه الروح
السماوية حتى رأيناها مدت تقودها العادل المحبوب على امم كانت ابعد من عقاب الجومنا
وأوسع في ميدان الثراء منها مجالا وبلغت من سعة السلطان ما لم تبلغه امة في هذا المعمور
ولا تسلم عما استلزمه ذلك الامتداد الهائل من علوم صناعية واكتشافات علمية ورحل
جغرافية وغير ذلك مما جعل عراصم الدول الاسلامية منبعث أشعة النور العلمي والصناعي
في آن واحد. الى هذا يشير العلامة (سديو) المؤرخ بقوله: «ان العرب هم اساتيدنا ومعلمونا»
كل هذا الجهد وراء الرفعة الدنيوية كان يمهده آباؤنا الاول عبادة لله تعالى لانه امر بها وحث
عليها فكان العامل منهم لاقامة الجسور لا يفترق في نظرم عن المهتمك في تشييد المساجد
«ان المؤمن ليؤجر في كل شيء» (الحديث). «فهل من يبلغ عنى انصار الديانة الطبيعية
من فلاسفة العالم المتمدن ان الاسلام قد سبقهم بثلاثة عشر قرنا الى تقرير حقيقة العبادة
وأرانا انها ليست الا السعى في تحسين حال الانسان من حيث جثثانه ومعناه «و» من جاهد
فأنما يجاهد لنفسه ان الله لننني عن العالمين»

﴿ المعجزات في نظر القرآن ﴾

ورد في الكتاب الكريم والسنة ذكر معجزات وكرامات كثيرة حصت على يد أنبيائه
ومرسله وصالحه الامم مثل عدم احراق النار لابراهيم ومثل انقلاب العصا لموسى
ومثل احياء عيسى للموتى ومثل نبوع الماء من بين اصابع نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام
ومثل اتيان وزر سليمان بعرش بلقيس في مثل لمح البصر ومثل ما ورد عن الخضر في سورة
الكهف ومثل اهل الكهف اقسامهم الى غير ذلك مما ورد ذكره في القرآن في مواضع متعددة

القول الفصل في هذا كله ان الانسان كما يتسلط بارتقاء قوته العقلية على قوى الكون المادية فيحدث من الاختراعات . الا يخطر بالبال فكذلك اذا ارتقت نفسه عن السفاهة وصفا قلبه عن غير الله وكان في درجة النبوة او الولاية حصلت على يديه مدهشات خارقة للعادة يكاد لا يصدقها رايتها فضلا عن سامعها ولكن أهل البصيرة الذين لم يستعبدوا الحس في دوائره الضيقة يعلمون ان تلك الخوارق صورة من ذلك السلطان الذي وهبه الله للانسان على الكون والكائنات وانه متى سلك الانسان لنيل ذلك السلطان طريقته المثلى تأدى اليه الا درجة النبوة فانها ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم . اذا انتهى الانسان من الكمال الروحاني الى حد اهل القرب والمعرفة وخلصت قواه الروحية من علائق هذا الجسد الكثيف انكشف له الكون بقواه وعوالمه ورأى ان روحه في التأثير على مادة اقوي من يده عليها ورأى ان حواسه الخمس وحوله الذي كان يفتخر به قبل بلوغ هذه الدرجة لا يساوي شيئا بجانب ماله من السلطان بعد خلوص روحه من أسر المادة

هذه امور لا يحافها العلم ولا ينكرها العقل بل يرجعها النظر في احوال الوجود فلو أضفت اليها ما كتبناه في الفصل التمهيدى للمقيدة بالرسول ورأيت ان اهل اوربا اليوم وقفوا على حصة صالحة من اسرار الروح وتوصلوا الى استحضار قوة عاقلة مدركة من عالم ما وراء الطبيعة سموها الروح حصل لك من مجموع ذلك برهان حسي على وجود العالم الروحاني وعلى انه بحر العجائب ومستقر الغرائب وان ما يروى عن الانبياء من المعجزات وعن الاولياء من الكرامات بالتواتر العلمي والنقل الصحيح امور حقة لا شية فيها

﴿ النسخ والمنسوخ من القرآن ﴾

النسخ لغة معناه الازالة ونسخ الله آية بآية اى ابطال حكم الاولى بالثانية كما قال تعالى « ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها » . وقد اتخذ اعداء القرآن هذا النسخ من المطاعن عليه واستدلوا به على انه كلام محمد لا كلام الله . قالوا لو كان هذا القرآن كلام الله لكان ثابتاً لا تتغير احكامه بتغير الاحوال ونحن لرد هذه الشبهة نقول :

انزل الله الدين على الامة العربية لتأخذ بآدابه فتوسسها وتروض بتماليمه افندتها فتتمص

روحه وتستشعرها فهو دين عملي حيوي . وليس في العالم فلسفة ولا مذهب يلين للإنسان في جميع ادواره وينزل معه الي سائر اطواره الا هذا الدين .

وهذه امامك الاديان القديمة المحرفة في جميع قارات العالم قد هجرها الناس ووجدوا لا تقسم عندهم مقبولا في هجرها وهذه المذاهب الاصلاحية في اوروبا كالاشرار والفوضي وغيرهما كلها متطرفة لا يمكن العمل بها الا الاسلام فلا يستطيع احد ان يعتذر بعدم امكان العمل به بحجة مناقضة اصوله لمبدأ الحياة او لاحوال الزمان

هذا الدين الاسلامي يراع الانسان في حالة ضعفه وقوته وجهله وعلمه وحربه وسلامه وغناه وفقره وكاله وتقصه الى آخر ما ينتابه من الاحوال البشرية المتناقضة التي تتغير بتغير الازمنة والامكنة والامزجة فهو الدين الطبيعي الذي تقتضيه الطبيعة البشرية او هو بلسان الشرع الدين الفطري الذي ينطبق على مطلوب الفطرة . ولما كان كل شيء يتغير في الانسان وتنتابه الزيادة والنقصان جعل الله دينه الاخير صالحا لان يتبع الانسان في جميع ادواره لا أهوائه . ولو كان هو ديناً من ضمن الاديان المعروفة وكان في علم الخالق ان نبيا يظهر بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لجاءت اصول القرآن مقيدة محدودة ولزالت دولته بزوال رسوله واستعد الناس لاستقبال وحي جديد . ولكن شرع الله هذا الدين ليكون دين الانسانية كلها في سائر ادوارها وصرح بان رسول آخر المرسلين فكيف يقرر الله فيه اصولا مقيدة محدودة وقد عرفت ان الانسان لا يتقيد بقيد ولا يدخل ضمن حد وهو من تغير الحال وتلون المزاج على ما لا يحمله ابط الناس علما ؟

مراعاة لهذه الحالة الطبيعية اقتضت حكمة الخالق جل وعز ان يراعى في تربية الامة العربية حالها من جميع الوجوه فقرر لها أولا احكاما على قدر حاجتها ثم نسخها باحكام اخرى البقي بحالها الذي تحولت اليه وهو خالق تلك الاحوال وسلطها على الانسان ؟

على ان النسخ سنة من سنن العالم الطبيعي ظاهرة في الجمادات والنباتات والحيوانات والانسان نفسه . فتري النواويس الطبيعية تقتضي ان يكون الهواء مثلاً ساكناً في هذه الساعة ثم يحدث ما يغيرها فتتسخ هذه الحالة بريح تحدثها وامطار ترسبها وصواعق تدفنها الخ . وهذه الحوادث من النسخ في العوالم الحية اظهر منها في عالم الجماد ومما لا مشاحة فيه

ان الانسان اشد جميع الكائنات تغيرا وتحولا ولكل حال حكم كما لا يخفى ، افلا تكون من
 حكمة الخالق جل شأنه ان يعدل له الاحكام على حسب قابليته في كل حال من احواله ؟
 هذا التبديل والنسخ يصح في جهة ما يتعلق به من احواله الذاتية المتغيرة اما الدين
 نفسه فهو ثابت لا يتغير ولا عذر للانسان في استبدال غيره به فانه أبسط ما يتصور
 (انظر فصل الاسلام)

تطرف بعض الناظرين من المسلمين فحاولوا اثبات عدم وجود نسخ ومنسوخ في
 القرآن واولوا جميع الآيات الناصة على النسخ مثل قوله تعالى « ما ننسخ من آية او ننسخها
 نأت بخير منها او مثلها » وقوله تعالى « واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قال الذين
 كفروا انما انت مفتتر » وقوله تعالى « الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا »
 وعندى ان تأويل هذه الآيات الصريحة وانما لاجل اثبات عدم وجود نسخ
 ومنسوخ في القرآن تمسف ظاهر وقد جرى جمهور الصحابة على وجود النسخ والمنسوخ
 في القرآن وكذلك التابعون والائمة الاربعة وغيرهم من تقدمهم وتلاميهم ولم يخالف هذا
 السواد الاعظم الا نفر يعدون على الاصابع

﴿ الولاية والكرامة ﴾

الولاية في اللغة القرابة والاعانة والنصر ، والولى القريب والناصر والمعين وقد اطلق
 الله لفظ الاولياء على احبابه المقربين لديه في مواطن من القرآن الكريم فقال تعالى « الا
 ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » الذين آمنوا وكاثوا يتقون »
 فكل مؤمن تقى هو ولى الله بحكم هذه الآية لغة واصطلاحا وقد قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم « كل مؤمن ولى الله »

ولكن عامة المسلمين يطلقون اليوم لفظة ولى على صنف من الناس تصدر على ايديهم
 خوارق العادات وقد اختلف مدلول هذه اللفظة عند كل طبقة من طبقات الناس على حسب
 اختلاف المدارك والافهام حتى صارت نطاق على بعض البله والمجانين وقد توسعوا في نسبة
 الخوارق الى هؤلاء الاشخاص حتى رفعوها عن المعجزات والناس يتناقل هذه الامور

ولع شديد لا يتفق اكثره مع الحقيقة الشرعية . ونحن . ووجزون لك مذهب القرآن في
اسطر قليلة فليك :

القرآن اطلق لفظة ولي على كل مؤمن تقى ولم يزد ولم يرد في احاديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما يزيد على هذا المعنى شيئا جديدا . اما الكرامة التي يكرم الله بها اوليائه
فلا يشترط ان تكون من الامور الخارقة للعادة فان من الكرامة ان يوفقه للطاعات وان
يهديه للكمالات وان يزيده كل يوم علما وعملا وهدى وان يهدي به نفوسا حائرة وافئدة
ضالة . وما يشاهد لدى بعضهم من كشف المغيبات او تخلف بعض الكائنات عن طبائعها في
بعض الاحوال على يديه فذلك من الكرامات ايضا وهي احوال تلازم بعض المنفرغين للعبادات
والرياضات من اهل الفطر السليمة والنفوس الكريمة . فان الجسد متى انحط سلطانه واسطة
الرياضة اشرق نور الروح وظهرت دولتها ومن كانت روحه اغاب عليه من جسده غلبت
عليه خصائصها وخصائصها الحكيمة على المادة ونواميسها فحدث على يد ذلك الصالح امور
خارقة للمادة لا يريد لها ور بما تستر من اجلها . وهذا لا ينكره الا من ينكر الروح وسلطانها
وخصائصها ومن كان كذلك فليقرأ فصل ما وراء المادة من هذه المقدمة .

هذا ما يقال من امر الولاية والكرامة على مذهب القرآن اما ما وراء ذلك من دفن
الصالحين في مدافن خاصة ورفع القباب عليهم وايقاد السرج بجانب اضرحتهم وترتيب
الخدم لهم ونذر التذوق باسمهم وتقريب القرايين اليهم والاستغاثة في الملمات بهم والتمسح
بمقاصيرهم راءاء قبورهم ووضع العائم والبراقع فوقهم فمن اشد مناعي الشرع وهي مما لم
يحدث في الاسلام الا بعد الصدر الاول بقرون عديدة وهو من افطع البدع التي بدل
المسلمون بها اكرم اصول هذا الدين المحفوظ في الكتاب والسنة . وقد بدأت هذه البدعة
في التناقص عن المسلمين شيئا فشيئا بتأثير الكتابات التي كتبت في هذا الشأن من
اصحاب البصر في الدين ورجوانه لا يمضى كثير من الزمان حتى لا يكون لهذه البدعة
اثر في نفوس المؤمنين

﴿ الشاءة والتوسل ﴾

(في نظر القرآن)

ذكر الله مسألة الشفاء في كتابه الكريم مرارا فقال تعالى « من ذا الذي يشفع عنده
 الا باذنه » ردا على قول الكافرين في حق اصنامهم « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » وقال تعالى
 تبتيسا للذين يعتمدون على الشفاء « وكم من ملك في السموات لا تنفى شفاعتهم شيئا »
 اعتاد الناس من قديم الزمان على الاعتماد على صلاحاتهم في الشفاء لهم عند الله فكانوا
 يستعملون كل أنواع الاسرافات ارتكائا على هذه العقيدة فقطع الله حججهم جميعا بهذه
 الآية وهي : « ليس بامانيكم ولا امانى اهل الكتاب من يعمل سواء يجزيه » فاذا كان الله
 يخاطب الصحابة بقوله ليس امرنا بامانيكم ، فهل بعد هذا لمسلم ان يعتمد على امنية او يرتكن
 على خيال . نعم ورد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفع للمذنبين فان صدق هذا الحديث
 فان يشفع الا لمن يأذن الله له بالشفاعة لهم من يستحقون الدفوع على مقتضى العدل الالهي
 بدليل قوله تعالى « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » وعليه فروح الاسلام الحق هو ما
 قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته « اعلمي يا فاطمة فاني لا اغنى عنك من الله شيئا »
 اما اتوسل بحاج النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد فيه حديث الا من طريق الآحاد
 ولا اثر لهذا الامر في القرآن ولا في السنة المتواترة ولم يرد على السنة الصحابة كما تدل
 عليه الادعية المسأورة عنهم من طريق صحيح ، وقد الف المؤلفون في القرن الاول كتابا
 وتقارير وكذلك في القرن الثاني فلم نجد لامر التوسل بحاج النبي أثرا في كلامهم . والذي
 نراه نحن ان الاولى اجتناب الامور المشكوك فيها احتياطا للدين فان الذي يفسد الاديان
 هو التساهل في اصولها . ونحن ان تركنا التوسل فلم نجح على الدين أدنى جنابة لانها ليست
 بفرض عاينا ولا مما يتوقف عليها فرض ولا سنة .

﴿ القضاء والقدر ﴾

(في نظر القرآن)

النظر المجرد في الكون يدلنا على انه قائم على نظام ثابت والبحث السطحي في هذا

بدلنا على ان له قوانين ونواميس تمسكه وتحفظه فلا تحدث في الهواء حركة ولا تسقط من شجرة ورقة الا تبعاً لقانون ثابت وفاعل مؤثر . هذا الامر مشاهد في عوالم الجمادات والنباتات اتم مشاهدة ، وهو في عالم الحيوانات اقل ظهوراً لما تمتع به من الحس والحركة وهو في العالم الانساني يحتاج لتأمل ونظر فلو قلت للمتوحش ان كل حركة وسكنة فيك تابعة لقانون ثابت شك في قولك ان لم يكن اخذه من طريق الدين بالتسليم

أنحمد الدين والعلم الطبيعي على ان الانسان مجبر على افعاله حتى ان احد رؤس الماديين المصريين بوشنر الالماني قال ان الحرية الانسانية التي اعتبرها الروحانيون . مبدأ للاختيار والارادة وهم باطل فان الانسان في ذاته حادث طبيعي محكوم بالطبيعة التي كونه والمناخ الذي رباه والوسط الذي يقفه والجنس الذي نشأ منه والتربة التي غرست فيه من صغره يتصدق الرجل منا مثلاً فان سأله عن السبب الذي حمله على التصديق قال لك ارادتي فان سأله وما الذي حمل ارادتك قال شفقتي فان قلت وما الذي اوجد لك الشفقة دون جارك قال ورثتها عن أبي وجدى او من طبيعة مزاجي . فان سأله ومن الذي اوجد لك هذا المزاج وصور اباك شقيقاً . قال الله تعالى بما اوجده من عوامل ، اذن فقد حكمتما بان الباعث للصدقة في الواقع هو الله . وهكذا نستطيع ان تصعد بسائر أعمالك الى موجدها الاول سبحانه وتعالى

هذا معنى القضاء والقدر وهو معنى قوله تعالى « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » وبعد ان أثبت الله تعالى علمه بالجزئيات قرر في آية أخرى بأن كل الحوادث هو فاعلها فقال تعالى « قل كل من عند الله » وقال تعالى « خلقكم وما تعلمون »

اذا تقرر هذا قال لنا قائل : اذا كانت أعمال الانسان مقدرة عليه تقديره فكيف يصح ان يعاقبه في الآخرة على فعل ليس هو فاعله في الحقيقة

حل هذه المسألة يقتضي ان ندرك كنه علاقة الخالق بالانسان ، وكيفية ترتيب

الاحوال في العالم الاخرى على أعمال الانسان في هذا العالم ، وحكمة خلق الشر في الدنيا

وحقيقة النظام الكوني من حيث عوامله وكثافته وغاية كل منها، والخلاصة ان حل هذه المسئلة العويصة يستدعي تمام الالمام بمسائل ليس للانسان منها الا علم سطحي لا يغني عن الكنه شيئاً ولو سمحنا لانفسنا بالخوض في هذه المسئلة مع جهلنا لمقدماتها كنا كالجبال يرون الترامواي سائراً فيملكون حركته تعليلاً طفلياً يضحك العاقل ويضل الجاهل فوقونا أمام هذه المسئلة سببه جهلنا بمقدماتها فاذا انتظرنا حتى يفتح الله علينا بالمقدمات كان كلامنا فيها عن بصيرة وبينة

انا نستطيع ان نذكر في هذا الموضوع كلاماً تنفي به عن أنفسنا امام البسطاء صفة الجمل، ولكننا نعلم ان مامن حل لهذه المسئلة الا وهو قابل للانتقاد والرد فليجعل كل منا هذه المسئلة مما يسأل الله هدايته الى حله وليتق الله في الطلب وهو يفتح عليه من العلم والطمأنينة ما لا يجد بمضيه بالجدال والخصومة قال الله تعالى: « واتقوا الله ويعلمكم الله »

النعيم والعذاب الاخرويان

ذكر الله ترغيباً للناس ونزهياً لهم ان الحياة الآخرة دار الحساب والثواب والعقاب من عمل صالحاً في دنياه نال مناه، ومن عمل سيئاً جوزى على ما قدمت يداه. وقد أطلق الله على دار الثواب لفظ الجنة وعلى دار العقاب لفظ جهنم

الجنة لغة هي الحديقة ذات الشجر وقيل ذات النخل

وتطابق اصلاً على ما أعده الله للصالحين من عبادته في الحياة الآخرة مكافأة لهم على صالح أعمالهم وجميل أثرهم في العالم الارضي وقد وصفها الله بأنها ذات أنهار وأشجار وفواكه ولحوم وأزواج على مثال ما هو موجود في العالم الارضي وان كان أرق منه في النوع والشكل والطعم وقد تكرر ذكرها في الكتاب الشريف على صور شتى فتكلم في ذلك بعض مؤلفي أوروبا ولغطوا فيه واستبعدوه ومال الى أقوالهم بعض مقلديهم من المسلمين واخذوا يؤولون النصوص الجلية زاعمين ان الله اورد ذلك للتأثير على أفكار العرب بما يحبون، اما الجنة فهي روحانية محضة وكذلك البعث بالروح وحدها ليس بالجسد وما أدام الى هذا التأويل الا

استبعاد تكوين الاجساد بغير توالد وهو الحاد خفي في شكل اسلام زاق. والتحقيق عندنا في

فهو ان البعث بالجسم والروح معا وان الجنة هي على المثال الذي حكاه الله لنا فيها أشجار وأنهار ولبن وعسل وفواكه والراقين من أصحاب الارواح العالية نعيم أرقى من هذا كل على حسب درجته . ووجه تحقيقنا البعث بالجسد هو اننا ما عهدنا الانسان انساناً الا يجسد وروح معاً فالذي يعيل بنا الى زعم بعثه بروح مجردة على مثال الملائكة غير استبعادنا تكون جسده بدون توالد على النظام العادي ؟ وان لنا مع الذي يستبعد ذلك أقوالاً تناسب حاله فان كان مسلماً قلنا له انك تؤمن بأن جبريل كان يظهر أحياناً لرسول الله على صورة دحية الكلبي بجسد يلمس وصوت يسمع وما أنى جبريل عليه السلام بهذا الجسد الا بخاصية أودعها الله درجه يقدر معها على التلبس بالمادة وقتما أراد والروح في حقيقتها تشبه أرواح الملائكة متى أراد الله بعثها تقمصت بجسد على المثال الذي رأيته من جبريل وغيره كالملائكة الذين دخلوا على ابراهيم وغيرهم . وان كان غير مسلم قلنا له دونك المشاهدات التي يشاهدها علماء أوروبا في تجسد الارواح تران جسداً يظهر لك من حيث لا ترى ولا تدري بخاصية في تلك الروح المتجسدة تتناول بها ذرات المادة من حيث تشاء فتظهر بها أمامك بشراً سوياً ثم تخلها أمامك ثانياً وتتركها وترحل الى عالمها فان ثبت ذلك لتلك الارواح (نسبها أرواحاً مع التحفظ) التي يشاهدها علماء أوروبا فالمانع من ان الروح اذا أعيدت للبعث تقمصت في الحال بجسد بخاصية فيها ذاتية ؟

أما وجه تحقيقنا ان الجنة مادية حسية فهو اننا لا نرى وجباً لتأويل الكلام الالهي مع تكرار نصوصه في ذلك فضلاً عن ان فرض جنة روحانية مما لم يألفه الطبع البشري ولم يناسب تركيبه وما دعا اولئك الذين يترنمون بالجنة المعنوية الى التأويل الاستبعادهم وجود الجنة المادية ولو تأملوا لما استبعدوها ولأروا ان الجنة المادية من أقرب الممكنات . كيف لا تكون من أقرب الممكنات . ونحن على ما يشبهها وكيف يستبعد على من خلق لنا هذه ان يكون قد خلق لنا عالماً على شكلها ولكن بأرقى نظام واكمل أحكام ؟ فلو أنصف اولئك المؤولون لمكسوا الامر واستبعدوا الجنة المعنوية غاية الاستبعاد على انه ليس في الامر الا ما قلناه من ان الداعي الى تأويل أمثال هذه المسائل هو الخاذ كامن في شكل اسلام راق ولو تأملوا بعض التأمل لأروا ان الحشر بالاجساد هو الحشر المعقول وان المكافات الاخرية

على الشكل المادي هو الامر الذي يمكن ان يقام عليه الدليل وان تضرب له الامثال
 اما جهنم فهي مكان العقاب الاخرى . وقد اختلف المسلمون في أمرها فحمل جمهور
 المسلمين الآيات الواردة فيها على ظاهرها وقالوا انها نار متأججة لها شرر ووقود ودخان الخ
 وان الناس تلقى اليها فتلتهم وقال طائفة قليلة من الصوفية والمعتزلة بل هي نار معنوية
 وما ورد فيها من الآيات فهو من قبيل المجاز لا الحقيقة كما هو أسلوب اللغة العربية في
 مواطن الترغيب والترهيب وما شاكلها . ويذهب بعض المعريين من أصحاب البصر في
 الدين الى هذا القول الاخير لمناسبته لعقولهم وموافقته لفلسفتهم فانهم يقولون اذا كان من
 المؤكد ان الرجل الذي عاش عمره في هذه الارض غير مفكر الا في شهواته البدنية او
 اطماعه التجارية والمالية ولم يقدم لنفسه عملاً روحانياً يأنس اليه يوم لا سلطان الا للروح فلا
 جرم يذهب الى العالم الاخرى وليس له رأس مال يفيد مما يناسب أمر ذلك العالم . فيعيش
 فيه كما يعيش من لا رأس مال له في هذا العالم أي فقيراً عاملاً يتعب وينصب طول عمره
 وينفق قواه ومداركه في سبيل تحصيل قوام حياته على أبسط حالة وأدناها وهو معرض
 نفسه للفتح الشمس ووخزها وتفتح الرياح وصرها تارة متوقلاً رؤس الجبال لقطع الصخور
 وجرها وطوراً حافراً الارض لاستخراج معادنها وكنوزها . وهو في كلتا هاتين الحالتين اما
 ان يهوى به الريح الى مكان من سفح الجبل سحق أو يثور عليه غاز الجزرو وهو في تلك
 المناجم (الجزرو غاز مهلك يتصاعد في المناجم) فيحرقه هو والمئات من أمثاله في لحظة
 واحدة كما حدث اخيراً بمناجم كوريير بفرنسا حيث مات في لحظة واحدة أكثر من
 ١١٠٠ نسمة .

ضع هؤلاء العمال النساء أمامك ثم انظر الى أصحاب الثروة الذين يطأون الدمقس
 والحرير ويتوسدون الفراش الوثير في قصور تناطح السحاب وتسامر الكواكب محاطة
 بالرياض اليانة والزهور الساطعة . ثم قارن هؤلاء بتلك الطبقة العاملة الناصبة وقل لي تري
 ماذا ان استطعت المقارنة وقويت على امعان التأمل ؟ الا ترى ان هؤلاء الاشقياء كأنهم
 في جحيم وكان أولئك في نعيم مقيم . ومن هؤلاء وأولئك ؟ أولئك أصحاب رؤس الاموال
 الذين ذابوا على ادخار النصار وجمعه بالعلم والاختبار ، وهؤلاء هم الذين حرّموا أنفسهم من كل

ذلك بجهلهم وغباوتهم ونهاوتهم في أمرهم .

لو تأملت هذا التأمل ثم علمت ان الدار الآخرة دار لا يناسبها الا الكمال الروحاني والطهر النفساني فاذا انتهى الناس اليها يوما كان منهم من اجتهد في دنياه للكمال الروحاني وذاب ، ومنهم من أهمل ذلك كله ولم يتعاق منه بسبب . أفلا ترى ان الاولين يكونون هنالك في منزلة اصحاب رؤس الاموال في هذه الدار وان الآخرين يكونون بمثابة المحرومين هنا من المال ؟ افلا تستنتج من هذا ايضا ان الاولين سيكونون في نعيم ورخاء وان الآخرين سيكونون في بؤس وشقاء كما هو الحال هنا بين اصحاب رؤس الاموال ومن عداهم ؟ ولكن مع هذا الفارق العظيم وهو ان لهذا العالم شؤنا غير شؤون العالم الآخر فتشبهنا هذا هو تشبيهه مع الفارق فلا بد من ان النعيم هنالك سيكون على حال تناسب شؤنه وسيكون فيه الشقاء على تلك النسبة كذلك

واذا كنت وانت في هذا العالم الادنى لا تستطيع ان تأني بعبارة تجمع لك أشخاص النعيم الذي فيه المترفون وأشخاص الشقاء الذي يقاسيه المحرومون الا بقولك هؤلاء في الجنة وأولئك في النار . فما بالك لو اطلمت على العالم الاخرى ورأيت ما يعد لاهل الكمال من مقام السعادة ومعاهد الكرامة وما يهيء لاهل السفالة من منازل الدناءة ودركات التعاسة ؟

هذا فكر بعض العصريين والمؤمن يجب عليه ان يبرأ الى الله من كل ظن لا يحققه بعلم يقين عملا بقوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) . والا حوط له ان يمتد بالثواب والعقاب ويكمل تحقيق ذلك الى مولاه فهو ولي الكفاية

﴿ جمع القرآن ﴾

الكتاب الكريم الذي اوحاه الله الى خاتم انبيائه محمد صلى الله عليه وسلم هدى ونورا للعالمين نزل نجوما على حسب الحوادث ثم جمع فكان هو ذلك الكتاب الالهي الذي جعله الله آية خالدة ، يتهدى بسناه العالمون ويمشوا الى ضوئه الناثون وقد وعد بحفظه فلا يناله المحرفون المبدلون فقال تعالى (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)

بدأ نزول هذا القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ثم توالى حتى تم في ثلاث وعشرين سنة وقيل في عشرين سنة وأول ما نزل منه في غار حراء (اقرأ باسم ربك الذي خلق) ثم توالى نزوله على حسب الحوادث وكان رسول الله جعل له كتابا يكتبونه منهم الخلفاء الأربعة والزبير وخالد وإبان ابنا سعيد ابن العاص وعلاء ابن الحضرمي وإبي ابن كعب وغيرهم كثيرون وكان جبريل يعلم رسول الله أن يضع آية كذا في موضوع كذا على الترتيب الذي عليه آي السور أما ترتيب السور فقد قال أكثر المسلمين أنه اجتهاد من الصحابة ولا ضير عليك لو قرأته بأي ترتيب شئت. وكان من الصحابة من جمع القرآن كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبي بن كعب ومعاذ ابن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد بن سعيد وعبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وعمر وعثمان وأبو بكر وعمر بن العاص وعائشة وحفصة وأم سلمة وغيرهم كثيرون ولكن بعض هؤلاء الآخرين اكملوا جمعه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

لما ظهر في الحياة بعد رسول الله مسيامة الذي ادعى النبوة وفقن كثيرا من العرب أرسل أبو بكر إليه جيشا فقاتله ودحره ولكن مات في تلك الموقعة سبعون من قراء القرآن فقال عمر لابن بكر أخشى أن يستمر النبل بالقراء في سائر مواطن القتال فيذهب من القرآن وأنا أرى أن تأمر بجمع القرآن. فأرسل أبو بكر لزيد بن ثابت وعهد إليه بهذا الأمر فجمع جميع الحفاظ وكل ما كتب من القرآن حتى اجتمع كله في مصحف واحد حفظه أبو بكر عنده ثم عند عمر في حياة أبي بكر ثم أودعه عند حفصة ابنته.

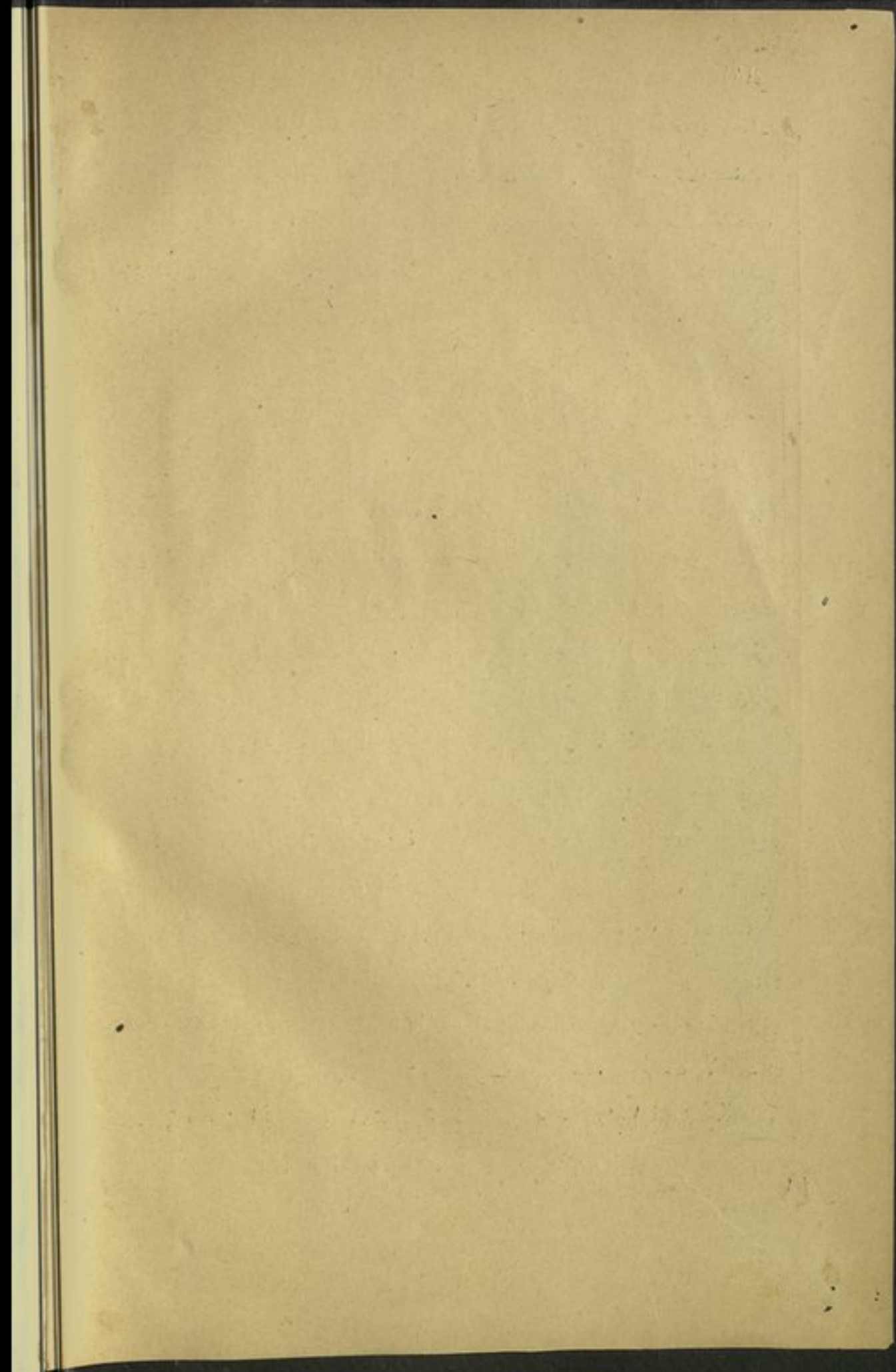
ثم لما انتشر المسلمون في الآفاق اختلف الناس في القراءة على حسب اختلاف لغاتهم مثل التابوت كان يقرأها بهم بالبناء وبعضهم بالهاء فآخبروا عثمان بذلك فاستعار مصحف أبي بكر من عند حفصة وكتب منه أربع نسخ وضبطها بلغة قريش دون غيرهم لأن لغات العرب تشبهوا وأكملها لغة قريش وهي التي نزل بها القرآن. فأرسل إلى كل مصر بمصحف وأمر الناس بأن ينسخوا مصاحفهم منها وأمر بأحراق كل ما خالفها. وكان ذلك سنة ثلاثين من الهجرة.

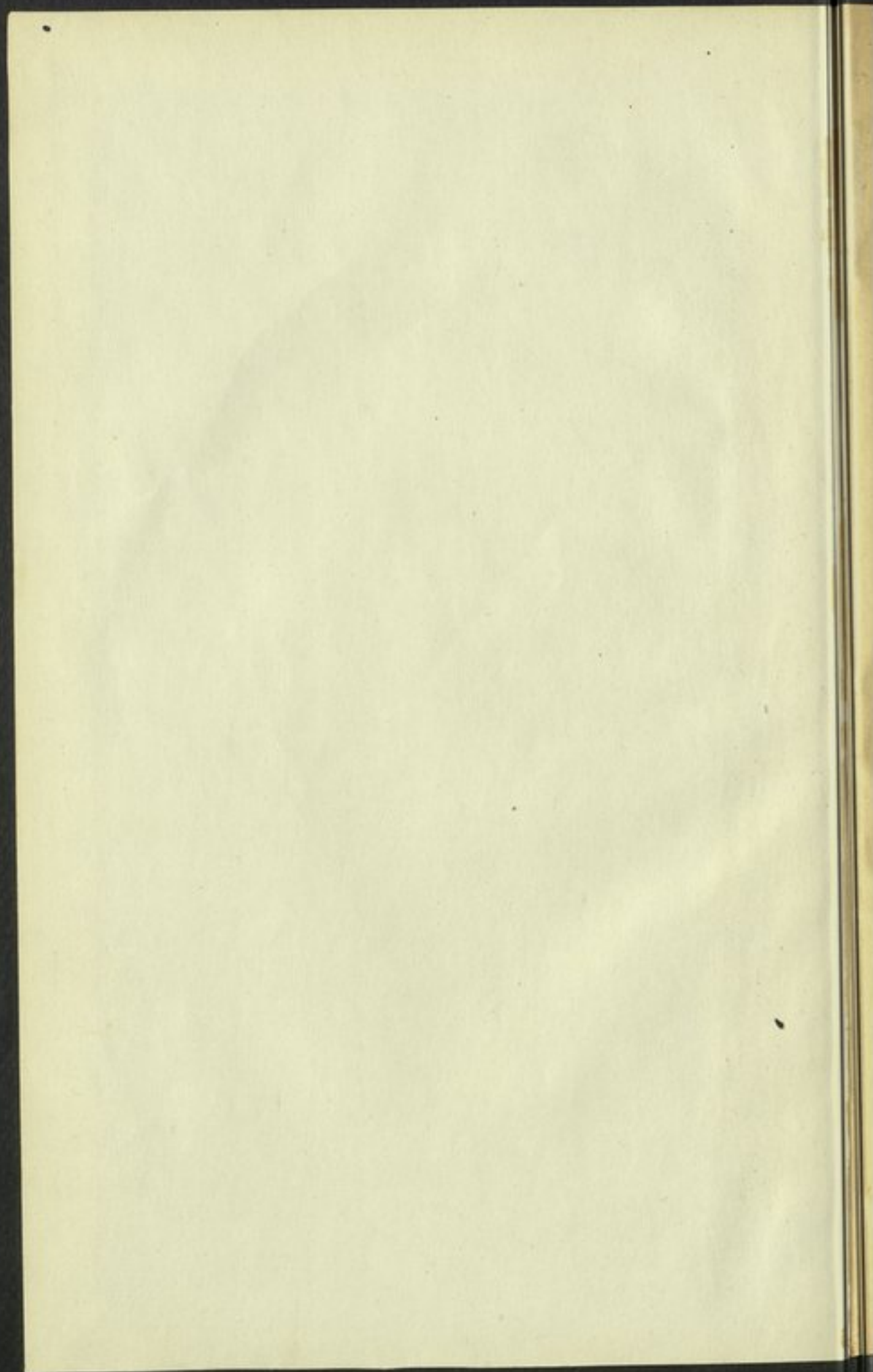
﴿النراآت﴾ لما نزل القرآن وحفظه الناس في صدورهم كانوا يقرأونه على وجوه

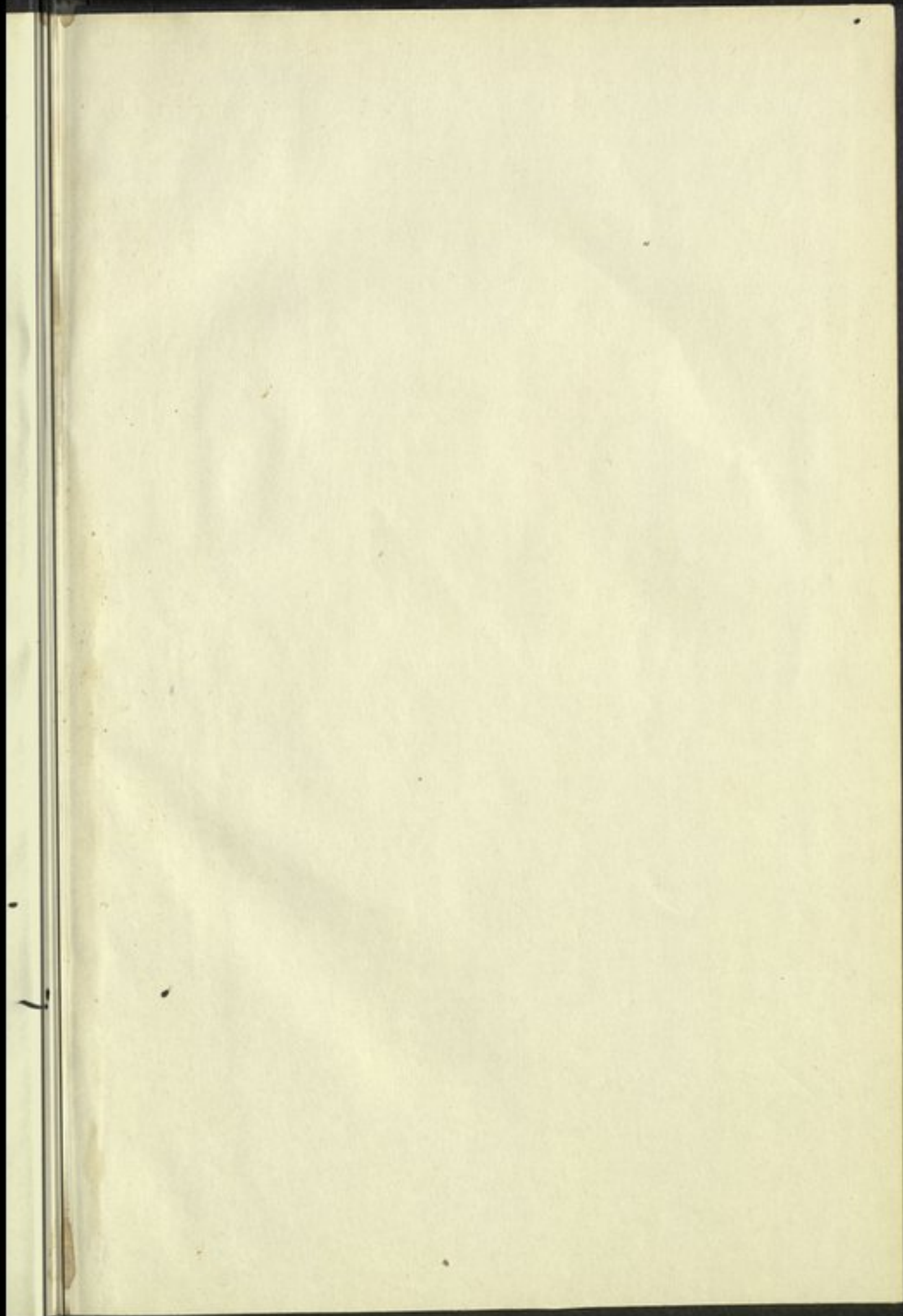
مختلفة بحسب لغاتهم وللعرب لغات متعددة افصحها سبعة وارجمها كلها لغة قريش ورخص للناس ان يقرأوا القرآن بلغاتهم فوقع الاختلاف بين الصحابة في بعض الآيات باختلاف وجوه القراءة فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان هذا القرآن نزل على سبعة احرف . فصارت وجوه القراءة في الامصار مختلفة باختلاف لغاتهم مع اختلاف مأخذهم فأهل البصرة اخذوا القرآن من أبي موسى الاشعري . وأهل الكوفة قرأوه بقراءة عبدالله بن مسعود وأهل دمشق قرأوا بقراءة أبي بن كعب وأهل حمص اخذوا القرآن من المقداد وقرأوا بقراءته وكان كل قطر يدعي انه اهدى سبيلا في قراءته فخشي عثمان هذا الاختلاف فجعل القراءة بلغة قريش دون غيرها . ولكن لم يمحض على امره هذا غير زمن قصير حتى عاد الناس الى ما كانوا عليه من الاختلاف في القراءة يتبع كل قطر قارئاً ويشق به ثم استقر امر الناس على سبع قراءات معينة تواتر نفلها من القراء . واصحاب هذه القراءات هم (نافع بن ابى رؤيم) و (يزيد ابن القعقاع) في المدينة و (عبدالله ابن كثير) في مكة . و (ابو عمرو بن العلاء) و (يعقوب الحضرمي) في البصرة . و (عاصم بن ابى النجود) و (حمزة بن حبيب الزيات) و (علي الكسائي) و (خلف البزاز) في الكوفة وكان يوجد غير هؤلاء من يقرأ قراءات كثيرة المخالفة سميت بالقراءات الشاذة . على ان القراءات السبع قد اصعدت الى عشر وعدت كلها اصولاً للقراءة . وهي كلها جائزة يصلى بها على السواء بخلاف الشاذة

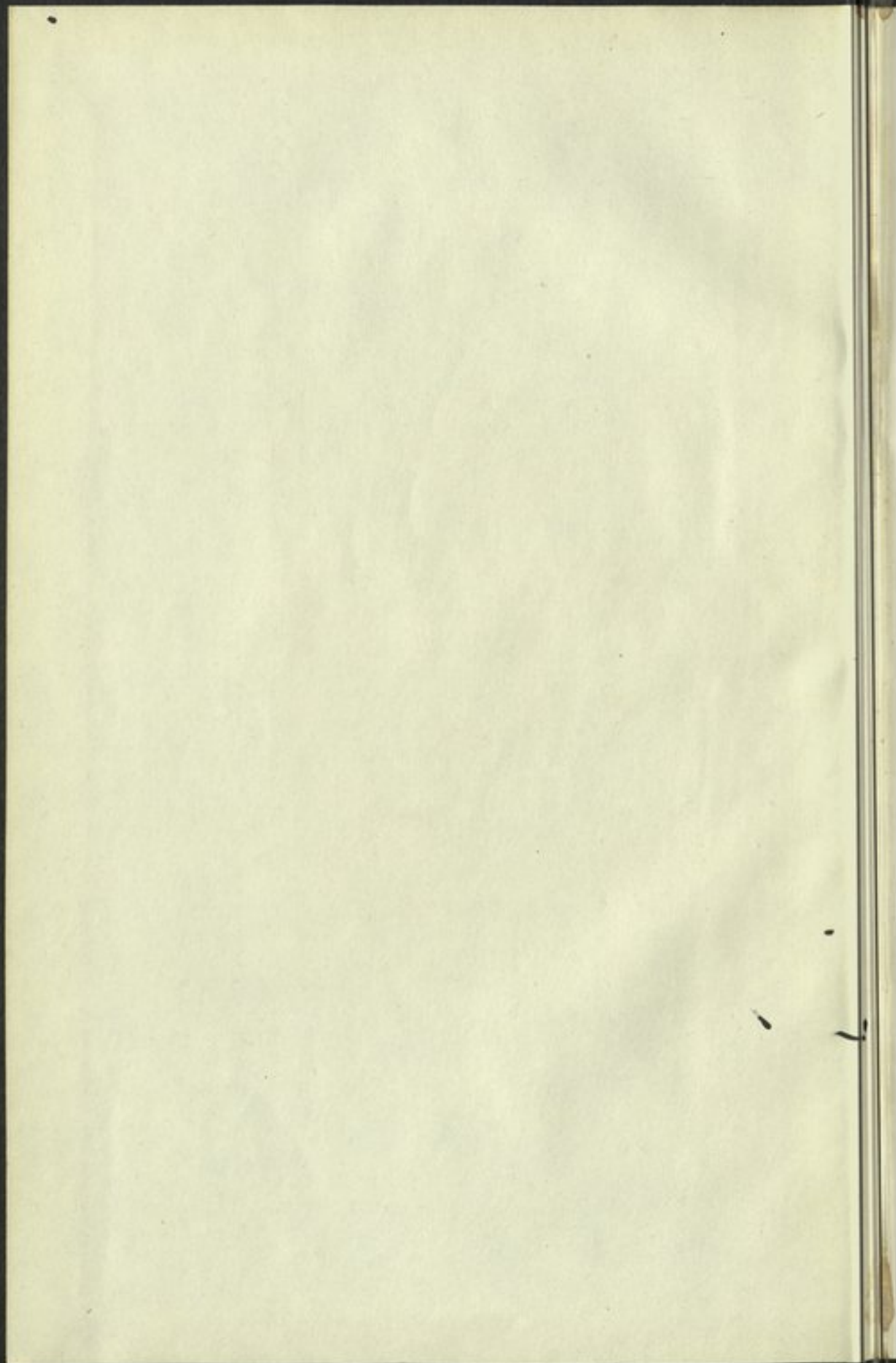
واختلاف القراءات العشر منحصرة في اختلاف الالفاظ في الحروف او في كيفية من تخفيف او تشديد وغيرها كما في قوله تعالى (فاستقما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) قرأها بن ذكوان بتشديد النون على انها للتوكيد ولا ناهية وقرأ غيره بتخفيفها على انها للرفع ولا ناهية . وكقراءتهم قوله تعالى (لتكون لمن خلقت آية) وابدال بعضهم الفاء بتاء فقرأوها (لتكون لمن خلقت آية) اما القراءة الشاذة فتكون بتغيير ذات الالفاظ في بعض المواضع مما يغير معنى الآية ولا تجوز بها الصلاة . وقد تم ما اردنا ابراده في هذه المقدمة وسنتبعها بفهرست عام للقرآن الكريم يستطيع بواسطته الباحث والكتاب ان يجد جميع الآيات القرآنية الواردة في كل موضوع على حدتها . والحمد لله اولاً وآخر آ

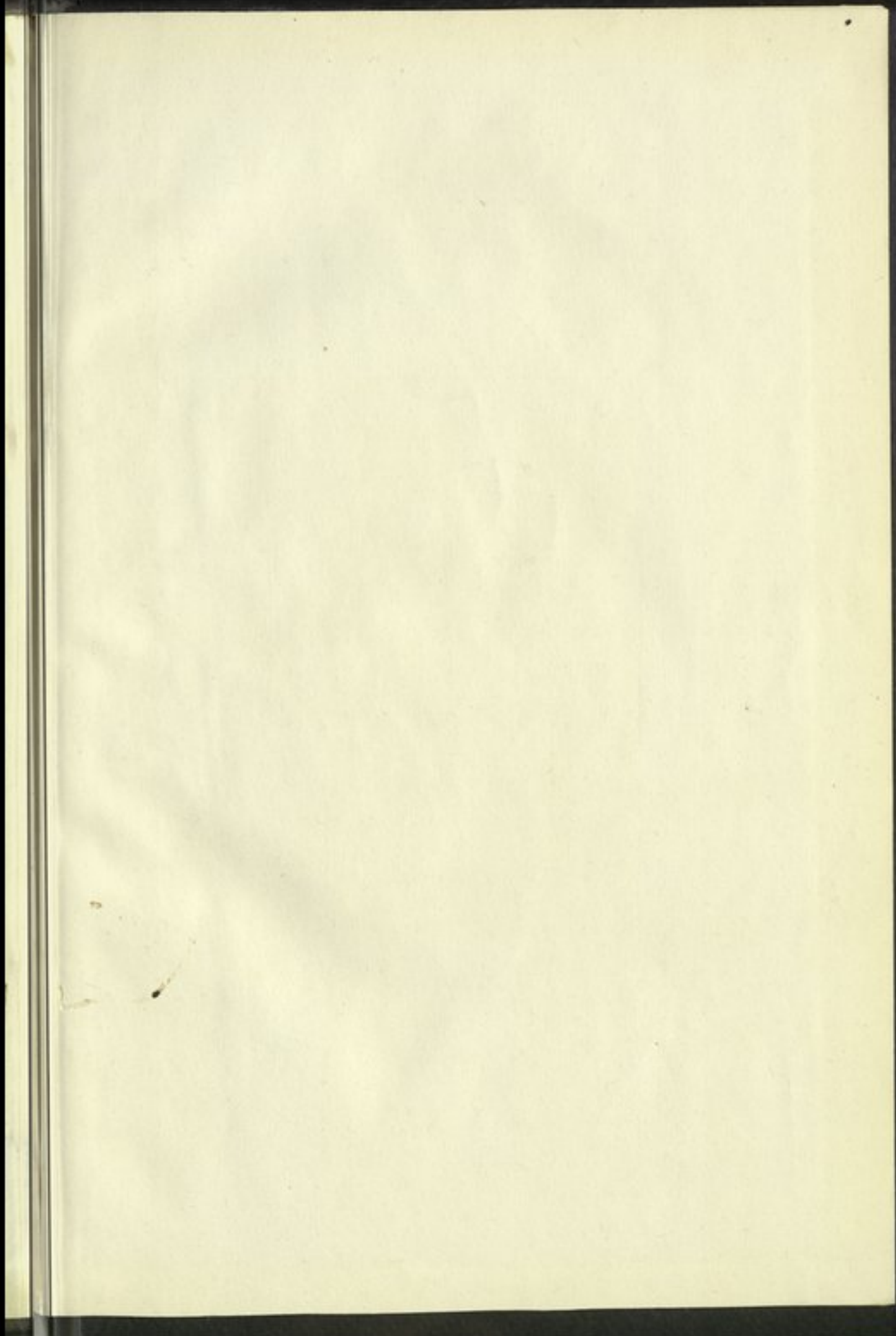
والصلى الله وسلم على خاتم انبيائه وعلى كل عبد صالح











وجدى، محمد فريد
صفوة العرفان في تفسير القرآن

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00010014



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

297.207
VW141sA